

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير

سورة يونس سورة هود
سورة يوسف سورة الرعد
سورة إبراهيم

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد السابع



دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العَدَوِي
الأستاذ بطلية الدعوة الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « يونس » - عليه السلام - حاولت فيه أن أكشف عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية وآداب عالية ، وهدايات جامعة ، وإرشادات حكيمة ، وحجج باهرة ، تقذف حقها على باطل الضالين فتدمغه فإذا هو زاهق .. وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ في تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها ، تكون بمثابة التعريف بها ، وبمقاصدها الإجمالية .

وأحمد الله - تعالى - أجزل الحمد وأوفاه ، أن وفقني قبل ذلك لتفسير سور : الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة « ... والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تحريرا في ١٧ من المحرم سنة ١٤٠٠ هـ
الموافق ٧ من ديسمبر سنة ١٩٧٩ م

المؤلف د . محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدي السورة

١ - سورة يونس - عليه السلام - هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور : « الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة » .

٢ - وكان نزولها بعد سورة « الإسراء » .

٣ - وعدد آياتها : تسع ومائة آية عند الجمهور . وفي المصحف الشامي مائة وعشر آيات .

٤ - وسميت بهذا الاسم تكريماً ليونس - عليه السلام - ولقومه الذين آمنوا به واتبعوه قبل أن ينزل بهم العذاب ، وفي ذلك تقول السورة الكريمة : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾^(١) .

٥ - وسورة يونس من السور المكية ، وعلى هذا سار المحققون من العلماء .

وقيل إنها مكية سوى الآية الأربعين منها وهي قوله - تعالى - ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾ والآيتين الرابعة والتسعين ، والخامسة والتسعين وهما قوله - تعالى - : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴾ .

قال صاحب المنار : وقال السيوطي في الإتيان : استثنى منها الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، فقيل إنها مدنية نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين آية مكى ، والباقي مدني ، حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء .

ثم قال صاحب المنار : وأقول إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية ، وكون المراد بالذين يقرأون الكتاب في الآية (٩٤) اليهود لا يقتضى أن تكون نزلت بالمدينة ، وبيان ذلك من وجهين :

أحدهما : أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ، ولذلك قال الرسول

- ﷺ - : « لا أشك ولا أسأل » ، وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى .

وثانيهما : أن هذا المعنى نزل في سورة مكية أخرى ، كقوله - تعالى - في سورة الإسراء : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ﴾ (١) .
وقوله - سبحانه - في سورة الأنبياء : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (٢) .

والذى تظمن إليه النفس ، أن سورة يونس جميعها مكية ، كما قال المحققون من العلماء ، لأن الذين قالوا بوجود آية أو آيات مدنية فيها لم يأتوا برواية صحيحة تصلح مستندا لهم ، ولأن السورة الكريمة من مطلعها إلى نهايتها تشهد فيها سات القرآن المكى واضحة جلية ، فهى تهتم بإثبات وحدانية الله ، وإثبات صدق النبى - ﷺ - وإثبات أن هذا القرآن من عند الله ، وأن البعث حق ، وأن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، قد تولت السورة الكريمة دحضه بأسلوب منطقي رصين ..

والذى يطالع هذه السورة الكريمة يتدبر وخشوع ، يراها فى مطلعها تتحدث عن سمو القرآن الكريم فهدايته وإحكامه ، وعن موقف المشركين من النبى - ﷺ - ودعوته ، وعن الأدلة على وحدانية الله وقدرته .

قال - تعالى - : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ثم نراها فى الربع الثانى منها تصور بأسلوب حكيم طبيعة الإنسان فتقول ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ الآية ١٢ .

ثم تحكى مصارع الظالمين ، وأقوالهم الفاسدة ، ورد القرآن عليهم فتقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

وبعد أن تمضى السورة الكريمة فى دحض أقوال المشركين ، وفى بيان الطبايع البشرية ، نراها فى مطلع الربع الثالث . تصور لنا حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الضالين ، فتقول :

(١) الآية ١٠١ .

(٢) الآية ٧ تفسير المنار ج ١١ ص ١٤١ الطبعة الرابعة - مكتبة القاهرة .

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ثم تأمر السورة الكريمة النبي - ﷺ - أن يسأل المشركين بأسلوب توبيخي عنم يرزقهم في السموات والأرض ، وعنم يبدأ الخلق ثم يعيده ، وعنم يهدى إلى الحق ، فتقول : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .

وبعد أن تتحدى السورة الكريمة المشركين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . وتعلن عن عجزهم على رهوس الأَشْهاد ، تأخذ في تسلية الرسول - ﷺ - وفي تصوير جانب من أحوالهم في حياتهم وبعد مماتهم فتقول :

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين . وإن كذبتك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون .. ﴾ .

ثم نراها في الربع الرابع توجه نداء إلى الناس كافة تدعوهم فيه إلى الإقبال على ما جاء به الرسول - ﷺ - من مواعظ فيها الشفاء لما في الصدور ، وفيها الهداية لما في النفوس فتقول :

﴿ يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ .

ثم تسوق جانباً من مظاهر قدرة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، فتقول : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

وفي مطلع الربع الخامس منها تحكى لنا جانباً من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه نصحهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان قال - تعالى - :

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف ، وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .

ثم تحكى لنا جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، ومن المحاورات ، والمجادلات التي دارت بينها ، ومن الدعوات المستجابة التي توجه بها موسى إلى خالقه ، فتقول : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيبا ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

ثم نراها في الربع السادس والأخير منها ، تحكى لنا ما قاله فرعون عندما أدركه الفرق ، كما نخبرنا عن النهاية الطيبة التي لقوم يونس - عليه السلام - بسبب إيمانهم ، ثم تسوق ألواناً من مظاهر قدرة الله ، ومن حكمه العادل بين عباده ، ومن رعايته لأوليائه ورسله فتقول : ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا نتج المؤمنين ﴾ .

ثم تختتم السورة الكريمة بتوجيه نداء إلى الناس تبين لهم فيه أن من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، وأن من ضل فإنما يضل عليها فتقول : ﴿ قل يأياها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ .

* * *

تلك أهم المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنها نرى بوضوح أن السورة الكريمة قد عنيت عناية بارزة بإثبات وحدانية الله وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، تارة عن طريق مخلوقاته التي يشاهدونها كما في قوله - تعالى - : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ... ﴾ .

وتارة عن طريق اعترافهم بأن الله وحده هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما في قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ .

وتارة عن طريق لجونهم إليه وحده لاسيما عند الشدائد والمحن ، كما حدث من فرعون عندما أدركه الفرق .

كذلك نرى السورة الكريمة قد عنيت بدعوة الناس إلى التدبر والتفكير وإلى الاعتبار بمسار الظالمين ، وإلى عدم التعلق بزخرف الحياة الدنيا ..

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

كذلك نرى السورة الكريمة قد اهتمت بالرد على الشبهات التي أثارها المشركون حول القرآن الكريم ، وحول البعث وما فيه من ثواب وعقاب ...

فأثبتت أن هذا القرآن من عند الله ، وتحذتهم أن يأتوا بسورة من مثله فقالت : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

كما اثبتت أن يوم القيامة حق ، وأنهم لن ينجيهم من عذاب الله في ذلك اليوم ندمهم أو ما يقدمونه من فداء فقالت : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

هذا ، والسورة الكريمة بعد كل ذلك تتناز بأنها قد عرضت ما عرضت من هدايات وتوجيهات بأسلوب بليغ مؤثر ، تقشع منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وتخشع له النفوس .. مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .
وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا
 لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

سورة يونس من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى .

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التي افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهى سورة : ص ، ق ، ن .

والسور التي افتتحت بحرفين تسعة ، وهى : طه ، طس ، يس ، وحم فى ست سور ، هى : غافر ، فصلت ، الزخرف . الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .

والسور التي بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى : ألم فى ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، والر فى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، وطسم فى سورتين هما : الشعراء ، القصص . وهناك سورتان بدتتا بأربعة أحرف وهما : الأعراف ، الرعد . وسورتان بدتتا بخمسة أحرف وهما : مريم ، والشورى .

فيكون مجموع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .
هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التي افتتحت بها
بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم في رأيين رئيسيين :
الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى
استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - في إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ،
وسفيان الثورى ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن
فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن في فواتح السور .

ويروى عن ابن عباس انه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن على - رضى الله
عنه - قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وفي رواية
أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير
مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك
كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيّب عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم يتنف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول
ﷺ - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى تنفيه أن يكون
الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل السور .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه
الذى استأثر الله بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من
أهلها ما يأتي :

١ - أن هذه الحروف أساء للسور ، بدليل قول النبى - ﷺ - « من قرأ حم السجدة
حفظ إلى أن يصبح » . وبدليل اشتهاى بعض السور بالتسمية بها ، كسورة « ص » وسورة
« يس » .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه
الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة ، وابتداء أخرى .

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته فمثلا « أم » أصلها أنا الله أعلم .

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم ، الى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال . والتي أوصلها السيوطي في كتابه « الإتيقان » إلى أكثر من عشرين قولاً .

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها ، ويقدرّون على تأليف الكلام منها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر لأنه يطرُق أَسْمَاعَهُمْ في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجارى كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوا حكما ، وهدايات قد تكون سببا في إيمانهم . ولعل مما يشهد بصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة ، تتحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول ﷺ - في أغلب المواضع .

ومن ذلك قوله - تعالى - : في أول سورة البقرة ﴿ أم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ . وقوله سبحانه في أول سورة هود : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وقوله - سبحانه - في أول سورة إبراهيم : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وهكذا نرى أن كثيرا من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقبت هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمني عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات وحدانية الله ، وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذي هو معجزة الرسول الخالدة - منزل من عند الله - تعالى - .

هذه خلاصة لأراء العلماء في المراد بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب « الإتيقان » للسيوطي ، وإلى كتاب « البرهان » . للزركشي ، وإلى تفسير الآلوسی .

ثم قال - تعالى - : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .
 ﴿ تلك ﴾ اسم إشارة والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم . ويندرج
 فيها آيات السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب : ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، واستعمل
 عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .
 قال الآلوسی : « وأما حمل الكتاب على الكتب التي خلت قبل القرآن من التوراة
 والانجيل وغيرهما ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة فهو في غاية البعد^(١) » .
 والحكيم - بزنة فاعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أى
 وضعت الحكمة في فمها لمنعها من الجموح والنفور .

والمقصود أن هذا الكتاب ممتنع عن الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .
 قال الإمام الرازى ما ملخصه : « وفي وصف الكتاب بكونه حكيمًا وجوه منها : أن الحكيم
 هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتغاله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر - ومنها أن
 الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين
 الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم والإحكام معناه المنع من الفساد ،
 فيكون المراد منه أنه لا تغيره الدهور أو المراد منه براءته من الكذب والتناقض^(٢) » .
 والمعنى : تلك الآيات السامية ، والمنزلة عليك يا محمد ، هي آيات الكتاب ، المشتمل على
 الحكمة والصواب المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة
 الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى
 جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول
 القرآن عليه ، كما في قوله : - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولًا ثقیلاً ﴾ ووعد الله
 - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من دعوته فقال : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل
 منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قلم صدق عند ربهم ﴾ ..

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لما بعث الله - تعالى - رسوله محمداً - ﷺ -

(١) تفسير الآلوسی ج ١١ ص ٥٨ الطبعة المنيرية .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٥ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٧ م .

أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ... الْآيَةُ ﴾ ^(١) .

والهمزة في قوله « أكان » لإنكار تعجبهم ، ولتعجب السامعين منه لوقوعه في غير موضعه . وقوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ جار ومجرور حالا من قوله ﴿ عَجَبًا ﴾ والمراد بهم مشركو مكة ومن لف لفهم في إنكار ما جاء به النبي - ﷺ - .

وقوله : ﴿ عَجَبًا ﴾ خبر كان ، والعجب والتعجب - استعظام أمر خفى سببه . وقوله : ﴿ أَنْ أَوْحِينَا ﴾ في تأويل مصدر أى : إيجازنا ، وهو اسم كان . والوحى : الإعلام في خفاء ، والمقصود به ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قرآن وغيره .

وقوله : ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ أى إلى بشر من جنسهم يعرفهم ويعرفونه . وقوله : ﴿ أَنْ أَنْذَرَ النَّاسَ ﴾ الإنذار إخبار معه تخويف في مدة تتسع التحفظ من المخوف منه ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله - تعالى - :

والمراد بالناس هنا : جميع الذين يمكنه - ﷺ - أن يبلغهم دعوته .

وقوله : ﴿ وَيُشِرُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ البشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من الخبر ، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التي هي ظاهر الجلد .

وقوله : ﴿ أَنْ لَمْ يَأْتِ بِبُرْهَانٍ ﴾ أى أن لم يأتهم سابقا ومنزلة رفيعة عند ربهم . وأصل القدم العضو المخصوص . وأطلقت على السبق ، لكونها سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد .

وأصل الصدق أن يكون في الأقوال ، ويستعمل أحيانا في الأفعال فيقال : فلان صدق في القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة الصدق عن كل فعل فاضل .

وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق . أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق . ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .

ويجوز أن تكون إضافة القدم إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفي ذلك

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٦ طبعة عيسى الحلبي .

تنبه إلى أن ما نالوه من منازل رفيعة عند ربهم . إنما هو بسبب صدقهم في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل في معنى قوله : ﴿ قدم صدق ﴾ فقال بعضهم معناه : أن لهم أجرا حسنا بسبب ما قدموه من عمل صالح .. وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق في اللوح المحفوظ من السعادة . وقال آخرون : معنى ذلك أن محمدا - ﷺ - شفيع لهم .

ثم قال : وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكى عن العرب قولهم : هؤلاء أهل القدم في الإسلام . أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا ، فكان لهم فيه تقديم . ويقال : لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع^(١)

ومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركى مكة ومن على شاكلتهم ، أن كان يحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكى ييلقهم الدين الحق ، أمرا عجبا ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - ﷺ - حتى لكان النبوة في زعمهم تتنافى مع البشرية . إن الذى يدعو الى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ، لأن الله - تعالى - اقتضت حكمته أن يجعل رسله الى الناس من البشر ، لأن كل جنس يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فما معنى اللام في قوله ﴿ أكان للناس عجبا ﴾ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجبا ؟

قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها . ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم . وليس في « عند الناس » هذا المعنى .

والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر . وأن يكون رجلا من أفتاء رجالهم دون عظيم من عظماهم . فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب . وأن يذكر لهم البعث . وينذر بالنار ويبشر بالجنة . وكل واحد من هذه الأمور ليس

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٥٨ . طبعة دار المعرفة بيروت .

بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرا مثلهم .
وقال الله - تعالى - : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾^(١) .

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضا - لأن الله - تعالى - إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة . والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء قال - تعالى - : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾^(٢) .

والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا إنما العجب والمنكر في العقول ، تعطيل الجزاء^(٣) .

وقدم - سبحانه - خبر كان وهو ﴿ عجبا ﴾ على اسمها وهو ﴿ أن أوحينا ﴾ . لأن المقصود بالإنتكار في الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .
وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ، لأن التخليّة مقدّمة على التحلية، وإزالة مالا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي .

ولم يذكر المنذر به ، لتهويله وتعميمه حتى يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يؤدى اتباعه إلى النجاة من العذاب .

وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر . ولذا قال - سبحانه - ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أى جميع الناس .

وذكر - سبحانه - في جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لكى تقوى رغبتهم فى طاعته . ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به . ثم وضح - سبحانه - ما قاله الكافرون عند مجيء الرسول - ﷺ - بدعوتنا فقال : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

أى : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون - ﷺ - رسولا إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بين السحر واضحه . حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

(١) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٢) سورة « سبأ » الآية ٣٧ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٤ . طبعة مصطفى الحلبي .

وعلى هذه القراءة التي وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول - ﷺ - .

وقرأ الباقر : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ أى : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة في جذب النفوس إلى الايمان بما جاء به محمد - ﷺ - .

قال ابو حيان ما ملخصه : « ولما كان قولهم فيما لا يمكن أن يكون سحرا ظاهر الفساد ، لم يحتج إلى جواب ، لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة ، وخلطتهم له ، - وأنه لا علم له بالسحر - وقد أتاهم بعد بعثته بكتاب إلهى مشتمل على مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التي أعجزتهم ..

وقولهم هذا؛ هو دين الكفرة مع أنبيائهم . فقد قال فرعون وقومه في موسى - عليه السلام - ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وقال قوم عيسى فيه عندما جاءهم بالبينات ﴿ هذا سحر مبين ﴾ ودعوى السحر إنما هي على سبيل العناد والجحد^(١) .

وقال الآلوسى « وفي قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر ، نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولكنهم يسمونه سحرا تماديا في العناد ، كما هو شئشنة المكابر اللجوج ، وشئشنة المفحم المحجوج^(٢) .

وجاءت الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استئنافا مبنيا على سؤال مقدر ، فكأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب ؟ فكان الجواب : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ويرى الامام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقد قال : - رحمه الله - : « وفي الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره ، وتأويل الكلام : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم وبشرهم وأنذرهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله إن هذا الذى جاءنا به محمد - ﷺ - لسحر مبين^(٣) .

وقد اشتملت جملة ﴿ إن هذا لساحر مبين ﴾ على جملة من المؤكدات ، للإشارة إلى رسوخهم في الكفر ، وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٥ ص ١٢٢ - طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٣٨ هـ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٦٣ . (٣) تفسير ابن جرير ج ١١ ص ٦٠ طبعة بولاق سنة ١٣٢٧ هـ .

ثم ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ
 إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أَنَّهُ
 يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قال الإمام الرازي ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من
 الوحي والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبتة في أن يبعث
 خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم .. كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :
 أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا ، نافذ الحكم بالأمر والنهي .
 والثاني : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب للذات أخبر
 الأنبياء عن حصولها .

فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلبين .
 أما الأول : وهو إثبات الألوهية فيقوله - تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ ... ﴾ .

وأما الثاني : فهو إثبات المعاد والحشر والنشر بقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ﴾ .
 فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن ، ونهاية الكمال ^(١) .

والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذي عجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم هو الله الذي
 خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام أى أوقات .

فالمراد من اليوم معناه اللغوى وهو مطلق الوقت .
وعن ابن عباس - رضى الله عنها - أن تلك الايام من أيام الآخرة التى يوم منها كآلف سنة مما تعدون .

قال الآلوسى : « وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولأنه تعريف لنا بما نعرفه »^(١) .

وقال بعض العلماء : « ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة ، فهى لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة التدبير والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتبهيته لبلوغ هذه الغاية .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر ، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه إلى منتهاه »^(٢) .

وقال سعيد بن جبیر : كان الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض فى لحظة . ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لكى يعلم عباده الثبوت والتأني فى الأمور .
وقوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، لتأكيد مزيد قدرته وعظمته - سبحانه - .

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ .

أى : استقرت ، ومن معانيه - أيضا - الاستيلاء والقهر والسلطان ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق أى : استولى عليه

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محمولا »^(٣) .

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٦٤ .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٦٢ - طيبة دار الشروق .

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٢٩ .

وقد ذكر العرش في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية ، وذكر الاستواء على العرش في سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة الى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولو جوب تنزيهه عمالا يليق به فيجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .
فمن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت في تفسير قوله - تعالى - ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ : الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .
وقال الإمام الرازى : « إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه » .
وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر لاستحالة حملها على ما يفيد ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ، ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .

وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ استئناف مسوق لتقرير عظمته - سبحانه - وليبيان حكمة استوائه على العرش .
والتدبير معناه : النظر في أديار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود .
والمراد به هنا : التقدير الجارى على وفق الحكمة التى اقتضتها إرادة الله ومشيتته .
والمراد بالأمر : ما يتعلق بأمر المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى .

أى أنه سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيرا حكيما ، حسبما تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿ يدبر ﴾ للإشارة الى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه - لا يهمل شئون خلقه .

وقوله : ﴿ ما من شئ إلا من بعد إذنه ﴾ استئناف آخر مسوق لبيان تفردة فى تدبيره وأحكامه .

والشئ مآخوذ من الشفع وهو ضم الشىء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو

أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه لإعانتته على ما يريد .
والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أى : ما من شفيع يستطيع أن يشفع
لغيره في جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذنه - سبحانه - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (١) .
وقوله - سبحانه - : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن
يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٢) .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ يعود إلى ذات الله
- تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .

أى : ذلكم الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف فى شئون خلقه وفق مشيئته ، هو الله ربكم
فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحدا فى ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بالتذكر فقال : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى : أتعلمون أن الله
- تعالى - هو خالقكم وهو القادر على كل شىء ، ومع ذلك تستبعدون أن يكون الرسول
بشرا ، فهلا تذكركم قدرة الله وحكمته حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتبعوا الحق الذى جاءكم به
نبيكم - ﷺ - : وإيثار ﴿ تذكرون ﴾ على تفكرون للإيذان بظهور الأمر وأنه كالعلوم
الذى لا يفتقر الى عمق فى التفكير والبحث والتأمل . إذا أن مظاهر قدرة الله وعظمته نراها
واضحة جليلة فى الأنفس والآفاق .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقط ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - وبالغ حكمته ،
ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعا إليه ، وأنه سيجازى كل إنسان بما يستحق .
فقال - تعالى - ﴿ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا ﴾ .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعا بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ، وقد
عد الله بذلك وعدا صدقا ، ولن يخلف الله وعده .

قال أبو حيان : وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ حقا ﴾ على أنها مصدران مؤكدان لمضمون
الجملة ، والتقدير وعد الله وعدًا ، فلما حذف الناصب أضاف المصدر الى الفاعل ، وذلك كقوله

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٦ .

« صبغة الله » و« صنع الله » والتقدير في ﴿ حقا ﴾ : حق ذلك حقا^(١) .
 وقوله : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ كالتعليل لما أفاده قوله - سبحانه - ﴿ إليه مرجعكم ﴾ فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال الدنيوية .
 أى : إن شأنه - سبحانه - أن يبدأ الخلق عند تكوينه ثم يعيده الى الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من الإعادة بعد الموت فقال : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .
 والقسط - كما يقول الراغب - النصيب بالعدل . يقال : قسط الرجل إذا جار وظلم .
 ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ ويقال أقسط فلان إذا عدل ،
 ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

والحميم : الماء الذى بلغ أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ أى : فعل ما فعل سبحانه من بدء الخلق وإعادتهم ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعده لهم ، وأما الذين كفروا فيجزهم - أيضاً - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لا بدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ حال من فاعل ﴿ ليجزى ﴾ ليجزهم ملتبسا بالقسط .
 ويصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم .

قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه - ﴿ والذين كفروا لهم شراب ﴾ بتغيير فى الأسلوب للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب . وللتنبية على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلفظه وكرمه ، ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم^(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته فى خلق السموات والأرض ، أتبع ذلك

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٥ ص ١٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ طبعة حجازى بالقاهرة .

بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل في خلق الشمس والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ

ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ

اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

ففي هاتين الآيتين - كما يقول الألوسي - تنبيه على الاستدلال على وجوده - تعالى - ووحده وعلمه وقدرته وحكمته . بآثار صنيعه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر ، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع ، فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأحرى^(١) .

وقوله ﴿ جعل ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أنشأ وأبدع ، فيكون لفظ ﴿ ضياء ﴾ حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ المذكور مفعولا ثانيا .

وقوله ﴿ ضياء ﴾ جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، وقيل هو مصدر ضاء يضاء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا الوجهين فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكي تتفجروا بها في مختلف شئونكم .

قال الجمل : « وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنها إذا تساوى لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر »^(٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٦٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ .

هذا دليل . وما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله - تعالى - : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾^(١) وقوله - سبحانه - : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ وقدره منازل ﴾ معطوف على ما قبله .
والتقدير : جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو غيرها قال - تعالى - : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ .

المنازل : جمع منزل ، وهي أماكن النزول ، وهي - كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثني عشر برجا وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والمجدي ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منها منزلان وثلاث منزل ، وينزل القمر في كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين . ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوما^(٣) .

والضمير في قوله : ﴿ قدرناه ﴾ يعود الى القمر ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

أي : الله - تعالى - هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر للقمر منازل ينزل فيها في كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بديعة تدل على قدرة الله وحكمته . قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس : ولأن منازلها معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة في تواريخ العرب ، ولأن أحكام الشرع منوطة به في الأغلب^(٤) .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معا ، أي : وقدر لها منازل ، أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانها في السير ، ولا يتعدى أحدهما على الآخر كما قال - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾^(٥) . وإنما وحد الضمير للإيجاز كما في قوله - تعالى - : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾^(٦) . وقوله : ﴿ لتعلموا عدد السكّين والحساب ﴾ بيان للحكمة من الخلق والتقدير .

(٤) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٦٩ .

(٥) سورة يس الآية ٤٠ .

(٦) سورة التوبة الآية ٦٢ .

(١) سورة نوح الآية ١٦ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦١ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ .

أى : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التي يفيدكم علمها في مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينها لثلاثيها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام .
واسم الإشارة في قوله ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ يعود إلى المذكور من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل .

أى : ما خلق الله ذلك الذي ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا بالحق ، ومقترنا بالحكمة البالغة التي تقتضيها مصالحكم .

وقوله : ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .

أى : يفصل - سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ طولا وقصرا ، وحرا وبردا ، وتعاقبا دقيقا لا يسبق أحدهما مع الآخر ﴾ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى ..

إن في كل ذلك الذي خلقه ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته . وخص - سبحانه - المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبير في هذه الدلائل . وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أنجع الوسائل في مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث

لفت الأنظار إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة ما أعد الله من عذاب للكافرين ، وما أعد من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخْرُجْ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه - تعالى - لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها وفي شرح أحوال من يؤمن بها »^(١) .

والمراد ببقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم في الدنيا ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ رضاء جعلهم لا يفكرون إلا في التشبع من زينتها ومتعتها ، واطمأننوا بها ، اطمئنانا صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ غافلون ﴾ بحيث لا يخطر على بالهم شيء مما يدل عليه هذه الآيات من عبر وعظات .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .
 وصفهم - أولا - بعدم الرجاء في لقاء الله - تعالى - بأن صاروا لا يطمعون في ثواب ،
 ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .
 ووصفهم - ثانيا - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصورا فيها ، وفي لذاتها
 وشهواتها .

قال الإمام الرازي : واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن اللذات الروحانية ،
 وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية ، وأما هذه الصفة الثانية فهي إشارة إلى
 من استغرقه الله في طلب اللذات الجسدية واكتفائه بها ، واستغراقه في طلبها ^(١) .
 ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئنان الشخص إلى الشيء الذي لا ملاذ
 له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل
 خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .

ووصفهم - رابعا - بالفغلة عن آيات الله التي توقظ القلب ، وتهدى العقل ، وتحفز
 النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملة فهذه الصفات الأربعة تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم
 على آخرهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .
 فهاذا كان مصيرهم كما بينه - سبحانه - في قوله : ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا
 يكسبون ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم الذي يلجأون إليه النار
 وبئس القرار ، بسبب ما اجترحوه من سيئات وما اقترفوه من منكرات .

هذه هي صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل ، أما السعداء فقد بين الله
 - تعالى - بعد ذلك صفاتهم وثنابهم فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات ﴾ .

أى : آمنوا بما يجب الإيمان به ، وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحة التي ترفع درجاتهم عند
 ربهم .

﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أى يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الى
 غايتهم وهي الجنة .

وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن مأوى الكافرين النار وبئس القرار ..

قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء في قوله ﴿ يَاإِيْمَانِهِمْ ﴾ للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ : أى : يكون إيمانهم لهم نورا يشون به وقال ابن جريج في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عمك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله - تعالى - ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ . والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة . وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار ..^(١) .

وقوله : ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ أى : تجرى من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون في الجنات ، يتنعمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ أى : دعاؤهم في هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدعوى هاهنا بمعنى الدعاء . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى . كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى .

ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح وهو منصوب بفعل مضر لا يكاد يذكر معه . ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلت هذه الميم المشددة في آخره عوضا عن حرف النداء .

قال الإمام الرازى : « وما يقوى أن المراد من الدعوى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم . وهذا نداء الله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك . كقول القانت في دعاء القنوت « اللهم إياك نعبد » .

ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أى : وما تعبدون ، فيكون معنى الآية : أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل

الابتهاج بذكر الله - تعالى - «^(١) .

وقوله ﴿ وتحييتهم فيها سلام ﴾ معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصلها أحياك الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .

أى : دعاؤهم في الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وتحييتهم التي يحيون بها هي السلامة من كل مكروه .

وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما في قوله - سبحانه - ﴿ تحييتهم يوم يلقونه سلام ﴾^(٢) .

وتكون من الملائكة كما في قوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾^(٣) .

وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما .. ﴾^(٤) .

وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : وختم دعائهم يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : « ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء » .

روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم » . قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .

والذى يقطع النزاع ويثبت أن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء ، وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، ما رواه النسائي عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - : « دعوة ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له » .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٤٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .

(٣) سورة الرعد الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) سورة مريم الآية ٦١ .

ويستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١)

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس ، وما جيلوا عليه من صفات وطبائع فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ
 اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ
 لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(١١) وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
 عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ
 لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١٢)

قال صاحب المنار : « هاتان الآيتان في بيان شأن من شئون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم بالحاجة إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور قبل أوانها وهو تعريض بالمشركين ، وحجة على ما يأتون من شرك وما ينكرون من أمر البعث ، متم لما قبله ، ولذلك عطف عليه^(١٣) .

وقوله : ﴿ يعجل ﴾ من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء .

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاه عمره .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣١٢ .

(٢) تفسير المنار ج ١١ ص ٣١١ .

والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذي وصفهم الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول - ﷺ - في نزول العذاب ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ، ولو لأجل مسمى لجاهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾^(١) ، وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾^(٢) .

والعنى : ولو يعجل الله - تعالى - هؤلاء المشركين العقوبة التي طلبوها ، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ أى : لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله - تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم في أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التي طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها ؛ فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل في الإسلام ، ويتبع الرسول - ﷺ - .

قال الإمام الرازى : « فقد بين - سبحانه - في هذه الآية : أنهم لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه - تعالى - لو أوصل ذلك العقاب إليهم لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح في إمامتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر »^(٣) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه في تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يخير - تعالى - عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والسقاء ، ولهذا قال : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم .. ﴾ أى لو استجاب لهم جميع ما دعوه به في ذلك لأهلكهم .

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٤٨ طبعة عبد الرحمن محمد .

ثم قال : ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك ، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم ^(١) .
أما الإمام الآلوسی فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منها فقال : « قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ... ﴾ وهم الذين لا يرجون لقاء الله - تعالى - المذكورون في قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ... ﴾ والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذي كانوا يستعجلون به تكذيبا واستهزاء ... » ، وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : « هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول ، ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ^(٢) .

والذي يبدو لنا أن كون لفظ الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشركون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قيل من أن الآية نزلت في النضر بن الحارث ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ منصوب على المصدرية ، والأصل : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .

ثم بين - سبحانه - ما يشير إلى الحكمة في عدم تعجيل العقوبة فقال : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ .

والطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء ، ومنه طغى الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .
ويعمهون : من العمه ، يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تخير وتردد فهو عمه وعامه .

أى : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٢) تفسير الآلوسی ج ١١ ص ٧٩ .

القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج في الدنيا في طغيانهم يتحiron ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

ثم صور - سبحانه - طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر فقال : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضره .. ﴾ .
والمس : اتصال أحد الشئيين بآخر على وجه الإحساس والإصابة .

والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال في نفسه أو بدنه أو غيرها مما يحبه ويشتهي .
والمعنى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ عن طريق المرض أو الفقر أو غيرها ﴿ دعانا ﴾ بالالحاح وتضرع لكي نكشفه عنه ، فهو تارة يدعوننا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعوننا وهو قاعد ، وتارة يدعوننا وهو قائم على قدميه .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ وما أصابه من سوء ﴿ مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضره ﴾ أي : مضى واستمر في غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كرب ، ولم يسبق له أن دعانا بالالحاح لكشفها .

وخص - سبحانه - هذه الأحوال بالذكر ، لعدم خلو الإنسان عنها في العادة .
وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار ، لأنها قد تكون خفيفة فيدعو الله وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .
ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلت : معناه أن الضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعوننا في حالاته كلها ، سواء أكان منبطحاً عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائماً لا يطيق المشي .

ويجوز أن يراد أن من الضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس .. » (١) .

وفي التعبير بالمس إشارة إلى أن ما أصابه من ضر حتى ولو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهاج إلى الله بأن يكشفه عنه .

وقوله ﴿ لجنبيه ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ دعانا ﴾ و ﴿ أو ﴾ لتنويع الأحوال ، أو لأصناف المضار .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ مر ﴾ يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذي يدعو الله عند البلاء ، وينسأه عند الرخاء ، فهو في حالة البلاء يدعو الله في كل الأحوال ، فإذا ما انكشف عنه البلاء مر واندفع في تيار الحياة . يدون كايح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، ويدون توقف ليتدبر أو ليعتبر ..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أى : كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله ، ما كانوا يعملونه من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن سننه في كونه .

قال الآلوسى : « وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ، ويهرع إليه في الشدة ، واللاتق بحال العاقل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة . ففي الحديث الشريف : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك .

وفي حديث للترمذى عن أبي هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد « من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عند الرخاء » (١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « وقد ذم الله - تعالى - من هذه طريقتة وصفته في الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسادق والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك ، - لأنه يدعو الله في الشدة والرخاء - ، وفي الحديث الشريف : « عجباً لأمر المؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصر كان خيراً له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه . أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون في ذلك عبرة وعظة فقال - تعالى - :

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٩ .

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ

مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا

لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ

خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

والخطاب في قوله : ﴿ ولقد أهلكتنا .. ﴾ لأهل مكة الذين كانوا معاصرين للنبي - ﷺ - ومناوئين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم ممن يصلح للخطاب على سبيل التبع . والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبي - الأمة من الناس ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم في عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أى : عالم مقترن بعضهم إلى بعض . وفي الحديث الشريف : « خير القرون قرني - يعنى أصحابي - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

فالقرن على هذا مدة من الزمان . قيل : ستون عاما ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبي - ﷺ - قال لعبد الله بن بسر : « تعيش قرنا » فعاش مائة سنة ^(١) .

و ﴿ لما ﴾ ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله ﴿ أهلكتنا ﴾ .

والمعنى : ولقد أهلكتنا أهل القرون السابقة عليكم يا أهل مكة . حين استمروا في ظلمهم وعنادهم ، وحين أصروا على كفرهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى صدقهم فيها يبلغونه عن ربهم ، فعليكم - أيها الغافلون - أن تثوبوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا الحق الذي جاءكم به نبيكم كي لا يصيبكم ما أصاب الظالمين من قبلكم .

وقوله : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يدل على إفراط أولئك المهلكين في الظلم ،

وبلوغهم فيه أقصى الغايات ، لأنهم مع وضوح الشواهد على صدق الرسل ، استمروا في جحودهم وظلمهم .

وقوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ معطوف على ﴿ ظلموا ﴾ . أى : أهلكتنا أهل القرون السابقين عليكم حين استمروا على ظلمهم ، وحين علم الله - تعالى - منهم الإصرار على الكفر ، فإهلاكهم كان بسبب مجموع هذين الأمرين .

وقوله : ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .
أى : مثل ذلك الجزاء الأليم وهو إهلاك الظالمين ، نجزي القوم المجرمين في كل زمان ومكان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ معطوف على قوله ﴿ أهلكتنا ﴾ .

والخلائف جمع خليفة . وهو كل من يخلف غيره ويأتى من بعده .

أى : ثم جعلناكم أيها المكلفون باتباع النبي - ﷺ - خلفاء في الأرض من بعد أولئك الأقسام المهلكين لنرى ونشاهد ونعلم أى عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم على ذلك بالجزاء المناسب الذى تقتضيه حكمتنا وإرادتنا ، و ﴿ كيف ﴾ مفعول مطلق لـ ﴿ تعملون ﴾ لا ﴿ لننظر ﴾ لأن الاستفهام له الصدارة ، فلا يعمل فيه ما قبله .

قال الآلوسى : واستعمال النظر بمعنى العلم مجاز ، حيث شبه بنظر الناظر . وعيان المعانين فى تحقيقه . والمراد تعاملكم معاملة من يطلب العلم بأعمالكم ليجازيكم بحسبها ، كقوله - تعالى - ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (١) .

قال قتادة : صدق الله ربنا ، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا ، بالليل والنهار .

ثم حكى - سبحانه - بعض المقترحات الفاسدة التى اقترحها المشركون على النبي - ﷺ - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

وَإِذَا تَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا تُؤْتِينَا قُلُوبًا مَّا يَكُونُ لِي أَنْ أُنزِلَ عَلَيَّ مِنَ السَّمَاءِ قُرْءَانٌ غَيْرَ هَذَا بَلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسی ما ملخصه : « عن مقاتل قال : إن الآية ﴿ ١٦ ﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴿ ١٧ ﴾ نزلت في جماعة من قريش قالوا للنبي - ﷺ - إن كنت تريد أن تؤمن لك ، فأنت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى وليس فيه ما يعيبها . وإن لم ينزل الله - تعالى - عليك ذلك فقل أنت هذا من نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالا ، ومكان حلال حراما ، (١) .

والمعنى : وإذا تتلى على أولئك المشركين آياتنا الواضحة المنزلة عليك - يا محمد - قالوا على سبيل العناد والحسد : أنت بقرآن آخر سوى هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها سب لآلهتنا ، آية أخرى فيها مدح لها .

وفى الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إظهاراً للإعراض عنهم ، حتى لكأنهم غير حاضرين ، وغير أهل لتوجيه الخطاب إليهم .

والمراد بالآيات : الآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وأضافها - سبحانه - إليه على سبيل التشريف

والتعظيم ، وأسند التلاوة إلى الآيات بصيغة المبني للمفعول ، للإشارة إلى أن هذه الآيات لوضوحها ، ولعرفتهم التامة لتاليها ، صارت بغير حاجة إلى تعيين تاليها - ﷺ - .
قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فإذا كان غرضهم - وهم أدهى الناس وأمكرهم - في هذا الاقتراح ؟

قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنتك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللمطمع ولاختبار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله فينجوا هم منه أو لا يهلكه فيسخرها منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحا لافتراءه على الله » ^(١) .

وقوله : ﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ هذا القول أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يزهق باطلهم .

وكلمة ﴿ تلقاء ﴾ مصدر من اللقاء كتيبان من البيان ، وكسر التاء فيها ساعى ، والقياس في هذا المصدر فتحها كالتركار والتطواف والتجوال .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ : لا يصح لى بحال من الأحوال ، أن أبدل هذا القرآن من عند نفسه ومن جهتها ؛ وإنما أنا أبلغكم ما أنزل الله على منه ، بدون زيادة أو نقصان ، أو تغيير أو تبديل .

وقوله : ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ تعليل لمضمون ما قبله من امتناع الإتيان بغيره أو تبديله ، والاقتصار على اتباع الوحي .

أى : إني أخاف إن عصيت ربي أية معصية ، عذاب يوم عظيم الهول ، وإذا كان شأنى أن أخشاه - سبحانه - من أية معصية ولو كانت صغيرة ، فكيف لا أخشاه إن عصيت بتبديل كلامه استجابة لأهوائكم ؟

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - رداً آخر عليهم ، زيادة في تسفيه أفكارهم فقال - تعالى - : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ وقوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ بمعنى ولا أعلمكم وأخبركم به ، أى : بهذا القرآن . يقال : دريت الشيء وأدراى الله به ، أى أعلمنى وأخبرنى به .
وأدرى فعل ماض ، وفاعله مستتر يعود على الله - عز وجل - والكاف مفعول به .

والمعنى : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لو شاء الله - تعالى - أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئا ، لفعل - أيضا - ، فإن مرد الأمور كلها إليه ، ولكنه - سبحانه - شاء وأراد أن أتلوه عليكم ، وأن يعلمكم به بواسطتي ، فأنا رسول مبلغ ما أمرني الله بتبليغه .

قال القرطبي : « وقرأ ابن كثير : ﴿ ولأدراكم به ﴾ بغير ألف بين اللام والهزمة . والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم فهي لام التأكيد دخلت على ألف أفعال » (١) .

وجاءت الآية الكريمة بدون عطف على ما قبلها ، إظهارا لكيال شأن المأمور به . وإيداناً باستقلاله ، فإن ما سبق كان للرد على اقتراحهم تبديل القرآن . وهذه الآية للرد على اقتراحهم الإتيان بغيره .

ومفعول المشيئة محذوف . لأن جزاء الشرط ينبىء عنه ، أى : لو شاء الله عدم تلاوته ما تلوته عليكم :

وقوله : ﴿ فقد لبث فيكم عمراً من قبله ﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون عدم التلاوة وعدم العلم منوط بمشيئة الله - تعالى - وقوله : ﴿ عمراً ﴾ منصوب على الظرفية وهو كناية عن المدة الطويلة . أى : فأنتم تعلمون أنى قد مكثت فيما بينكم ، مدة طويلة من الزمان ، قبل أن أبلغكم هذا القرآن ، حفظتم خلالها أحوالى ، وأحطتم خيرا بأقوالى وأفعالى ، وعرفتم أنى لم أقرأ عليكم من آية أو سورة مما يشهد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله - تعالى - . والهزمة فى قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ داخلة على محذوف . وهى للاستفهام التوبيخى . والتقدير : أجهلتم هذا الأمر الجلى الواضح ، فصرتم لا تعقلون أن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التى اقترختموها لا يملك تنفيذها أحد إلا الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما جاء فى هذه الآية وتقديره : أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله - ﷺ - من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عاملين بأحواله . وأنه ما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه ، جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا

لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله - تعالى - (١).

ثم ختم - سبحانه - الرد على هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه ، بالحكم عليهم بعدم الفلاح فقال - تعالى - ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون ﴾ والاستفهام في قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ للإنكار والنفي .
أى : لا أحد أشد ظلماً عند الله ، وأجدر بعقابه وغضبه ، ممن افترى عليه الكذب ، بأن نسب إليه - سبحانه - ما هو برىء منه ، أو كذب بآياته وحججه التي أنزلها لتأييد رسله .
وقوله : ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .
أى : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين ، أنهم لا يفلحون . ولا يصلون إلى ما يرغبون ويريدون .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الشواهد الدالة على صدق النبي - ﷺ - فيما بلغه عن ربه فقال عند تفسيره هذه الآية : « لا أحد أشد ظلماً ممن افترى على الله كذباً ، وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك .. ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتهبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً . فلا بد أن الله ينصب من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد - ﷺ - وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء . فمن شيم كل منها وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد - ﷺ - وكذب مسيلمة .. » (١) .
ثم حكى - سبحانه - أقيح رذائلهم ، وهى عبادتهم لغير الله ، ودعواهم أن أصنامهم ستشفع لهم فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴾ عطف القصة على القصة .

والعبادة: الطاعة البالغة حد النهاية في الخضوع والتعظيم .

أى : وهؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا ، ويطلبون قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله ، بلغ من جهلهم وسفهمهم أنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تضرهم ولا تنفعهم ، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك .

والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون ماثبا على الطاعة ومعاقبا على المعصية .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ يعبدون ﴾ أى : يعبدونها متجاوزين الله وتاركين طاعته .

و ﴿ ما ﴾ موصولة أو نكرة موصوفة . والمراد بها الأصنام التى عبدوها من دون الله .

قال الجمل : « ونفى الضر والنفع هنا عن الأصنام باعتبار الذات ، وإثباتها لها فى سورة الحج فى قوله ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ باعتبار السبب ، فلا يرد كيف نفى عن الأصنام الضر والنفع ، وأثبتها لها فى سورة الحج » (١) .

وقوله : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ حكاية لأقوالهم السخيفة عندما يدعون إلى عبادة الله وحده .

والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره فى دفع ضر أو جلب نفع .

أى : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعا لنا عند الله فى دنيانا ، بأن نتوسل إليه بها فى إصلاح معاشنا ، وفى آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فيقول : ﴿ قل أنتبنون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ .

أى : قل يا محمد هؤلاء الجاهلين : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ولا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون شفاعته . فهل تعلمون أنتم مالا يعلمه ، وهل

تخبرونه بما لا يعلم له وجوداً في السموات ولا في الأرض !!!
فالمقصود بهذه الجملة الكريمة التهكم بهم ، والسخرية بقولهم وأفكارهم ، ونفى أن تكون الأوثان شفعاء عند الله بأبلغ وجه .

والعائد في قوله ﴿ بما لا يعلم ﴾ محذوف . والتقدير بما لا يعلمه .
وقوله ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ حال من العائد المحذوف ، وهو مؤكد للنفي ، لأن مالا يوجد فيها فهو منتف عادة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت كيف : أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذي أنبأوا به باطل . فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيها فهو منتف معدوم » (١) .

وقوله : ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ عن كل شريك ، وعما قاله هؤلاء الجاهلون من أن الأصنام شفعاء عنده .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبخت المشركين على عبادتهم لغير الله وعلى جهالاتهم وتقولهم على الله بغير علم .

ثم بين - سبحانه - أن عبادة الناس لغيره - تعالى - إنما حدثت بعد أن اختلفوا واتبعوا الهوى . فقال :

وَمَا كَانَ

النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

والمراد بالناس : الجنس البشري كله في جلته ، فإنهم كانوا أمة واحدة . ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة الأصنام .

قال الآلوسی : « قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ أى : وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف ، وروى هذا عن ابن عباس والسدى ومجاهد .. وذلك من عهد آدم - عليه السلام - إلى أن قتل قابيل هايل . وقيل إلى زمن إدريس - عليه السلام - وقيل إلى زمن نوح . وقيل كانوا كذلك في زمنه - عليه السلام - بعد أن لم يبق على الأرض من الكافرين ديار إلى أن ظهر بينهم الكفر . وقيل : من لدن إبراهيم - عليه السلام - إلى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة الأصنام ، وهو المروى عن عطاء . وعليه فالمراد من الناس العرب خاصة . وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من ردائل ، وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك » (١) .

وقوله : ﴿ فاختلّفوا ﴾ أى ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسلا ، ليبشروا المهتدين بجزييل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب .

والفاء للتعقيب ، وهى لا تنافى امتداد زمان اتفاقهم على الحق ، لأن المراد بيان أن وقوع الاختلاف بينهم إنما حدث عقب انتهاء مدة الاتفاق ، لا عقب حدوثه .

والمراد بالكلمة فى قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ ما قضاه الله - تعالى - وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة .

أى : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم - سبحانه - فى هذه الدنيا . فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه - سبحانه - اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة فى الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هى دار الجزاء والثواب والعقاب .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الوعيد الشديد على الاختلاف المؤدى إلى التفرقة فى الدين ، وإلى الشقاق والنزاع ، كما تضمنت تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه : فكأنه - سبحانه - يقول إن الاختلاف من طبيعة البشر ، فلا تنتظر من الناس جميعا أن يكونوا مؤمنين . ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان تعنت المشركين وجهالاتهم فقال - تعالى - :

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ومرادهم بالآية التي طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه - ﷺ -
ناقة كناقاة صالح - عليه السلام - أو تكون معه عصا كعصا موسى - عليه السلام - وكأنهم
لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه - ﷺ - .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه - ﷺ - حتى يروا ذلك بأعينهم .
أى : ويقول هؤلاء المشركون لنبيهم - ﷺ - هلا أنزل الله عليك آية أخرى سوى
القرآن الكريم تكون شاهدة لك بالنبوة ، كأن تعيد إلى الحياة آبائنا ، وكأن تحول جبال مكة
إلى بساتين .

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت ،
قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموت وحشرنا عليهم كل شيء قبلا
ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله .. ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى -
لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يفحهم .

أى : قل لهم في الجواب على هذه المطالب المتعنتة : إن هذه المطالب التي طلبتموها هي من
علم الغيب الذي استأثر الله به ، فقد يجيبكم إليها - سبحانه - وقد لا يجيبكم ، فانتظروا
فيا يقضيه الله في أمر تعنتكم في مطالبكم ، إني معكم من المنتظرين لقضائه وقدره ، ولما يفعله
بى وبكم .

فالجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم ، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم ، مع أنه
أصدق معجزة للرسول - ﷺ - وأعظمها .

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من
النبي - ﷺ - والتي تدل على عنادهم وجحودهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر
الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باله والملائكة قبلا ، أو

يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه .
قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴿١﴾ .

كما حكى أيضاً - سبحانه - أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون
فقال - تعالى - ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا
العذاب الأليم ﴾ (١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين
كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٢) .

وبعد أن ساقّت السورة الكريمة جانباً من أقوال الذين لا يرجون لقاء الله ومن مقترحاتهم
الباطلة ومن معتقداتهم الفاسدة ، أتبت ذلك بتصوير بعض الطباع البشرية تصويراً صادقاً
يكشف عن أحوال النفوس في حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي
ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَارِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَ هُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ يَتَأَيَّبُوا النَّاسَ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ .

(٢) سورة يونس الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٧ .

وقوله ﴿ أذقنا ﴾ من الذوق وحقيقته إدراك الطعام ونحوه بالذوق باللسان واستعمل هنا على سبيل المجاز في إدراك مايسر وما يؤلم من المعنويات كالرحمة والضراء .

قال الآلوسی « والمراد بالناس كفار مكة على ما قيل ، لما روى من أن الله - تعالى - سلط عليهم القحط سبع سنين ، حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه أن يدعو لهم بالخصب ، ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم ورحمهم الله - تعالى - بالمطر ، طفقوا يطعنون في آياته - تعالى - ويعاندون نبيه - ﷺ - .

وقيل : إن الناس عام لجميع الكفار» (١) .

والضراء من الضر ، وهو ما يصيب الإنسان في نفسه من أمراض وأسقام .
والمكر : هو التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يتوقعه من مضرة وكيد .
والمعنى : وإذا أذقنا الناس منا رحمة كأن منحناهم الصحة والسعادة والغنى من بعد ضراء أصابتهم في أنفسهم أو فيمن يحبون ، ما كان منهم إلا المبادرة إلى الطعن في آياتنا الدالة على قدرتنا ، والاستهزاء بها والتهوين من شأنها .

وأسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة ، وأسند المساس إلى الضراء ، رعاية للأدب مع الله - تعالى - ، لأنه وإن كان كل شيء من عنده ، إلا أن الأدب معه - سبحانه - يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما في قوله - تعالى - : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وفى الحديث : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك » .

وإذا الأولى شرطية ، والثانية فجائية والجملة بعدها جواب الشرط .

وجاء التعبير بإذا الفجائية في الجواب ، للإشارة إلى توغلهم في الجحود والكنود فهم بمجرد أن حلت النعمة بهم محل النعمة ، عادوا إلى عنادهم وجهلهم ، ونسبوا كل خير إلى غيره - تعالى - .

قال الرازى : « واعلم أنه - تعالى - ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة في قوله - تعالى - ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره .. ﴾ إلا أنه - تعالى - زاد في هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية ، وتلك الدقيقة هى أنهم يكرون عند وجدان الرحمة .

وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر^(١).

وقوله: ﴿ قل الله أسرع مكرأ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يبطل مكرهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين الذين يسرعون بالمكر في مقام الشكر ، إن الله - تعالى - أسرع مكرأ منكم ؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من مكرهم ، ولأن الحفظة من الملائكة يسجلون عليكم أقوالكم وأفعالكم ، التى ستحاسبون عليها في يوم القيامة حساباً عسيراً ، وسترون أن مكركم السئ لا يبيح إلا بكم .

وقوله : ﴿ أسرع ﴾ أفعل تفضيل من الفعل الثلاثى سرع - كضخم وحسن - ، أو من الفعل الرباعى « أسرع » عند من يرى ذلك .

والجملة الكريمة تحقيق للانتقام منهم . وتنبه على أن مكرهم الخفى غير خاف على الحفظة من الملائكة فضلا عن الخالق - عز وجل - الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وسمى - سبحانه - إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكرأ ، لأنهم كانوا كثيراً ما يتجمعون سراً ، ليتشاوروا فى المؤامرات التى يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفى الشبهات التى يوجهونها إلى النبى - ﷺ - .

ثم ساق - سبحانه - مشهداً حياً . تراه العيون ، وتهتز له القلوب ، ويجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء فقال - تعالى - ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر .. ﴾ .
والسير معناه : الانتقال من مكان إلى آخر . والتسيير معناه : جعل الإنسان أو الحيوان أو غيرها يسير بذاته ، أو بواسطة دابة أو سفينة أو غيرها ، مما سخره الله - تعالى - له بقدرته ورحمته .

أى : هو - سبحانه - الذى يسيركم بقدرته ورحمته فى البر والبحر ، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير ، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرها مما تستعملونه فى سفركم ، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم .

ثم قال - تعالى - ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ... ﴾ .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ عند كثير من العلماء للواحد والجمع .
والظاهر أن المراد به هنا الجمع ، بدليل قوله ﴿ وجرين ﴾ أى : السفن .
والمراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها .

أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر والبحر ، حتى إذا
كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التى سخرها لكم ، وجرت هذه السفن بمن
فيها بسبب الريح الطيبة إلى المكان الذى تقصدونه ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور
شامل .. ﴿ جاءت ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ... ﴾ .

والريح العاصف : هى الريح الشديدة القوية . يقال : عصفت الريح واعصفت فهى
عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد الراجح ، وقوله :
﴿ أحيط بهم ﴾ ، أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به .
وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ، جاءت إليهم ريح
عاصفة شديدة السرعة والتقلب ، وارتفع إليها الموج من كل مكان ، واعتقد ركايبها - الذين
كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين - أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .
وقوله : ﴿ بهم ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : حتى إذا
كنتم فى الفلك وجرين بكم . لكن جاء الكلام على أسلوب الالتفات للمبالغة فى تقييح
أحوالهم ، وسوء صنيعهم .

قال صاحب الكشاف « فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت :
المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتقييح » (١) .
وقوله : ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ بيان
لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة
الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم
لك ياربنا ، ويامن لا يعجزك شيء ، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنكونن

من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك .
وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة . وانخفضت الأمواج ، وسكنت
النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فماذا كانت النتيجة ؟
كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير
الحق .. ﴾ .

أى : فحين أنجاهم الله - تعالى - بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ،
إذا هم يسعون في الأرض فساداً . ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .
وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق ،
يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ تأكيد لما يفيد البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر
لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فإنه يسمى بغياً فى الجملة ، لكنه
بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغياً وإنما يسمى إنصافاً من الظالم ، ولذا
قال القرآن الكريم : ﴿ ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾^(١) .

وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، للإشعار بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد
أن وطئت أقدامهم بر الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى
الأرض ، دون أن يردعهم رادع ، أو يصددهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله ﴿ فى الأرض ﴾ للإشارة إلى أن بغيتهم قد شمل أقطارها ، ولم يقتصر على
جانب من جوانبها .

وقوله - سبحانه - ﴿ يأبها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا
مرجعكم فنبتنكم بما كنتم تعملون ﴾ خطاب منه - سبحانه - لأولئك البغاة فى كل زمان
ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يأبها الناس الذين تضرعوا إلينا فى ساعات الشدة ، وهروا إلى البغى بعد زوال
تلك الشدة ، اعلما أن بغيتكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم فأنتم وحدكم الذين ستتحملون
سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التي لا بقاء لها ، وإنما هي إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : ﴿ إنما بغيكم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ على أنفسكم ﴾ أى هو عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم .

وقوله : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ : قرأ حفص عن عاصم ﴿ متاع ﴾ بفتح العين على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر . أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة الدنيا . وقوله : ﴿ ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تذييل قصد به تهديدهم على بغيهم ، ووعيدهم عليه بسوء المصير حتى يرتدعوا وينزجروا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثر من ذكر الله فى حالتى الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر وينسونه عند العافية ، ففى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

٢ - أن الناس جيلوا على الرجوع إل الله وحده عند المصائب والمحن ، وفى ذلك يقول الألوسى : « روى أبو داود والنسائى وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آهتكم لا تغنى عنكم شيئا . فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى بما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدي فى يده ، فلاجدنه عفوا كريما . قال : ف جاء فأسلم .

وفى رواية ابن سعد عن أبى مليكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحدهونه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعوننا إليه محمد - ﷺ - فارجعوا بنا » . فرجع وأسلم ... » (١) .

وقال الفخر الرازى : « يحكى أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لى دليلا على إثبات

الصانع ؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك : فقال : أنا رجل أتجر في البحر . فقال له : صف لي كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة . فقال جعفر : هل وجدت في قلبك تضرعا ودعاء . فقال : نعم . فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت «^(١) .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها « أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمة قوله - تعالى - ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر . ﴾ فراعته بلاغة وصفها لطفيان البحر .. وكان يعمل قائدا لإحدى السفن .. فسأل بعض المسلمين : أتعلمون أن نبيكم - ﷺ - قد سافر في البحار ؟ فقالوا له : لا .. فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله - تعالى ... »^(٢) .

٣ - دل قوله - تعالى - ﴿ يأياها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ... ﴾ على أن البغى يجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة .

فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه أسوأ الجزاء . وأما في الدنيا فبدليل قوله - تعالى - ﴿ يأياها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ويؤيده ما رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي بكر الصديق - رضی الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة سوى البغى وقطيعة الرحم «^(٣) .

قال الآلوسی . وفي الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى « فقد أخرج أبو نعیم والخطيب والديلمي وغيرهم عن أنس قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاث هن راجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا - ﷺ - قوله - تعالى - ﴿ يأياها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ . وقوله - تعالى - ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - ﷺ - : « لو بغى جبل على جبل لذك الباغي منها » .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٧ .

(٢) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤٤ .

(٣) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤٣ .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل لانكدك منه أعاليه وأسفله^(١)
ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفاني ، فقال -
تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا
أَتَاهَا أَمْرًا نَائِلًا فَأُورَثَهَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمْ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ نَقُصِّصُ عَلَيْكُم مَّا تَتْلُونَ فِي
الْكِتَابِ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ... ﴾ المثل بمعنى المثل ، والمثل : النظير والشبيه ، ثم
اطلق على القول السائر المعروف لمثاله مضر به - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد
فيه أولا ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن
عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهاها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب الشئ المعقول من الشئ
المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع
فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام نعيمها بعد إقبالها . كحال
ماء ﴿ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أى : فكثرت بسببه نبات الأرض حتى
التف وتشابك بعضها ببعض لازدهاره وتجاوزته وغنائه .

وشبهه - سبحانه - الحياة الدنيا بما جاء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص - بخلاف ماء الأرض - فكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام كالحشائش والأعشاب المختلفة .

وجملة ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ حال من النبات .

وقوله : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت .. ﴾ تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج .

ولفظ ﴿ حتى ﴾ غاية لمحذوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى ما زال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

والزخرف : الذهب وكمال حسن الشيء . ومن القول أحسنه ، ومن الأرض ألوان نباتها . أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشاف : « وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت »^(١) .

وقوله : ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ أى : وظن أهل تلك الأرض الزاخرة بالنباتات النافعة . أنهم قادرون على قطف ثمارها ، وتمتكون من التمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بفلاتها .

وقوله : ﴿ أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا .. ﴾ تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد نضرتة واستوائه و ﴿ أو ﴾ للتنوع أى : تارة يأتى ليلا وتارة يأتى نهارا .

والجملة الكريمة جواب إذا فى قوله ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. ﴾ .
أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع زروعها ، أتاها قضاؤنا

الناخذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها نائمون ، أو بالنهار وهم لا هون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التي استؤصل زرعها .

وقوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التي قطع زرعها ، حتى لكأنها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والنخل الباسق ، والطلع النضيد .

قال القرطبي قوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أى : لم تكن عامرة . من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغاني في اللغة : المنازل التي يعمرها الناس «^(١) .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أى كأنها ما كانت حينما قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء في الحديث الشريف : « يؤقى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويؤقى بأشد الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت يؤسا قط فيقول لا »^(٢) .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضي القريب : لا خصوص اليوم الذي قبل يومك . وقوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أى : كهذا المثل في وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها فنصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض .

قال الجمل ما ملخصه : « وهذه الآية مثل ضربه الله - تعالى - للمتشبه في الدنيا الراغب في زهرتها وحسنها .. ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التي ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به ، وقع اليأس منه ، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بفتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها »^(٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٤٢ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَاللَّهُ

يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾
 لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
 وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
 كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التى أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، وسميت بذلك ، لأنها الدار التى سلم أهلها من كل ألم وآفة . أو لأن تحيتهم فيها سلام ، أو لأن السلام من أساء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ، وتشريفا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ... ﴾ معطوف على محذوف يدل عليه السياق .
 والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إثارة متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله - تعالى - يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذى يوصلهم إلى دار كرامته .
 وقوله : ﴿ ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وهو المؤدى بصاحبه إلى رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذى شرعه الله لعباده . وبلغه لهم عن طريق نبيه محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... ﴾ بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا في دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة الحسنی ، والمثوية الحسنی وهی الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم - رضی الله عنهم .

ومستندهم في ذلك الأحاديث النبوية التي وردت في هذا الشأن والتي منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن صهيب - رضی الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - : تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنی وزيادة .. ﴾ .

وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا . يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم » (١) .

وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : « مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم في الدنيا ، ورضوانه عليهم في الآخرة » .

والحق ان التفسير الوارد عن الصحابة . والمؤيد بما جاء في الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه . ولا مانع من أن ين الله عليهم بما ين من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

ولذا قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وزيادة ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فإنه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - ﷺ - في ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنی وزيادة . فالحسنی الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن » . عز وجل .

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن قول الله - تعالى - ﴿ للذين

(١) صحيح مسلم ج ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي .

أحسنوا الحسنى وزيادة ﴿ قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - » ^(١) .
والمقصود بقوله : ﴿ ولا يرهق وجوههم قطر ولا ذلة ﴾ الإخبار عن خلوص نعيمهم من
كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان .

وقوله : ﴿ يرهق ﴾ من الرهق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه يرهقه رهقا - من
باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة .

والقطر والقطرة : الغبار والدخان الذى فيه سواد والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان
يذل ذلة وذلا ، إذا أصابه الصغار والحقارة .

أى : ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان
والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من المعانى ، توحى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال
والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه
﴿ عليها غبرة . ترهقها قطرة ﴾ وهناك وجوه ﴿ ناضرة . إلى ريبها ناظرة ﴾ .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ تذييل قصد به تأكيد مدحهم
ومسرتهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ، وهم خالدون فيها
خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ، ليهلك من هلك
عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال - تعالى - : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة
بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل
مظلماً ﴾ .

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين اجترحوا السيئات ،
واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها كما قال - تعالى - ﴿ وجزاء سيئة
سيئة مثلها ﴾ .

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم عليها فى الآخرة
بما يستحقون من عذاب ومصير سيئ .

وقوله : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أى : وتغشاهم وتغطيهم ذلة عظيمة ومهانة شديدة ، وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيدان بأنها محيطة بهم من كل جانب .

وقوله : ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجرهم أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلم ﴾ تصوير بديع للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قطعا من الليل المظلم ، والسواد الحالك ، حتى سارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، وتعاسة أحوالهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة تصورا بديعا لما عليه المؤمنون الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى فى رفع درجاتهم ، وفى رضا الله - تعالى - عنهم : كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال الخارجين عن طاعته ؛ ووصفا للمصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ

جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَا كَانَ لَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَّلْنَا

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾

هَذَا لِك تَبَلُّوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ

الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله : ﴿ نحشرهم ﴾ أى نجتمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .

ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجتمع الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ أى : ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم ، فقوله : ﴿ مكانكم ﴾ ظرف مكان منصوب بفعل مقدر ، وقوله ﴿ وشركاؤكم ﴾ معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله ﴿ أنتم ﴾ تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف بـ ثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء الله - من باب التهكم بهم . وللإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حيز الصلة ، للإيدان بأنه أكبر جناياتهم : وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى : ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلوات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزيلنا : من التزييل بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشيء أزيله إذا نحيت وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لو تزييلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾^(١) أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بإلقاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ؛ قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التذييل سيكون فى الآخرة ، للإيدان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم .

وقوله : ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ معطوف على ما قبله .

والمراد بالشركاء ؛ كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .
 أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون
 لم تكونوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فانقدتم
 له بدون تدبير أو تعقل .

والمقصود بقولهم هذا - التبرى من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .
 وقوله : ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ تأكيد لهذا
 التبرى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ إن كنا ﴾ مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله -
 تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى
 غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال :
 ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وذل عنهم ما كانوا
 يفترون ﴾ .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة : ما سلف منها
 من أعمال ، فترى ما كان نافعاً أو ضاراً من هذه الأعمال ، وترى الجزء المناسب عن كل عمل
 بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن
 المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .
 وهكذا ترى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويراً بليغاً مؤثراً ، يتجلى فيه
 موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .
 وبعد هذا الحديث المعجز عن يوم الحشر وأهواله ، ساقى السورة الكريمة بضع آيات فيها
 الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال - تعالى :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
 مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ
فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .
وقوله : ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ أى : بل قل لهم - أيضا - من الذى يملك ما تتمتعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقها وتسويتها بالطريقة التى أوجدها - سبحانه .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان ، ولأنها قد اشتعلتا فى تركيبها على ما بهر العقول ، ويشهد بقدرته - تعالى - وعجيب صنعه فى خلقه .
و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتقالى لا الإبطالى ، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام فى الدلالة على المقصود ، وهو إثبات قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

وقوله : ﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته .

أى : وقل لهم كذلك من سوى الله - تعالى - يملك إخراج النبات وهو كائن حى من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حى من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .

وقوله : ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أى : وقل لهم - أيضاً - من الذى يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وأماتة ، وصحة ومرض ، وغنى وفقير ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .

وقوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ، لأنهم مقرون معترفون بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر أمرهم ، وإنما كانوا يتخذون

الشركاء للزلفى ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. ﴾ وفى قوله - سبحانه - حكاية عنهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. ﴾ .
ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

وقوله : ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بهذا الرد .

والهمزة لإنكار واقعهم الذميمة ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول تتقون محذوف .
أى : أتعلمون وتعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل ما سبق ، ومع ذلك تشركون معه آلهة فى العبادة ، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة ؟ .

إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطباس فى العقول ، وجهالة ليس بعدها جهالة .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : ﴿ فذلکم الله ربکم الحق ... ﴾ .

أى : فذلکم الذى فعل ما فعل من رزقکم ومن تدبیر أمرکم ، هو الله المرئى لکم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده .

إذا كان الأمر كذلك ﴿ فإذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أى لا يوجد غير الحق شىء يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .

قال القرطبي : « ثبت عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد » الحديث ، وفيه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ... » .

فقوله : أنت الحق ، أى الواجب الوجود ، وأصله من حق الشىء إذا ثبت ووجب - وهذا الوصف لله - تعالى - بالحقيقة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق عدم ، ووجوده من موجد له لا من نفسه .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية .. والضلال حقيقته الذهاب عن

الحق مأخوذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن ستمته ، يقال : ضل الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه .. «^(١) .

وقوله : ﴿ فَأَنى تَصْرَفُونَ ﴾ أى : فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم هو الله - تعالى - وحده .

فأنى هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزى واستبعاده والتعجب منه . ومن الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية الكريمة : أن الحق والباطل ، والهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقيقين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد بل متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، وجب أن يكون الآخر هو الباطل .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :
﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .

والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .

والمعنى : مثل ما ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا عن أمره ، وعموا وسموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .

فالمراد بالفسق هنا : التمرد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

ثم ساق - سبحانه - أنواعا أخرى من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

فقال :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ قُلِ اللَّهُ يَكْبَدُوا
الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ فَأَنى تَوْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ

يُنَبِّعُ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكَرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
 وَمَا يُنَبِّعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق : هل من شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، أو أشركتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ خلق الإنسان من نقطة ، ثم من علقته ، ثم من مضغته ... ثم ينشئه خلقا آخر ، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟ قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ...

وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ والإفك الصرف والقلب عن الشيء . يقال : أفكه عن الشيء يأفكه أفكا ، إذا قلبه عنه وصرفه .
 أى فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق ، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ؟ ! .

وجاءت جملة ﴿ قل هل من شركائكم .. ﴾ بدون حرف العطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها في حصول المطلوب ، وإثبات المقصود .

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام ، لأن الكلام إذا كان واضحا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المستول كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب .
 وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التذليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها ، للإيذان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .. ﴾ (١) .
 فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة ، نزل إنكارهم لها منزلة العدم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : كيف قيل لهم هل من

شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهم غير معترفين بالإعادة ؟ .
قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرا رادا
الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما
معترفا بصحته عند العقلاء . وقال لنبيه - ﷺ - : ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فأمره
بأن ينوب عنهم فى الجواب . يعنى أنه لا يدعهم لمواجههم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق
فتكلم أنت عنهم .. »^(١) .

وقوله : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق ﴾ . حجة أخرى
تدمغ جهلهم ، جىء بها لتكون دليلا على قدرة الله على الهداية والإضلال ، عقب إقامة الأدلة
على قدرته - سبحانه - على بدء الخلق وإعادتهم .

أى : قل لهم يا محمد - أيضا - على سبيل التهكم من أفكارهم : هل من شركائكم من
يستطيع أن يهدى غيره إلى الدين الحق ، فينزل كتاباً ، أو يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ،
أو يضع نظاما دقيقا لهذا الكون . أو يبحث العقول على التدبر والتفكر فى ملكوت السموات
والأرض ... ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن
يفعلوا شيئا من ذلك أو من غيره .

وقوله : ﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى .. ﴾ توبيخ
آخر لهم على جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .

أى : قل لهم يا محمد : أفمن يهدى غيره إلى الحق وهو الله - تعالى - . أحق أن يتبع فيها
بأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أت يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره أحق بالاتباع ؟
لاشك أن الذى يهدى غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن يهديه غيره .
وقوله : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ استفهام قصد به التعجب من أحوالهم التى تدعو إلى
الدهشة والغرابة .

أى : ما الذى وقع لكم ، وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع
الله الخالق الهادى ، مخلوقات لا تهتدى بنفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهدها .
قال الإمام الرازى : « واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية

ثانيا ، عادة مطردة في القرآن ، فقد حكى - سبحانه - عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ وعن موسى أنه قال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وأمر محمدا - ﷺ - بذلك فقال : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ﴾ . وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية ، فها هنا أيضا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله : ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية^(١) .

وقوله : ﴿ أم من لا يهدى ﴾ ورد فيه ست قراءات ، منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمى ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع « يهدى » فتح الباء والهاء وتشديد الدال ..^(٢) . والاستثناء في قوله : ﴿ أم من لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ مفرغ من أعم الأحوال . والتقدير : أقمن يهدى إلى الحق أحق بالاتباع ، أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع ؟

وجاء قوله - سبحانه - ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ باستفهامين متوالين ، زيادة في توبيخهم وتقريعهم ، ولفت أنظارهم إلى الحق الواضح الذي لا يخفى على كل ذى عقل سليم . وقوله : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ... ﴾ توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من إساءات .
أى : إن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، لا يتبعون في عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التي ورثها الأبناء عن الآباء .

وخص أكثرهم بالذكر ، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لا يتبعونه عنادا وجحودا وحسدا ، كما قال - تعالى - ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾^(٣) .

ويجوز أن يكون - سبحانه - خص أكثرهم بالذكر ، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستتبعه في الوقت الذي يريده الله - تعالى .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٩٠ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٤١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

والتنكير في قوله ﴿ظنا﴾ للتنويع . أى لا يتبع أكثرهم إلا نوعا من الظن الواهى الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .

وقوله : ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه . والمراد بالظن هنا : ما يخالف العلم واليقين ، والمراد بالحق : العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .

أى : إن الظن الفاسد المبني على الأوهام لا يغنى صاحبه شيئا من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب في ثبوته وصحته .

وقوله ﴿شيئا﴾ مفعول مطلق أى : لا يغنى شيئا من الإغناء ، ويجوز أن يكون مفعولا به على جعل يغنى بمعنى يدفع .

وقوله : ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن الله - تعالى - عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة ، وسينالون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة . وأفعالهم الفاسدة .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقادات ، ويدخل في الاعتقادات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ...

أما مادون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد في الأعمال ، كاجتهاد الأفراد في الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر في الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحرى العدل .. »^(١) .

وبعد أن ساقَت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدث أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأى ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصورا بليغا . استمع إلى السورة الكريمة وهى تتحدث عن كل ذلك فتقول :

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرَى
 فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
 مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾
 بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
 بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
 أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا
 لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ
 النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير « هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا
 بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني
 الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله - تعالى - الذي لا يشبهه شيء
 في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ولا في أقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال
 - تعالى - : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ ^(١) .

والنفي هنا للشأن الذى هو أبلغ فى النفي ، وأعمق فى الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نفي الشيء فى ذاته مباشرة .

أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يخلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرها ؛ لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة ، وأداب قوية ، وهدايات جامعة ... يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر .

وقوله : ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب ﴾ بيان لكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب الساهوية السابقة .

والمراد بالذى بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزيور .
وقوله ﴿ بين يديه ﴾ فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يدي الشيء يكون أمامه ، فوصف - سبحانه - ما مضى من الكتب بأنها بين يدي القرآن لشدة ظهورها واشتهارها ، ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله - تعالى - ، ومن أمر باتباع الرسول - ﷺ - عند ظهوره .

وأل فى ﴿ الكتاب ﴾ للجنس ، فالمراد به جنس الكتب الساهوية التى أنزلها - سبحانه - على بعض أنبيائه .

والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب فى إعجازه وهدايته أن يكون من عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن يكون مؤيداً للكتب الساهوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية لله - تعالى - ومن اتباع لرسله ، وأن يكون مفصلاً وموضحاً لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .

وقوله ﴿ تصديق ﴾ منصوب على أنه معطوف على خبر كان ، أو على أنه خبر لكان المقدره أى : ولكن كان تصديق .

وقوله ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ بيان لمصدره .

أى : هذا الكتاب لا ريب ولاشك فى كونه منزلاً على رسوله محمد - ﷺ - من الله - تعالى - رب العالمين .

وفصلت جملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقررة لمضمونه .

ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع الريب فيه من المشركين ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة بيانه ، وسطوع حجته ، ووضوح دلائله ، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحياً ساهوياً ، ومصدر هداية وإصلاح .

فجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ تنفى الريب في القرآن عن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على النظر فيه بروية ومن ارتاب فيه فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو بصيرة نافذة أو قلب سليم .

وقوله - سبحانه ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ انتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .

وأما هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل أيقولون إن محمداً - ﷺ - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لا من عند الله .

وقوله ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ . أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يكتبهم ويخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم : يا محمد على سبيل التبكيت والتحدى : إن كان الأمر كما زعمتم من أتى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سورة فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحث لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - وجاءت كلمة « سورة » منكرة ، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .

والضمير فى ﴿ مثله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وصدق المعنى ، وقوة التأثير .

وقوله : ﴿ وادعوا ﴾ من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى نادوهم .

وكلمة ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من استطعتم ﴾ تشمل آهنتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة .

وكلمة ﴿ دون ﴾ هنا بمعنى غير أى : ادعوا لمساعدتكم كل من تستطيعون دعوته غير الله - تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتى بمثله .

وقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام السابق عليه ، أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أتى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا سورة مثله مفتراة ، فإنكم مثل فى العربية والفصاحة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تحدثهم وأثارت حماسهم ، وأرخت لهم الحبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوافر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

قال الآلوسى : « هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ، لأنه - ﷺ - تحدى مصارع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى على نقله »^(١) .

هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلا طويلا للحديث عن إعجاز القرآن فقال : « وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتاً ولن يزال ، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان ، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الحاجة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال ، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والتقسيمات وما إليها ... »^(٢) .

ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم ، إلى توبيخهم على جهلهم وغياوتهم فقال - تعالى - : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... ﴾ .
أى : أن هؤلاء الأشرقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى تكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أو تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التى لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .

قال صاحب الكشاف قوله ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ أى : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوا من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب ..

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١١٩ .

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٨٥ وما بعدها طبعة دار الشروق .

فإن قلت : فما معنى التوقع في قوله : ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا ، وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه ^(١) .

وقال الآلوسى : وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ دون أن يقال . بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه للإيدان بكمال جهلهم به ، وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذبيهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعلمية ما في حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل منه إلى ما في النظم الكريم لأنه أبلغ .

ونفى إتيان التأويل بكلمة ﴿ لما ﴾ الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة « لم » ؛ لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة في تكذيب الشيء ، قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها في تكذبيه قبل علمه مطلقا ^(٢) .

وقوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ تهديد لهم ووعيد على التهادى في العناد .

أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - ﷺ - عن جهل وجحود : كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : ﴿ فكلما أخذنا بذنيه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ^(٣) .

ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٢٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك ويتنتفع بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لاستحبابه العمى على الهدى .

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لا اتباع الحق عن يقين وإذعان .

وقيل إن المعنى : ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ومنهم من لا يؤمن به أصلا لا نظماس بصيرته ، وإيثاره الغى على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه .

وقوله : ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ، ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه ، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب .

وقوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبىه - ﷺ - - إذا ما لج أعداؤه فى طغيانهم .
أى : وإن تمدى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ، فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه - سبحانه - وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذونى عليه ، وأنا برىء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذنى الله عليها .

فالأية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه . وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - .

ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحکم فقال - تعالى - : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ .

أى : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر أو فهم ، فهل أنت - يا محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشاف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صياحه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .

ومنهم - أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدى العمى ولو

انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد نعنا على المشركين جهالاتهم ، وانطاس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التي أنعم بها عليهم .

فقد وصمهم - سبحانه - يفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون ، لأنهم لما لم يستعملوا نعم الله فيها خلقت له ، صارت هي والعدم سواء . والاستفهام في الآيتين للإنكار والاستبعاد .

وجواب ﴿ لو ﴾ في الآيتين محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم في الحاليتين ؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده . ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه في خلقه ، أن لا يظلمهم شيئا ، كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم واطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من الأسباب التي يبتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم .. ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد المهالك عن طريق اجتراح السيئات ، واقتراف الموبقات ، الموجبة للعقوبات في الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نفت تصور أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدث المشركين أن أتوا بسورة مثله ، ووصمتهم بالتسرع في الحكم على شيء لم يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبي - ﷺ - أن يثبت على دعوة الحق ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليا ﴾ .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك المشركين في الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبع ذلك بالحديث عن أحوالهم يوم الحشر ، ومن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - ﷺ - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَانُ رَبِّكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوبُفَنَّكَ
فَالْيَنَامُ رَجَعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾
بيان لأحوالهم السيئة عند جمعهم لحساب يوم القيامة .
إذ الحشر - كما يقول الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب
ونحوها «^(١)» .

والمراد به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم في الموقف لحسابهم على أعمالهم
الدينيوية .

دالمقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة أن يضرب بها المثل في
الوقت القصير .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم ، وذكر هؤلاء المشركين الذين عموا وطمعوا عن
الحق ، يوم يجمعهم الله - في الآخرة للحساب والعقاب ، فيشتد كرههم ، وينسون تلك المذات
والشهوات .. التي استمتعوا بها في الدنيا ، حتى لكأنهم لم يلبثوا فيها وفي قبورهم ، إلا ساعة
من النهار أي : إلا مدة قصيرة من النهار ، يتعارفون بينهم ، أي : لا تتسع تلك المدة إلا
للتعارف فيما بينهم .

وقوله : ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ جملة حالية من ضمير الجمع في يحشروهم .
وخصت الساعة بكونها من النهار ، لأنها أعرف لهم من ساعات الليل .

والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التي قضاها هؤلاء المشركون في الدنيا يتمتعون بلهوها ولعبها، ويستبعدون معها أن هناك بعثا وحسابا .. قد زالت عن ذاكرتهم في يوم القيامة ، حتى لكانهم لم يمكثوا فيها سوى وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب والجيران والأصدقاء ، حتى لكان ذلك النعيم الذي تقلبوا فيه دهرًا طويلا لم يروه من قبل ...

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الأحقاف : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾^(١) وقوله - سبحانه ، في سورة الروم ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾^(٢) .

فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا في الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما في قوله - تعالى - : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾^(٣) . وكما في قوله - تعالى - ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾^(٤) فكيف نجتمع بين هذه الآيات التي اختلفت إجابتهم فيها ؟ .
فالجواب : أن أهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف ، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .

وقوله ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ جملة حالية أيضا من ضمير الجمع في يحشرهم .
قال القرطبي : « وهذا التعارف توبيخ وافتضح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ ...
فأما قوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ . وأشباهه فمعناه : لا يسأله سؤال رحمة وشفقة .. »^(٥) .

وقوله : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان

(١) الآية ٣٥ .

(٢) الآية ٥٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .

(٤) سورة المنازعات الآية الأخيرة .

(٥) تفسير القرطبي - يتصرف وتلخيص - ج ٨ ص ٣٤٨ .

حكم الله عليهم في آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم .

والمراد ببقاء الله : مطلق الحساب والجزاء الكائن في يوم القيامة .

أى : أن هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب المهين ، بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتدائهم إلى طريق النجاة .

وقوله : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسليية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم و « إن » شرطية . و « ما » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ جواب للشرط وما عطف عليه . والمعنى : إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوى ، وإما نتوفينك ، قبل ذلك ، وفي كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا في الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة التى يستحقونها .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوى ، هو جزء من العذاب المدخر لهم في الآخرة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فسلط عليهم القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخاناً . ونصر المسلمين عليهم في غزوتى بدر والفتح ، وكل ذلك حدث في حياة النبى - ﷺ .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، والدلالة على تجدد واستمراره .

أى : نعدهم وعداً متجدداً على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيتنا ، من إنذار عقب إنذار ، ومن وعيد بعد وعيد .

والمراد من الشهادة في قول ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه - سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم ؟

قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق

جلودهم وألسنتهم وأيديهم فتكون شاهدة عليهم»^(١).

هذا ، وفي معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾^(٢) وقوله - تعالى - : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾^(٣) ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل أمة رسولا يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أن يجعل لكل جماعة من الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد عليهم بذلك يوم القيامة ، فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله به ، قضى - سبحانه - بينه وبينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمن وبعقوبة الكافر ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية « فكل أمة تعرض على الله - تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفضل بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، فأمتي إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين »^(٤) .

وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم .

أى : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم - ﷺ - الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذى تهددنا ؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين فى دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا .

وهذا القول منهم يدل على توغلهم فى الكفر والجحود ، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول - ﷺ - .

(٣) سورة غافر الآية ٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٩ .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤٠ .

ولذا أمر الله تعالى : رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم فقال : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ... ﴾ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين المتعجلين للعذاب : إننى لا أملك لنفسي - فضلاً عن غيرها - شيئاً من الضر فأدفعه عنها ، ولا شيئاً من النفع فأجلبه لها ، لكن الذى يملك ذلك هو الله وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء ، فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرتى . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعاً .

ويجوز أن يكون متصلاً فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك لنفسي شيئاً من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلنى قادراً عليه منها ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .
وقدم - سبحانه - الضر على النفع هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى هو نوع من الضر .

أما الآية التى فى سورة الأعراف ، وهى قوله - تعالى - ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .. ﴾ فقد قدم فيها النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها . وهى أن الرسول - ﷺ - لا يملك لنفسه شيئاً من التصرف فى هذا الكون ، وللإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .

وقوله : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله - تعالى - النافذة .

أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لانتهاى حياتها ، فإذا خان وقت هذا الأجل هلكت فى الحال دون أن تتقدم على الوقت المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى .

ثم ساقى السورة الكريمة ألواناً أخرى من الأجوبة التى لقنها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - لكى يرد بها على المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صورت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَنْعَمَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ الْكُنْ وَكُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
 هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ
 أَحَقُّ هُوَ قُلِّ إِيَّ وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
 وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا
 النَّدَامَةَ لَمَارَأُوا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

وقوله «أرأيتم» بمعنى أخبروني . وكلمة أرأيت تستعمل في القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أرأيت كذا أو عرفته ؟ إن لم تكن أبصرته أو عرفته فانظره وتأمله وأخبرني عنه .

ولما كانت الرؤية للشيء سببا لمعرفة وللإخبار عنه ، أطلق السبب وأريد المسبب فهو مجاز مرسل علاقته السببية والمسببية .

وقوله : بيئات أي : ليلا ، ومنه البيت لأنه ييات فيه . يقال : بات يبيت بيئا وبياتا . والمعنى : أخبروني أيها الجاهلون الحمقى : أي دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب ؟ إن وقوع العذاب سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ، ولا يمكن أن يتعجله عاقل ، لأنه - كما يقول صاحب الكشاف - : كل مكروه ، مر مذاق ، موجب للنقار منه ، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم ؟ !!

وقال - سبحانه - ﴿ بيئات ﴾ ولم يقل ليلا ، للإشعار بجيء العذاب في وقت غفلتهم ونومهم بحيث لا يشعرون به ، فهم قد يقضون جانباً من الليل في اللهو واللعب ، ثم ينامون فيأتيهم العذاب في هذا الوقت الذي هجعوا فيه .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه .

ولذا قال القرطبي : « قوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ استفهام معناه التهويل

والتعظيم . أى : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمراً تستوخم عاقبته : ماذا تجنى على نفسك ^(١) .

وجواب الشرط لقلوه : ﴿ إن أتاكم ... ﴾ محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه فى أحد هذين الوقتين أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون وقوع شىء هذه نتائجها ؟

وقد ذكر صاحب الكشاف وجهاً آخر بعد أن ذكر هذا الوجه فقال : فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون منه ؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجمام ، لأن من شأن المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ - فضلاً عن أن يستعجله - ويجوز أن يكون ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ جواباً للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمنى ^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ أتم إذا ما وقع آمنتم به ... ﴾ زيادة فى تجهيلهم وتأنيبهم والهمزة داخلة على محذوف ، و ﴿ ثم ﴾ حرف عطف يدل على الترتيب والترامى وجرى به هنا للدلالة على زيادة الاستبعاد .

والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم قبل وقوع العذاب تتعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله . وذقتهم مرارته .. آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر .

وقوله : ﴿ الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ قصد به زيادة إيلاهم وحسرتهم ولفظ ﴿ الآن ﴾ ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو فى محل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .

أى : قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : الآن آمنتم بأنه حق ؟ مع أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزون ، وتقولون للرسول - ﷺ - ولأتباعه : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ ألا فلتعلموا : أن إيمانكم فى هذا الوقت غير مقبول ، لأنه جاء فى غير أوانه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٠ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

تأكيد لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ « قيل » المقدر قيل لفظ ﴿ آلآن ﴾ .

أى : قيل لهم : آلآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد أن كنتم به تستعجلون؟ ثم قيل لهؤلاء الظالمين الذين أصروا على الكفر واقتراف المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أى العذاب الباقي الدائم ، إذ الخلد والخلود مصدر خلد الشيء إذا بقى على حالة واحدة لا يتغير .
والاستفهام فى قوله : ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ للنفى والإنكار . أى لا تجزون إلا بالجزاء المناسب لما كنتم تكسبون فى الدنيا من كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحي الله - تعالى - .

ثم قال - سبحانه - ﴿ ويستتبونك أحق هو ﴾ النبأ : كما يقول الراغب . خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن^(١) .
والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .

أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - على سبيل التهكم والاستهزاء ، أن تجربهم عن هذا العذاب الذى توعدهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع ولكنك تحدثهم عنه على سبيل الإرهاب والتهديد ؟
وقوله : ﴿ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبية - ﷺ - إلى الجواب الذى يرد به عليهم .

ولفظ ﴿ إى ﴾ بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، إلا أنه لا يستعمل إلا مع القسم .

أى : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربى إن العذاب الذى أخبرتكم به لا محيص لكم عنه وما أنتم بمعجزى الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله بكم فى أى وقت يريد ، بل أنتم فى قبضته وتحت سلطانه ومملكه ، فاتقوا الله ، بأن تخلصوا له العبادة ، وتتبعوا رسوله - ﷺ - فيما جاءكم به من عنده - سبحانه - .

وقد أكد سبحانه - الجواب عليهم بأتم وجوه التأكيد ، لأنهم كانوا قوما ينكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعث وجنة ونار .

قال ابن كثير : « وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله - تعالى - رسوله فيها أن يقسم به على من أنكر المعاد ، أما الآية الأولى فهى قوله

- تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم .. ﴾^(١) وأما الآية الثانية فهي قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن .. ﴾^(٢) .

وجملة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة سبقت لبيان عجزهم عن الخلاص ، وتأكيده وقوع العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - أنهم لن يستطيعوا افتداء أنفسهم من العذاب عند وقوعه فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ﴾ .

أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب شركها وفسوقها ، جميع ما في الأرض من مال ومتاع ، وأمكنها أن تقدمه كفداء لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تفتدى ذاتها من العذاب المهين .

ومفعول ﴿ افتدت ﴾ محذوف . أى لافتدت نفسها به .

ولو هنا امتناعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لامتناع ملكها لما تفدى به ذاتها وهو جميع ما في الأرض من أموال ، ولامتناع قبول ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفرض . وقوله ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ بيان لما انتابهم من حسرات عند مشاهدتهم لأهوال العذاب المعد لهم .

﴿ وأسروا ﴾ من الإسرار بمعنى الإخفاء والكتئان . يقال : أسر فلان الحديث . أى : خفض صوته به ، ويقابله الإعلان والجهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

والندامة والندم : ما يجده الإنسان في نفسه من آلام وحسرات على أقوال أو أفعال سيئة ، فات أو ان تداركها .

أى : وأخفى هؤلاء الظالمون الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .

قال صاحب الكشاف : « قوله - سبحانه - ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ، ولم يختر ببالهم ، وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ، ما سلبهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطبقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع ، سوى إسرار الندم

(١) سورة سبأ الآية ٣ .

(٢) سورة التغابن الآية ٧ .

والحسرة في القلوب ، كما ترى المقدم للصلب يتخنه ما دمه من فظاعة الخطب ويغلب ، حتى لا ينس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا .

وقيل : أسر رؤسأوهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم ..

وقيل أسروا الندامة : أظهروها من قولهم أسر الشيء إذا أظهره وليس هناك تجلد «^(١)» .
 وقوله : ﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ بيان لعدالة الله في أحكامه بين عباده .
 أى : وقضى الله - تعالى - بين هؤلاء الظالمين وبين غيرهم بالعدل دون أن يظلم أحدا .
 ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ، وعلى أنه وحده الذى يملك التحليل والتحرير ، ويعلم السر وأخفى فقال - تعالى - :

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ
 وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
 يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
 فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا
 تَفَرُّوتَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

أى : ألا إن الله وحده لا لغيره ، ملك ما فى السموات وما فى الارض من مخلوقات ، وهو - سبحانه - يتصرف فيها وفق إرادته ومشئته كما يتصرف المالك فيما يملكه ، فهو يعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ . وقوله : ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ أى : ألا إن كل ما وعد الله به الناس من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتا لا ريب فيه ، وواقع وقوعا لا محيص عنه .

وصدرت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ الدالة على التنبيه ، لحض الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار والعودة إلى طريق الحق .

وأعيد حرف التنبيه فى جملة ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ لتمييزها بهذا التنبيه عن سابقتها ، لأنها مقصودة بذاتها : إذ أن المشركين كانوا يظنون أن ما وعدهم به الرسول - ﷺ - هو من باب الترغيب والترهيب وليس من باب الحقائق الثابتة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى ولكن أكثر هؤلاء الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جنت به علما نافعا لسوء استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخيث نفوسهم .

وقال ﴿ أكثرهم ﴾ : إنصافا للقللة المؤمنة التى علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقفت إلى جانب الرسول - ﷺ - تؤيده وتفتدى دعوته بالنفس والمال .

وقوله : ﴿ هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴾ بيان لكمال قدرته ، إثر بيان عظم ملكوته ، ونفاذ وعده .

أى : هو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ويميت من يريد إماتته وإليه وحده ترجعون جميعا ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ

ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴿١﴾ .
 والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين
 القلوب ، ويرقق النفوس .

والشفاء : هو الدواء الشافي من كل ما يؤذي ، ويجمع على أشفيه .
 والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المقصد والبغية ، والرحمة معناها
 الإحسان ، أو إرادة الإحسان .

والمعنى : يأيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من
 موعظة حسنة ترق لها القلوب ، وتخشع لها النفوس . وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض
 صدوركم . ومن هداية لكم إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى
 الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ،
 وأكمل بيان ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتنبهوا من غفلتهم .

ووصفت الموعظة بأنها من ربكم . لتذكيرهم بما يزيدا تعظيها وقبولاً ، لأنها لم تصدر عن
 مخلوق تحمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم
 بما يصلحها ويشفيها .

وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين ، لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .
 قال الآلوسی ما ملخصه : « واستدل بالآية على أن القرآن يشفي من الأمراض البدنية كما
 يشفي من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل
 إلى النبي - ﷺ - فقال إني اشتكى صدري ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « اقرأ
 القرآن ، يقول الله - تعالى - شفاء لما في الصدور » .

وأخرج البيهقي في الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلاً شكاً إلى النبي - ﷺ - وجع
 حلقة ، فقال له : « عليك بقراءة القرآن » .

وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم ، والخبر الثاني لا يدل
 عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - ﷺ - الشاكي بقراءة القرآن إرشاداً له إلى ما ينفعه
 ويزول به وجعه .

ونحن لا ننكر أن لقراءة القرآن بركة ، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما
 ننكر الاستدلال بالآية على ذلك .

والخبر الأول وإن كان ظاهرا في المقصود ، لكن ينبغي تأويله ، كأن يقال : لعله - ﷺ - اطلع على أن في صدر الرجل مرضا معنويا قلبيا ، قد صار سببا للمرض الحسى البدنى ، فأمره - ﷺ - بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثانى .

والحسن البصرى ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا ^(١) .

وقوله : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ﴾ حض للناس على اغتنام ما فى تعاليم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما فى الدنيا من شهوات .
أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - ﷺ - ، وبرحمته التى وسعت كل شىء وهى بالمومنين أوسع ، لا بما يجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن ، ورحمته بالإسلام . ومنهم من فسرها بالجنة والنجاة من النار .

ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى : لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - ﷺ - يحدد المراد منها ، وما دام الأمر كذلك فحملها على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أى : بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة .

فمن أيفع بن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ويقول مولاة : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ ^(٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢١ .

أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيها جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .

ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة ، للإشعار باستقلال كل منها بالفرح به .
والجار والمجرور في كل منها متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضل ورحمة ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا .

قال القرطبي : « والفرح لذة في القلب يادراك المحبوب . وقد ذم الله الفرحة في مواضع ، كقوله - سبحانه - ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ وكقوله ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرحة لم يكن ذمًا ، لقوله - تعالى - ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكقوله - سبحانه - هنا ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ... »^(١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال : ﴿ قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ أى : قل لهم يا محمد - أيضا - أخبروني أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم : إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنفسكم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم منه حلالا وجعلتم منه حراما .

وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا في آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾^(٢) .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ... الآيات ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا رث الهيئة فقال : هل لك مال ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قال : قلت : من كل

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ص ١٣٩ .

المال . من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : إذا آتاك الله مالا فلير عليك ثم قال : هل تنتج إليك صحاحا آذانها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول : هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك»^(١) .

وقوله : ﴿ قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ استفهام قصد به التوبيخ والزجر أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو الذى يملك التحليل والتحرير ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم فى ذلك ، أو إنما أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم فى ذلك لبينه على لسان رسوله - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « وقوله : ﴿ الله أذن لكم ﴾ متعلق بأرايتم ، وقل . تكرير للتوكيد . والمعنى أخبرونى الله أذن لكم فى التحليل والتحرير ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة ، بمعنى : بل أنفترون على الله ، تقريرا للافتراء .

ثم قال : وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد فى شىء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليثق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله»^(٢) .

ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ... ﴾ .

أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيعنون أن الله سيعتقهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افتراءهم عليه الكذب .

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم ، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى - :

وقال - سبحانه - ﴿ وما ظن ... ﴾ بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .

وقوله : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم ، واتباع شريعته فيما أحل وحرم .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٣ .

أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث خلقهم وزرقهم ، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم ، لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له .

وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، عطف على ذلك تذكيره إياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير في هذا الكون فقال : ﴿ وما تكون في شأن . وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا ... ﴾ .

أى : وما تكون - أيها الرسول الكريم - في شأن من الشئون أو في حال من الأحوال . وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدي الى الرشيد .

ولا تعملون - أيها الناس - عملا ما صغيرا أو كبيرا ، إلا كنا عليكم مطلعين . ومن في قوله ﴿ منه ﴾ للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم شئونه - ﷺ - ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .

ومن في قوله ﴿ من قرآن ﴾ مزيدة لتأكيد النفي .

وقال الألوسي : « والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني ، وسيد المخاطبين - ﷺ - هذا . وقوله ﴿ ولا تعملون ... ﴾ عام يشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى في كل من المقامين ما يليق به ، فعبر في مقام الخصوص في الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفي الثاني بالعمل العام للجليل والحقير . وقيل : الخطاب الأول عام للأمم أيضا كما في قوله - تعالى - : ﴿ يأيا النبي إذا طلقتم ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا كنا عليكم شهودا ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة . أى : وما تلبسون بشيء منها في حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له «^(١)» .

وقوله : ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أى : تخوضون وتندفعون في ذلك العمل ، لأن الإفاضة في الشيء معناها الاندفاع فيه بكثرة وقوة .

وقوله : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شيء .

ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعدها وغاب في طلب الكلاً والعشب . والكلام على حذف مضاف .

أى : وما يغيب ويخفى عن علم ربك مثقال ذرة في الوجود علوية وسفلية ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده في كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .
وقوله : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ تمثيل لقلة الشيء ودقته ، ومن فيه لتأكيد النفي وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام في حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه - سبحانه - بتفاصيلها . فكأنه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شيء من أحوال أهل الأرض مع نبيهم - ﷺ - .
وقوله : ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها .

و ﴿ لا ﴾ نافية للجنس و ﴿ أصغر ﴾ اسمها منصوب لشبهه بالمضاف ، و ﴿ أكبر ﴾ معطوف عليه . و ﴿ في كتاب مبين ﴾ متعلق بمحذوف خبرها .

وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم في سياق العلم بما خفى من الأمور .
وقرأ حمزة ويعقوب وخلف ﴿ ولا أصغر ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى :
ولا ما هو أصغر من ذلك .

والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذى وسع كل شيء ، أو اللوح المحفوظ الذى حفظ الله فيه كل شيء .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة الله - تعالى - لكل شيء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن من خيرات وبركات ، وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .

ويعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء في القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

بعد كل ذلك ، بشر أوليائه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ، ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولداً بما يكتبهم ويخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ الْآيَاتِ لِلَّهِ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا
 الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلِ إِبْرٰهٖمُ الَّذِي يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ
 لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

والأولياء : جمع ولي مأخوذ من الولي بمعنى القرب والدنو ، يقال : تباعد فلان من بعد ولي

أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت بالله - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه ، ويحبتون كل ما يكرهه .

قال الفخر الرازى : « ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شىء هو الذى يكون قريباً منه .

والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقاً فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهناك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون ولياً له - سبحانه - .

وإذا كان كذلك كان الله - ولياً له - أيضاً - كما قال : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ .

وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ وبحرف التوكيد ﴿ إن ﴾ لتنبية الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما ناله أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية .

وقوله : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تمييزهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم . والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه . والحزن اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

أى : أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً .

والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه - ، فمتى فعلوا ما يودى إلى ذلك هان كل ما سواه .

وقوله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ استئناف مسوق لتوضيح حقيقتهم فكان سائلاً قال : ومن هم أولياء الله ؟ فكان الجواب هم الذين توفّر فيهم الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .

وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضى ، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ . لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال للإيدان بأن اتقاءهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب أو ترهيب .

وقوله - سبحانه - ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ زيادة تكريم وتشريف لهم .

والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .

أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم فى الدنيا من حياة آمنة طيبة ، ولهم - أيضاً - فى الآخرة ما يسرهم من فوز برضوان الله ، ومن دخول جنته .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والثابت فى أكثر الروايات ، أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة .. فقد أخرج الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى .. وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - تعالى - ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ فقال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

وقيل المراد بالبشرى : البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغي العدول عما ورد عن رسول الله - ﷺ - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن تحمل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نفي الخوف والحزن كائنًا ما كان ... »^(١) .

وقوله : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولا لما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التى تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعود إلى ما ذكر من البشرى فى الدارين .

أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذى لا يفوقه نجاح أو فضل .

هذا ، وقد نقل الشيخ القاسمى - رحمه الله - كلاما حسنا من كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فقال ما ملخصه :

هذه الآيات أصل في بيان أولياء الله ، وقد بين - سبحانه - في كتابه ، وبين رسوله في سنته أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء .

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينها ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون . كما في هذه الآية ، وفي الحديث الصحيح : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد أذنته بالحرب .. » والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبيأؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد - ﷺ - خاتم النبيين .. فلا يكون وليا إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان ... وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فيحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله - تعالى - فمن كان أكمل إيمانا وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى .

ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان كاذبا في دعواه ، أو كان مجنونا .

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بخلق شعر أو تقصير .. بل يوجدون في جميع طبقات الأمة . فيوجدون في أهل القرآن ، وأهل العلم ، وفي أهل الجهاد والسيف ، وفي التجار والزراع والصناع ...

وليس من شرط الولى أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشبهه عليه بعض أمور الدين .. «^(١)» .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه أوليأؤه من سعادة دنيوية وأخروية ، أتبع ذلك بتسليية الرسول - ﷺ - عما لقيه من أعدائه من أذى فقال : ﴿ ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا ، هو السميع العليم ﴾ .

أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعداؤك في شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ، لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم لك ، وجحودهم لدعوتك .

والنهي عن الحزن - وهو أمر نفسي لا اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا النهي عن لوازمه ، كالأكثر من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .

وفي هذه الجملة الكريمة تسليية له - ﷺ - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور ، حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .

وقوله : ﴿ إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾ تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، فكأنه - ﷺ - قد قال : وما لي لا أحزن وهم قد كذبوا دعوتي ؟ فكان الجواب : إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا لغيره ، فهو - سبحانه - القدير على أن يغلبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو ﴿ السميع ﴾ ، لأقوالهم الباطلة ، ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم القبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك يوم القيامة عقاباً أليماً .

ولا تعارض بين قوله - سبحانه - ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ وبين قوله في آية أخرى ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾^(١) ، لأن كل عزة لغيره - سبحانه - فهي مستمدة من عزته ، وكل قوة من تأييده وعونه ، والرسول - ﷺ - والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء بفضل ركونهم إلى عزة الله - تعالى - وإلى الاعتقاد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم تكريماً لهم .

ولذا قال القرطبي^(٢) - رحمه الله - قوله : ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ أي : القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك ومانعك . و ﴿ جميعاً ﴾ نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فإن كل عزة بالله فهي كلها لله ، قال - سبحانه - ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾^(٣) .

ثم قال - تعالى - ﴿ ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي : ألا إن الله وحده ملك جميع من في السموات ومن في الأرض من إنس وجن وملائكة .

وجاء التعبير القرآني هنا بلفظ ﴿ من ﴾ الشائع في العقلاء ، للإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض ﴾ يعني العقلاء

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٩ .

(٣) سورة الصافات آية ١٨٠ .

المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم بالذكر ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكه ، فهم عبيد كلهم ، وهو - سبحانه - ربهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكاً له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكاً ، وليدل على أن من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنس ، فضلاً عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر»^(١) .

وقوله : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون في عبادتهم لغير الله شركاء في الحقيقة ، وإنما يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم شركاء جهلاً منهم ، لأن الله - تعالى - تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك أو شركاء في ملكه أو في عبادته .

وعلى هذا التفسير تكون ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ وما يتبع ﴾ نافية ، وقوله ﴿ شركاء ﴾ مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : وما يتبع الذين يدعون من دون الله آلهة شركاء .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهامية منصوبة بقوله ﴿ يتبع ﴾ ، ويكون قوله ﴿ شركاء ﴾ منصوب بقوله ﴿ يدعون ﴾ وعليه يكون المعنى .

أى شىء يتبع هؤلاء المشركون في عبادتهم ؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند أنفسهم ، أما هم في الحقيقة فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى : ما يتبعون في عبادتهم لغير الله إلا الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً ، وإلا الخرص المبنى على الوهم الكاذب ، والتقدير الباطل .

وأصل الخرص : الحزر والتقدير للشىء على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة .

قال الراغب : وحقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص ، سواء كان مطابقاً للشىء أو مخالفاً له ، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه - أى : كفعل من يخرص الثمر على الشجر - وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه .

وقيل : الخرص : الكذب كما في قوله - تعالى - ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى يكذبون^(١) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر نعمه على عباده فقال - تعالى - ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ... ﴾ .

أى : الله وحده - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلاً ، لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة في نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذى جعل لكم النهار مضيئاً لكي تبصروا فيه مطالب حياتكم .

والجملة الكريمة بيان لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته ، وشمولها لكل شيء في هذا الكون .

وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أى : إن في ذلك الجعل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده ، وتفضله عليهم بالنعمة التى لا تحصى .

ثم شرع - سبحانه - في بيان أقبح الرذائل التى تفوه بها المشركون فقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ .

والمراد بهؤلاء القائلين : اليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله - والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم ممن نحا نحوهم في تلك الأقوال الشائنة .

وقوله : ﴿ سبحانه هو الغنى له ما في السموات وما في الأرض ﴾ تنزيه له - عز وجل - عما قالوا ، في حقه من أقاويل باطلة .

أى : تنزهه وتقديسه عن أن يكون له ولد ، لأنه هو الغنى بذاته عن الولد وعن كل شيء ، وهو المالك لجميع الكائنات علوها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدراته .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتتشقق الأرض ، وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٤٦ - بتصرف وتلخيص .

عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿^(١)﴾ .

وقوله : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ تجهيل لهم ورد عليهم . و ﴿ إن ﴾ هنا نافية ، و ﴿ من ﴾ مؤكدة لهذا النفي ، ومفيدة للعموم . والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على مازعمتوه من أن الله ولدا ، وإنما قلتم ما قلتم لانطماس بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .

وقوله - سبحانه - ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم وكذبهم .

أى : أتقولون على الله - تعالى - قولاً ، لا علم لكم به ، ولا معرفة لكم بحقيقته ؟ إن قولكم هذا هو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب والبهتان .

قال الآلوسى : « وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء »^(٢) .

وقوله : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على شركهم .

أى : قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً .

وقوله - سبحانه - ﴿ متاع في الدنيا ﴾ بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : أن ما يتمتعون به في الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهمل كثير ، لأنه إلى فناء وانذار .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد أن غرتهم الدنيا بشهواتها فقال : ﴿ ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

أى : ثم إلينا لا إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حساباً عسيراً على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبينا

- ﷻ -

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٥٦ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

وبعد أن ساقَت السورة الكريمة ما ساقَت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - ﷺ - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذِبين .. بعد كل ذلك تحدَّثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أن الله - تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا في ضلالهم ، فقال - سبحانه - :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَهُ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ في تقرير الدلائل والبيانات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك في بيان بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر ، انشرح صدره . ووجد في نفسه رغبة جديدة .

وثانيها : ليكون للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن

الرسول - ﷺ - إذا سمع أن معاملة الكفار لأنبيائهم سيئة .. خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .

وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سبباً في انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم . وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة ... «^(١)» .

ونوح - عليه السلام - : واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً . وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحاً ليدهم على طريق الرشاد . وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح ... بصورة أكثر تفصيلاً .

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ، إبراز جانب التحدى من نوح لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره .

والمعنى : واتل - يا محمد - على مسامع هؤلاء المشركين الذين مردوا على افتراء الكذب ، نبأ نوح - عليه السلام - مع قومه المغترين بأموالهم وكثرتهم ليتدبروا ما في هذا النبأ من عظات وعبر . وليعلموا أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين . والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركي مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم ، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذي جاءهم به نبيهم محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بأيات الله فعلى الله توكلت .. ﴾ بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً ، ، وسمع منهم ما سمع من استهزاء بدعوته ، ، وتطاول على أتباعه .

أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلاً ونهاراً : يا قوم إن كان ﴿ كبر عليكم ﴾ .
أى : شق وعظم عليكم ﴿ مقامى ﴾ فيكم ووجودى بين أظهركم عمراً طويلاً ﴿ وتذكيرى ﴾ إياكم بأيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، ، والتي تستلزم منكم إخلاص العبادة له والشكر لنعمة .

إن كان كبر عليكم ذلك فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت أمرى ولن يصرفنى عن الاستمرار فى تبليغ ما أمرنى بتبليغه وعد أو وعيد منكم .

وخاطبهم - عليه السلام - بقوله : ﴿ يا قوم ﴾ استمالة لقلوبهم وإشعارا لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يجب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .

وجملة ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب الشرط . وقيل جواب الشرط محذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك فافعلوا ما شئتم فإنى على الله وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم . وقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ معطوف على ما قبله .

والفعل ﴿ أجمعوا ﴾ يقطع الهمزة مأخوذ من أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه عزما مؤكدا ووطنت نفسك على المضى فيه بدون تردد أو تقاعس .

والمراد بالأمر هنا : المكر والكيد والعداوة وما يشبه ذلك .

والمراد بشركائهم : أصنامهم التى عبدوها من دون الله وظنوا فيها النفع والضرر والتمسوا فيها العون والنصرة .

والمعنى : أن نوحا - عليه السلام - قد قال لقومه بصراحة ووضوح : يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى بأيات الله الدالة على وحدانيته فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيدى ، ثم ادعوا شركاءكم ليساعدوكم فى ذلك فإنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله به ، بدون مبالاة بمكركم وبدون اهتمام بكيدكم .

قال الآلوسى : « وقوله ﴿ وشركاءكم ﴾ منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لا معزوم عليهم . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله ﴿ أمركم ﴾ بحذف المضاف . أى فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم .

وقرأ نافع : فأجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع وعطف الشركاء على الأمر فى هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائى ، كما يقال جمعت أمرى ... »^(١) .

وقوله : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . وكلمة ﴿ غمة ﴾ بمعنى الستر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر أى : خفى عليه واستتر .

ومنه الحديث الشريف : « صوموا لرؤيته - أى الهلال - وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم

فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما « أى فإن استتر وخفى عليكم الهلال وحال دون رؤيتكم له حائل من غيم أو ضباب فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما .

أى : اجمعوا ما تريدون جمعه لى من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ثم لا يكن أمركم ، الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من الستر أو الحفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضى فيه أو متقاعسين عن مجاهرته بما تريدون فعله معى .

ومنهم من يرى أن كلمة ﴿ غمة ﴾ هنا بمعنى الغم كالكرية بمعنى الكرب أى : ثم لا يكن حالكم غما كائنا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيرى إياكم بآيات الله .

وقد أشار صاحب الكشف الى هذين الوجهين فقال : « فإن قلت : ما معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه وأمرهم الذى لا يكون عليهم غمة ؟

قلت : أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه ، وابدلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك إظهارا لقلته مبالاته بهم وثقته بما وعده به ربه من كلاءته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .

وأما الثانى ففيه وجهان : أحدهما أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم ، المكروهة عندهم . يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة . أى : غما وهما . والغم والغمة كالكرب والكرية .

وثانيهما : أن يراد به ما أريد بالأمر الأول . والغمة السترة من غمة إذا ستره ، وفى الحديث « لا غمة فى فرائض الله » أى لا تستر ولكن يجاهر بها .

يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم . ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونى به «^(١) .

وقوله : ﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾ زيادة فى تحديهم وإثارتهم .

والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى الدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضى وقتها .

أى : ثم أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون أداءه من إيذائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال .

ويصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم ، أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ،

ولا تركوا لى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على فى الحال .

فأنت ترى فى هذه الآفة الكريمة كيف أن نوحا - عليه السلام - كان فى نهاية الشجاعة فى مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فىهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده . فهو - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله بالمضى فيه ، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده . وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكفده وحر به .

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصرىحا .

وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا . حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه - إن استطاعوا ذلك - .

وما لجأ - عليه السلام - إلى هذا التحدى الواضح المثير إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذى تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة فى كل زمان ومكان تلك المواقف المشرفة لرسول الله - عليهم الصلاة والسلام - لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على الله وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر من ينصره . ولنمض مع القصة حتى النهاية لنرى الدليل على ذلك فقد حكى - سبحانه - ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدى السافر لهم فقال :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى ، وعن تذكيرى إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى . فما سألتكم من أجر ، أى : فإنى ما سألتكم فى مقابل تذكيرى لكم ، أو دعوتى إياكم إلى الحق ، من أجر تؤدونه لى - ﴿ إِن أَجْرى إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ وحده ، فهو الذى يشينى على قولى وعملى وهو الذى يعطينى من الخير

ما يغنيني عن أجركم وعطائكم وهو - سبحانه - الذى أمرني ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾
أى : المنقادين لأمره . المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم بين - سبحانه - العاقبة الطيبة التى آل إليها أمر نوح عليه السلام والعاقبة السيئة التى
انتهى إليها حال قومه فقال : ﴿ فكذبوه ﴾ أى : فكذب قوم نوح نبيهم نوحا بعد أن دعاهم
إلى الحق ليلا ونهارا وسرا وعلانية .

فإذا كانت نتيجة هذا التكذيب ؟ كانت نتيجته كما حكته السورة الكريمة ﴿ فنجيناه ومن
معه فى الفلك ﴾ أى : فنجيننا نوحا ومن معه من المؤمنين ، بأن أمرناهم أن يركبوا فى السفينة
التى صنعوها بأمر الله ، حتى لا يغرقهم الطوفان الذى أغرق المكذبين .

وقوله : ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أى : وجعلنا هؤلاء التاجين خلفاء فى الأرض لأولئك
المفرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - وعموا وطمعوا عن الحق الذى جاءهم به
ودعاهم إليه .

هذه هى عاقبة نوح والمؤمنين معه أما عاقبة من كذبوه فقد بينها - سبحانه - فى قوله :
﴿ وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى : وأغرقتنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على
وحدانيتنا وقدرتنا .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت
نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التى جاءهم بها نبيهم نوح
- عليه السلام - .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا : التأمل والانعاط والاعتبار لا مجرد النظر الخالى عن ذلك .
وهكذا نجد أن من العبر والعظات التى من أجلها ساق الله - تعالى - قصة نوح - عليه
السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح - عليه السلام - من شجاعة
وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس واعتماده التام على خالقه وتوكله عليه وحده وتحديه
السافر للمكذبين الذين وضعوا العراقيل والعقبات فى طريق دعوته ، وتحريضه لهم بمثيرات
القول على مهاجمته إن كان فى إمكانهم ذلك ومصارحته لهم بأنه فى غنى عن أموالهم لأن خالقه
- سبحانه - قد أغناه عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تتبدل وهذه السنة تتمثل فى أنه
- سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة للمكذبين .

ثم حكمت السورة الكريمة أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا كثيرين بعد نوح - عليه
السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم نوح منه ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ

الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين ذوى قدر عظيم إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان فهود - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد ، وصالح - عليه السلام - أرسلناه إلى ثمود ، وهكذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم .

وقوله : ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات ، وبالْحجج الساطعات الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله - ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ بيان لموقف هؤلاء الأقسام الجاحدين من رسلهم الذين جاءوا هدايتهم وسعادتهم .

وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :

فمنهم من يرى أن الضمائر فى « كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا » تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن المراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل مجيء الرسل إليهم .

والمعنى على هذا الرأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقسام الأشقياء . استمروا على كفرهم وعنادهم ، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجيء الرسل إليهم وهو أفراد الله - تعالى - بالعبادة والطاعة فكان حالهم فى الإصرار على الكفر والجحود قبل مجيء الرسل إليهم ، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق ، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام البيضاوى فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ أى : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر ، وخذلان الله إياهم .. بما كذبوا به من قبل ، أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - » ^(١) .

(١) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٤٥٤ طبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ .

ومنهم من يرى - أيضا - أن الضائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله ﴿ من قبل ﴾ : أى : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقسام .

وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقسام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم ، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم فى آخر أحوالهم معهم ، يشبه تكذيبهم لهم من قبل . أى : فى أول مجيئهم إليهم .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى : الإمام ابن كثير فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم ، كما قال - تعالى - ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ^(١) .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « كانوا ويؤمنوا » يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير فى قوله « كذبوا » يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا الرأى يكون المعنى :

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا إلى أقوامهم . فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقسام استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التى كذب بها قوم نوح من قبل .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام ابن جرير فقد قال « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ يقول : « فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية .. » ^(٢) .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، تدل على أن هؤلاء الأقسام عموا وطمعوا عن الحق ، واستمروا على ذلك دون أن تحوهم الآيات البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .

وقوله : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه التى لا تتخلف ولا تتبدل . والطبع : الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشئ ما دخل فيه ، ولا يدخل فيه ما خرج منه .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ طبعة دار الشعب ص ٢٣٠ المجلد الرابع .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٠٠ طبعة دار المعرفة - بيروت .

أى : مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود في الكفر والجهود ، وذلك بخذلانهم ، وتخليتهم وشأنهم ، لانهاكهم في الغواية والضلال .
ثم ساقَت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملته ، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التي دارت بينه وبينهم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِمَّنْ
قَالَ مُّوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُهُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عِصْيَانًا وَعَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم بعثنا .. ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم ... ﴾ من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ، لما في هذا الخاص من عبر وعظات .

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبيّنات . ﴿ موسى وهارون ﴾ عليهما السلام .. ﴿ إلى فرعون ﴾ الذي قال لقومه « أنا ربكم الأعلى » وإلى ﴿ ملته ﴾ أى : خاصته وأشرف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

﴿ بآياتنا ﴾ أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وتوجيهات .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التي جاء ذكرها في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .. ﴾ (١) .

قال الجمل : « وتقدم في الأعراف منها ثمانية ، ثنتان في قوله - تعالى - ﴿ فالتقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ^(٢) .
واحدة في قوله - تعالى - ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ ^(٣) وخمسة في قوله - تعالى - ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴾ ^(٤) . والتاسعة في هذه السورة - سورة يونس - في قوله - تعالى - : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ ^(٥) .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ .

والاستكبار : ادعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة ، والتقدير : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه ، فأتياهم ليلفاهم دعوة الله ، ويأمرهم بإخلاص العبادة له ، فاستكبروا عن طاعتها ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم ودينتهم الإجمام ، وهو ارتكاب ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : فاستكبروا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيينها ، ويتعظموا عن تقبلها ^(٦) .

ثم بين - سبحانه - ما تفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته فقال : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ .

أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من عندنا لا من غيرنا ﴿ قالوا ﴾ على سبيل العناد والحقد والغرور ﴿ إن هذا ﴾ الذى جئت به يا موسى ﴿ لسحر مبين ﴾ أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .

والتصير بقوله ﴿ جاءهم ﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .

وفى قوله ﴿ من عندنا ﴾ تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

(٢) الآية ١٠٨

(١) الآية ١٠٧

(٤) الآية ١٣٣

(٣) الآية ١٣٠

(٥) الآية ٨٨ - حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣١٥

(٦) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦٤ .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التي جاءهم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ بالقسم المؤكد : يدل على تبجحهم الذميمة ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذي لا باطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق في زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم فقال : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وفي الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

قال موسى لفرعون وملتئمه منكرًا عليهم غرورهم وكذبهم ، ﴿ أتقولون للحق ﴾ الذي هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهدتكم له .
أتقولون عنه ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ .

يا سبحان الله !! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذي يدل على الجهالة والغباء ، انظروا وتأملوا ﴿ أسحر هذا ﴾ الذي ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمتة قلوبكم ، والحال أنه ﴿ لا يفلح الساحرون ﴾ في أي عمل من شأنه أن يهدي إلى الخير والحق . فقد حذفت جملة ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ لدلالة قوله ﴿ أسحر هذا ﴾ عليه .
قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين ، على أنه سحر فكيف قيل لهم أتقولون : أسحر هذا ؟

قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله : ﴿ أتقولون للحق ﴾ : أتعيبونه وتطعنون فيه ، وكان عليكم أن تدعوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ، إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه .

وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنه قيل : أتقولون ما تقولون : يعني قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟
وأن يكون جملة قوله « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا أجتئنا إيلنا بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ ولا يفلح الساحرون .. ﴾^(١) .

وقال الجمل : « قوله - تعالى - ﴿ قال موسى أتقولون .. ﴾ أى : قال جملا ثلاثة : الأولى : ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ والثانية ﴿ أسحر هذا ﴾ والثالثة ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وقوله ﴿ للحق ﴾ أى فى شأنه ولأجله ، وقوله ﴿ لما جاءكم ﴾ أى : حين يجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبر ، وهذا مما ينافى القول المذكور .

وقوله : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ هنا مقول القول محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتفوه به .

وقوله - سبحانه - حكاية عن موسى ﴿ أسحر هذا ﴾ مبتدأ وخبر ، وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته - عليه السلام - تكذيبا لقولهم ، وتوبيخا إثر توبيخ ، وتجهيلا بعد تجهيل ^(١) .

وقوله : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ جملة حالية من ضمير المخاطبين ، وقد جىء بها تأكيدا للإنكار السابق ، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل .

أى : أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح فاعله ، أى : لا يظفر بمطلوب ، ولا ينجو من مكروه ، وأنا قد أفلحت ، وفزت بالحجة ، ونجوت من الهلكة .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال - تعالى - : ﴿ قالوا أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

واللفت : الصرف واللى يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجتئنا يا موسى بما جئتنا به ﴿ لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أى : لتصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون ﴿ الكبرياء فى الأرض ﴾ أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى - عليه السلام - من الدين الحق فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى وما نحن لكما بمصدقين فيما جئنا به ،

لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذى تتمتع بكبرياته خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب فى قولهم ﴿ أجتئنا لتلفتنا .. ﴾ لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغبانهم .

وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - فى قولهم ﴿ وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لها ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون - عليهما السلام - ، هى تهمة قديمة جديدة تقوم نوح - مثلا - يمتنعون عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ (١) . أى : يريد أن تكون له السيادة والتفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .

ولقد أفاض فى شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصه :

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

إنها العلة القديمة الجديدة التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح ورمى الدعاة بأشنع التهم ؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة .. إنها هى « الكبرياء فى الأرض » وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحرص المتجربون على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف وفساد ، وأوهام وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم الجاهلية الموروثة .

وما كان رجال من أذكياء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد - ﷺ - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد ، ولكنهم كانوا يخشون على مكائدهم

الموروثه ، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كما خشى الملا من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض ، فقالوا متبجحين ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾^(٧٧) .
ثم حكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملته ، وما دار بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى - :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْمَا أَأَنْتُمْ مَلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان ميين .
قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ﴿ اتتوني ﴾ أيها الملا ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ أى : بكل ساحر من أفراد مملكتي تكون عنده المهارة التامة في فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

وقوله : ﴿ فلما جاء السحرة ... ﴾ معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير ، فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا في إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخيروه بقوله ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .
﴿ قال لهم موسى ﴾ على سبيل التحدى ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ من ألوان سحرهم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقى وباطلكم .
﴿ فلما ألقوا ﴾ أى : فلما ألقى السحرة حياتهم وعصبيهم .
﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ على سبيل السخرية بما صنعوه .

﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أي : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذي جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذي جئت به أنا مما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبین .

وإن الذي جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرني الله به - سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح . وقوله : ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ تأكيد لسنة الله - تعالى - في تنازع الحق والباطل ، والصلاح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ، بل يحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبتة ويقويه ويؤيده ﴿ بكلماته ﴾ النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لا تعطل مشيئة الله ، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ﴿ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾^(١) .

ثم انتقلت السورة الكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين قومه بنى إسرائيل ، إثر الحديث عن جانب مما دار بينه وبين فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :

فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَىٰ إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَالِيَ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامِنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا

بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
 أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بَمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قال الجمل : « قوله - سبحانه - ﴿ فإما آمن لموسى إلا ذرية من قومه .. ﴾ . لما ذكر الله - تعالى - ما أتى به موسى - عليه السلام - من المعجزات العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه - أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلياً لنبيه محمد - ﷺ - لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات ، كان أمراً عظيماً . ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه » (١) .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدل عليه السياق ، والتقدير : لقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعجزات التي تشهد بصدقه ، والتي على رأسها ، أن ألقى عصاه فإذا هي تبتلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين الدالة على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه .

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان أبائهم وأغنياؤهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ أى : إلا أولاد بعض بنى إسرائيل حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وأجابته طائفة من شبابهم فالمراد من الذرية : الشبان لا الأطفال (٢) .

والضمير في قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون المعنى : فما آمن لموسى - عليه السلام - في دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون في مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٤٨

العذاب ، أما آبائهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا في عطائه ، وخوفا من بطشه بهم .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير في قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود إلى فرعون لا إلى موسى .

فيكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون .

قال ابن كثير ما ملخصه مرجحا هذا الرأي : « يخبر الله - تعالى - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملته .

قال العوفي عن ابن عباس : « إن الذرية التي آمنت لموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه » .

ثم قال : واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية ، أنها من بني إسرائيل ، لا من قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .

وفي هذا نظر ، لأن من المعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به .

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ؟ ^(١) .
والذى نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء في إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .

ولأنه لا دليل على أن بني إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ومنهم من كفر به ، كقارون والسامري وغيرهما .

ولأن رجوع الضمير إلى موسى - عليه السلام - هو الظاهر المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذكور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر .

ورحم الله ابن جرير فقد قال في ترجيحه لما ذهب إليه من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ماملخصه :

وأولى هذه الأقوال عندى بتأويل الآية ، القول الذى ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية في

هذا الموضع ، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء في قوله ﴿ من قومه ﴾ من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعده ذكره منها .

ولأن في قوله ﴿ على خوف من فرعون وملثهم ﴾ الدليل الواضح على أن الهاء في قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون .. »^(١) .

وقوله : ﴿ على خوف من فرعون وملثهم أن يفتنهم ... ﴾ حال من كلمة ﴿ ذرية ﴾ ، و ﴿ على ﴾ هنا بمعنى مع . والضمير في قوله ﴿ ملثهم ﴾ يعود إلى ملائكة الذرية ، وهم كبار بني إسرائيل الذين لا ذوا بفرعون طمعا في عطائه أو خوفا من عقابه ولم يتبعوا موسى - عليه السلام - .

والمعنى : فما آمن لموسى الا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن أشرف قومهم أن يفتنهم عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى - عليه السلام - .

والضمير في ﴿ يفتنهم ﴾ يعود إلى فرعون خاصة ، لأنه هو الأمر بالتعذيب ولأن الملائكة كانوا يأترون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كالألة في يده يصرفها كيف يشاء .
وجملة ﴿ أن يفتنهم ﴾ في تأويل مصدر ، بدل اشتغال من فرعون ، أى : على خوف من فرعون فتنته .

وقوله : ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون المتكبر متجبر في أرض مصر كلها ، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد في الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون في مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتقاد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ .

أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٠٤ طبعة دار المعرفة - بيروت .

اعتمدوا ، وبجنايه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأيدته .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : ﴿ فقالوا ﴾ أى مجيبين لنصيحة نبيهم ﴿ على الله ﴾ وحده لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه . ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أى ياربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمكنهم منا فيسومونا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - فى زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباحة بينهم وبين الظالمين فقالوا ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجينا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

قال الإمام الشوكاني : « وفى هذا الدعاء الذى تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم » (١) .

وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة .. ﴾ .

وقوله ﴿ تبوأ ﴾ من التبؤ وهو اتخاذ المباءة أى المنزل ، كالتوطن بمعنى اتخاذ الوطن . يقال بواته وبوات له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهيأته له .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذوا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أى : واجعلوا هذه البيوت التى حلتمت بها مكانا لصلاتكم وعباداتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

(١) تفسير (فتح القدير) للإمام الشوكاني ج ٢ ص ٤٦٦ .

قال القرطبي : « المراد صلوا في بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافهم فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء ، إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله وأصبروا ﴾ وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ماداموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم ... »^(١)

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى : داوموا عليها ، وأدوها في أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن في أدائها بهذه الصورة . وسيلة إلى تفريج الكرب ، وفي الحديث الشريف : « كان رسول الله - ﷺ - إذا حز به أمر صلى » .

وقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ تذييل قصد به بعث الأمل في نفوسهم متى أدوا ماكلفوا به .
أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح في الدنيا ، وبالثواب الجزيل في الآخرة .
قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف نوع الخطاب فثنى أولا ، ثم جمع ، ثم وحد آخرًا ؟

قلت : خوطب موسى وهارون - عليه السلام - أن يتبوأ لقومها بيوتا ويختارها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عاما لها ولقومها باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التي هي الغرض تعظيما لها ، وللمبشر بها »^(٢) .

ولأن بشارة الأمة - كما يقول الألوسي - وظيفة صاحب الشريعة ، وهى من الأعظم أسرها وأوقع في النفس^(٣) .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخاصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن يشس من إيمان فرعون وملته فقال - سبحانه - :

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٧١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٣) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٥٢ .

وَقَالَ مُوسَى

رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ

وَأَسَدِّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأواني الطعام والشراب ، ووسائل الركوب .. وغير ذلك مما يستعمله الإنسان في زينته ورفاهيته .

والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يمتلكه الإنسان .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطباً ربه ، بعد أن فقد الأمل في إصلاح فرعون وملته : ياربنا إنك أعطيت فرعون وأشرف قومه وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال في هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ؛ قد يضعف الإيمان في بعض النفوس ، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذي يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام في قوله ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ لام العاقبة والضرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

قال القرطبي : « اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قبل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والضرورة ، وفي الخبر : « إن لله - تعالى - ملكا ينادى كل يوم :

لدوا للموت وابنو للخراب « أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال ، صار كأنه أعطاهم ليضلوا »^(١) .

وقال صاحب المنار : « قوله : ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أى : لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطفیان على الناس ، وكثرة الأموال تمكثهم من ذلك ، وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى ﴾ . فاللام في قوله ﴿ ليضلوا ﴾ تسمى لام العاقبة والصوررة ، وهى الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها ، يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذى تتعلق به كقوله - تعالى - ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ... ﴾^(٢) .

ومنهم من يرى أن هذه اللام للتعليل ، والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى : وقال موسى مخاطباً ربه : ياربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغياناً على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وشبيهه بهذه الجملة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾^(٣) .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال : « والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كى ، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه . ﴾^(٤) .

ومنهم من يرى أن هذه اللام هى لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية فيكون المعنى :

وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا : اللهم ياربنا زدهم ضلالاً على ضلالهم .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٤٧٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٤) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٠٨ .

وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف . فقد قال ما ملخصه : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ ؟

قلت : هو دعاء بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح والمواعظ زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأنذرهم سوء عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورأهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق له مطمع فيهم . وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحي من الله ، أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال .

لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم .

فكأنه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال .. »^(١) .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، لكل واحد منها اتجاهه في التعبير عن ضيق موسى - عليه السلام - لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ، ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والبطر .

وإن كان الرأى الأول هو أظهرها في الدلالة على ذلك ، وأقربها إلى سياق الآية الكريمة . قال الشوكاني : « قرأ الكوفيون ﴿ ليضلوا ﴾ بضم الياء . أى : ليوقعوا الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح أى يضلون في أنفسهم »^(٢) .

وقوله : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم . فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ دعا عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال . والطمس : الإهلاك والإتلاف ومحو أثر الشيء يقال : طمس الشيء ويطمس طموسا إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته .

والشد : الربط والطمع على الشيء ، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج منه .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك آتيت فرعون وملاءه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير ، للإمام الشوكاني ج ٢ ص ٤٧٠ .

يا ربنا اطمس على أموالهم بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك في الإفساد والأذى .

﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذي لا ينفع عند إتيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبة ، لأنها حدثا في غير وقتها .

قال الجمل : « وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيتها موسى - عليه السلام -^(١) .

وقال الإمام ابن كثير : « وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه . الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .. ﴾ ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .. »^(٢) .

فقال : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .
أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجيبت دعوتكما في شأن فرعون وملئه ﴿ فاستقيما ﴾ على أمرى ، وامضيا في دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان بى والطاعة لأمرى .

﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ ما جرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء . هذا ، ومن الحكم والعظات التي نأخذها من هاتين الآيتين الكريميتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدي المصريين على جحودهم وفسوقهم وبطرحهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا في إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم . وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٥ .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون في هذه السورة الكريمة
ببيان سنة من سنته التي لا تتخلف ، وهي حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين فقال -
تعالى - :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ ءِلَآءِ اللَّهِ ءِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَءَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ءَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَبَدَّنِكَ لِيَكُونَ لِمَنْ
خَلَفَكَ ءَأَيَةٌ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا يَأْتِيْنَا الْغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله - سبحانه - ﴿ وجاوزنا ﴾ هو من جاوز المكان ، إذا قطعه وتخطاه وخلفه وراء
ظهره وهو متعد بالباء إلى المفعول الأول الذي كان فاعلا في الأصل ، وإلى الثاني بنفسه .
والمراد بالبحر هنا : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر . وقوله ﴿ بغيا ﴾
وعدوا ﴿ أى ظلما واعتداء . يقال : بغى فلان على فلان بغيا ، إذا تطاول عليه وظلمه .
ويقال : عدا عليه عدواً وعدوانا إذا سلبه حقه .

وهما مصدران منصوبان على الحالية بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين وعادين . أو على
المفعولية لأجله أى : من أجل البغي والعدوان .

والمعنى : وجاوزنا بني إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناهم لهم طريقا

بيسا ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

قال الآلوسى : « وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى وهارون - عليهما السلام - بإجابته دعوتها ، أمرها بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا ، فخرجوا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى وراءهم ، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده وراءنا . وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ، فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبط طريق فسلكوا ، ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وبنو إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلهكم باق على حاله ، فسلكه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ، انطبق عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم » (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ .

أى : لقد اتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعين الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت . بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - ﴿ الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ﴾ .

أى : الآن تدعى الإيمان حين يثست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - والظرف « الآن » متعلق بمحذوف متأخر ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ والإنكار .

وقوله : ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ جملة حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى : الآن تدعى

الإيمان والحال أنك عصيت قبل وكنت من المفسدين .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا الذى حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك . من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله .

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لما قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طيناً أسود من طين البحر - فدمستته فى فمه مخافة أن تتاله الرحمة » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث ، حماد بن سلمة وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى « (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية .. ﴾ تهكم به ، وتخيب لآماله ، وقطع لداير أطماعه، والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإنما اليوم بعد أن حل بك الموت ، تلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

قال الإمام الشوكانى : « قوله ﴿ فالיום ننجيك بيدك .. ﴾ قرئ ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل .

أى : نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك ان بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه .

ومعنى ﴿ بيدك ﴾ بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل معناه بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٧ ، طبعة دار الشعب .

أراد بالأبدان الدروع^(١) - وباليلب - يفتح الياء واللام - الدروع اليمانية كانت تتخذ من الجلود .

وقوله : ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، ويمظاهر قدرته .
 أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء . كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي - ﷺ - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي - ﷺ - لأصحابه : أتتم أحق بموسى منهم فصوموه^(٢) .
 ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبعأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ .
 وقوله : ﴿ بوأنا ﴾ أى : أنزلنا وأسكننا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباءة أى : المنزل والمسكن .

وفى إضافة المبعأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحليا بكارم الأخلاق .

قال الآلوسى : « والمراد بهذا المبعأ ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك : الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا فى زمان موسى - عليه السلام - وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حسبها ذهب إليه جمع من الفضلاء^(٣) .

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ، واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

وينبغى أن يراد ببني إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم بناء على أنهم ما دخلوا الشام فى حياة موسى - عليه السلام - إنما دخلها أبناؤهم - بقيادة يوشع بن نون . وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وببنى إسرائيل : الذين كانوا على عهد نبينا محمد - ﷺ - .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٦٧ .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٩ .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان ، والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التي أحللتناها لهم .

وقوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وان لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة .

فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطابا إلى النبي - ﷺ - تثبيتا لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال - تعالى - :

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
فَسْأَلِ الَّذِينَ يَاقُرْءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَ تَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾

والمراد ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ هنا : ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله - تعالى - ورسوله .

قال الآلوسى : « وخصت القصص بالذكر ، لأن الأحكام المنزلة عليه - ﷺ - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها »^(١) .
والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - في شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرها ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ماقصناه عليك ثابت في كتبهم .

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - ﷺ - وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت .

قال ابن كثير : « قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصرى ، وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم بأن صفة نبيهم - ﷺ - موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .. ﴾^(٢) .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - في شأن عيسى - عليه السلام - : ﴿ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته .. ﴾ .

فعيسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما يفرض قوله فرضا . ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .

أى : إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك . قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك .. ﴾ ؟

قلت : هو على سبيل الفرض والتمثيل . كأنه قيل : فإن وقع لك شك - مثلا - وخيل

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ .

لك الشيطان خيالا منه تقديرا ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب ﴾ .

والمعنى : أن الله - عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - ﷺ - مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - ﷺ - ويبالغ في ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا . فسل علماء أهل الكتاب يعنى أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأخبار بالسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله - ﷺ - لا وصفه بالشك فيه .

ويجوز أن يكون على طريق التهيج والإلهاب كقوله ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين .. ﴾ ولذلك قال - ﷺ - عند نزوله : « لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق » .

وقيل : خوطب رسول الله - ﷺ - والمراد خطاب أمته .

ومعناه : « فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم .. »^(١) .

وقوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ كلام مستأنف مؤكد لاجتثاث إرادة الشك .

والتقدير : أقسم لقد جاءك الحق الذى لا لبس فيه من ربك لا من غيره ، فلا تكونن من الشاكين المترددين في صحة ذلك .

وقوله : ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴾ تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين له - ﷺ - من قومه . أى : ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأخراهم .

قال الآلوسى : « وفائدة النهى في الموضوعين التهيج والإلهاب نظير مامر . والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية إلى حيث ينبغى أن ينهى عنها من لا يمكن أن يتصف بها ، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك .. »^(٢) .

وقوله : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٦٨ .

العذاب الأليم ﴿ توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق .
والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضاؤه الذى لا يرد ، وسنته التى لا تتغير ولا تبدل
فى الهداية والإضلال .

والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول - ﷺ - .
أى : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا العمى على
الهدى - لا يؤمنون بالحق الذى جئت به - أيها الرسول الكريم .. مهما سفت لهم من
معجزات وبراهين دالة على صدقك ..
ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل
جانب .

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلم يك
ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .. ﴾ (١١) .

وسيكون حالهم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الفرق قال آمنت .
وبذلك ترى الآيات الكريمة قد نهت عن الشك والافتراء فى شأن الحق الذى جاء به
الرسول - ﷺ - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، كما بينت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى
أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فتكون نهايته
إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبيئات الدالة على طريق الحق .

ثم فتحت السورة الكريمة للمكذبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم يونس - عليه
السلام - الذين نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله التامة ، وقدرته
النافذة ، ودعتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بما اشتمل عليه هذا الكون .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ

جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠١﴾
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٣﴾

قال القرطبي ما ملخصه : « روى في قصة يونس - عليه السلام - عن جماعة من
المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنيتوى من أرض الموصل - بالعراق - وكانوا يعبدون
الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه
أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم. فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصحبهم إلى ثلاث
أفعل . وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن
ارتحل عنكم ، فهو نزول العذاب لاشك ...

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأصبحوا فلم يجده ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله
ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم ..

قال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا
العذاب لما نفعهم الإيمان «^(١) .

وكلمة ﴿ لولا ﴾ في قوله - سبحانه - ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ... ﴾ للحث
والتحضيض ، فهي بمعنى هلا .

والمقصود بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان . وقوله ﴿ آمنت ﴾ خبرها . وقوله ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ معطوف على ﴿ آمنت ﴾ .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فأمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستتصال الذى حل بهم فقطع دابرهم ، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارات العذاب الذى أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، وامتعمهم بالحياة المقدره لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : ﴿ إلا قوم يونس .. ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرية لأن المراد أهلها .

والمعنى : فهلا قرية واحدة من القرى التى أهلكتناها آمنت إيماننا معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، لكن قوم يونس « لما آمنوا » إيماننا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم « كشفنا عنهم عذاب الخزى » أى : الذل والهوان .

وقيل يجوز أن يكون متصلا ، والجمله فى معنى النفى ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ..^(١) .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رؤوسهم .. ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة ... وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يرميهم معه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد »^(٢) . وفى الآية الكريمة - أيضا - تسليية الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب إعراض

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٣٤٠٠ .

قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية لرسوله - ﷺ - تسلية أخرى فقال : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ... ﴾ ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - يا محمد - إيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التي عليها أساس التكوين والتشريع ، والإثابة والمعاقبة ، فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .

والهمزة في قوله - سبحانه - ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ للاستفهام الإنكارى، والفاء للتفريع .

والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .

والمعنى : تلك هي مشيئتنا لو أردنا إنقاذها لنفذناها ، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد في وسعك أن تكره الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان ؟ .

لا ، ليس ذلك في وسعك ولا في وسع الخلق جميعا ، بل الذى في وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه .

وفي هذه الجملة الكريمة تسلية أخرى للرسول - ﷺ - ودفع لما يضيق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ... ﴾ تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ، أن تؤمن في حال من الأحوال ، إلا بإذن الله « أى : إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته .

وقوله : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ . معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد ، والرجس : يطلق على الشيء القبيح المستقدر .

والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان ، ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيها يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشور .

ولما كان التأمل في ملكوت السموات والأرض ، يعين على التفكير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شمس وأقمار ، وكواكب ونجوم ، وسحاب وأمطار ... وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ، ومن حيوانات ودواب متنوعة .

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكير يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً عليماً قديراً ، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .
وقوله : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ توبيخ للغافلين عن النظر السليم الذى يؤدي إلى الهداية .

و ﴿ ما ﴾ نافية ، والمراد بالآيات : ما أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك بقوله : ﴿ ماذا في السموات والأرض ﴾ والنذر : جمع نذير ، وهو من يخبر غيره بأمر مخوف حتى يحذره .
والمعنى : انظروا وتفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من آيات بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته ..

ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئاً ، بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصرروا على الجحود والعناد .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى وأى شيء تجدى الآيات السواوية والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم جاحدين معاندين ، قد استحسبوا الكفر على الإيمان ؟ .

ثم ساق - سبحانه - للمكذابين برسوله - ﷺ - تهديداً يخلع قلوبهم فقال : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ .

قال القرطبي : « الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب أياماً والنعم أياماً ، كقوله - تعالى - ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام »^(١) .

والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لدعوتك ، إلا العذاب الذى نزل بالمكذابين لدعوة الرسل من قبلك ؟ فالاستفهام للتهكم والتقرير .

وقوله : ﴿ قل فانظروا إلى معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى - لنيبه - ﷺ بأن يستمر في تهديدهم ووعيدهم .

أى : قل - يا محمد - هؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذاً فانظروا العذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، إلى معكم من المنتظرين لوعد ربى لى ، ولوعيده لكم . ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سنته التى لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ .

والجملة الكريمة عطف على محذوف ، والتقدير : تلك سنتنا فى خلقنا نهلك الأمم المكذبة ﴿ ثم ننجى رسلنا ﴾ الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وننجى - أيضا - الذين آمنوا برسولنا وصدقوهم وقوله ﴿ كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ الكاف فى ﴿ كذلك ﴾ بمعنى : مثل ، وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإتياء الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ ﴿ حقا ﴾ منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإتياء الذى تكفلنا به لرسلنا ولمن آمن بهم ، ننج المؤمنين بك - أيها الرسول الكريم - ، ونعذب المصرين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا منا وكرما .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلا ﴾^(١) وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضرت الضالين على الاقتداء بقوم يونس - عليه السلام - لكى ينجوا من العذاب ، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته ، ودعتهم إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية فى إنجاء المؤمنين ، وفى إهلاك المكذبين . وبعد هذا الحديث المتنوع الذى زخرت به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول - ﷺ ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن يوم القيامة وأهوالها ...

بعد كل ذلك وجهت فى ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيها بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبالاعتقاد عليه وحده ، وبتركية نفوسهم ...

استمع إلى السورة الكريمة في ختامها وهي تقول :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمَسُّسُكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمُ
الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

والمعنى : ﴿ قل ﴾ أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب في دينك .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ﴾ الذي جنتكم به من عند الله - تعالى - ،
وترغبون في تحويلي عنه ، فاعلموا أني بريء من شككم ومن أديانكم التي أنتم عليها .
ومادام الأمر كذلك ، فأنا « لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » من آلهة باطلة في حال من
الأحوال .

﴿ ولكن أعبد الله ﴾ - تعالى - الذي خلقكم و ﴿ الذي يتوفاكم ﴾ عند انقضاء
أجالكم ، ويعاقبكم على كفركم .

وقوله ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ تأكيد لإخلاص عبادته - ﷻ - لله وحده .

أى : وأمرت من قبل خالقي - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين بأنه لا معبود بحق سواه .

وأثر الخطاب باسم الجنس « الناس » مع تصديره بحرف التنبيه ، تعميما للخطاب ، وإظهارا لكبال العناية بشأن المبلغ إليهم .

وعبر عن شكهم « بأن » المفيدة ؛ لعدم اليقين ، مع أنهم قد شكوا فعلا في صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به ، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها .
وقدم - سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، إيدانا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخلية على التحلية .

وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والترهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة فى القلوب .

وقوله : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ... ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أن أكون من المؤمنين ﴾ .

و ﴿ حنيفا ﴾ حال من الدين أو من الوجه ، والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

وخص الوجه بالذكر ، لأنه أشرف الأعضاء .

والمعنى : أن الله - سبحانه - أمره بالاستقامة فى الدين . والثبات عليه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال .

قال الآلوسى : « إقامة الوجه للدين ، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات .

أى : اصرف ذاتك و كليتك للدين .. »^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . وهو معطوف على ﴿ أقم ﴾ .

أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تأكيدا آخر فقال : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ .

أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات ﴿ مالا ينفعك ﴾ إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ ولا يضرك ﴾ إذا تركته وأهملته .

﴿ فإن فعلت ﴾ شيئا مما نهيناك عنه ﴿ فإنك إذا ﴾ تكون ﴿ من الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك ، لإشراكها مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

ثم بين - سبحانه - أنه وحده هو الضار والنافع فقال : ﴿ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ .

« المس » : أعم من اللمس فى الاستعمال ، يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب ، أى : أصابه ذلك ونزل به .

والضر : اسم للألم والحزن وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلية .

والمعنى : ﴿ وإن يمسك الله بضر ﴾ كمرض وتعب وحزن ، فلا كاشف له ، أى : لهذا الضر ﴿ إلا هو ﴾ - سبحانه - .

﴿ وإن يردك بخير ﴾ كمنحة وغنى وقوة ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أى : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك .

وعبر - سبحانه - بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .

وقوله ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ أى : يصيب بذلك الفضل والخير ﴿ من يشاء ﴾ إصابته ﴿ من عباده ﴾ .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أى : وهو الكثير المغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة .

وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ،

وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴿١﴾ .

وقال ابن كثير : « وروى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن الله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، وأسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » ﴿٢﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببناء آخر - أمر رسوله - ﷺ - أن يوجهه للناس فقال : ﴿ قل يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ... ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع نداءك أو من سيبلغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ ﴾ المتمثل في كتاب الله وفي ستنى ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وليس من أحد سواه .

﴿ فَمَنْ اهْتَدَى ﴾ إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ أى : فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .

﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ عن هذا الحق وأعرض عنه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أى : ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ - أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك ﴿ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ من ربك من تشريعات حكيمة ، وآداب قوية ..

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ على مشاق الدعوة وتكاليفها ..

﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ بينك وبين قومك ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ . لأنه هو العليم بالظواهر والبواطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه .

وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته ..

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٤ .

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضاً - على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ،
وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه .

وكيف أنها ساقَت الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، مما يرقق
القلوب القاسية ، ويبعث في النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد ،
وكيف أنها ساقَت جانباً من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التي لا
تتخلف ، وهي نجاته رسل الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .

وكيف أنها بينت أحوال الناس في السراء والضراء ... بيانا صادقا قويا مؤثراً ، من شأنه أن
يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلى عن الأخلاق الذميمة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين .

المدينة المنورة السبت ٧ من المحرم سنة ١٤٠١

الموافق ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م

تفسير

سُورَةُ هُودٍ

عليه السلام



تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ - سورة هود - عليه السلام - هي السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف « فقد سبقتها في هذا الترتيب سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس .

أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة يونس .
٢ - وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ - وقد سهاها النبي - ﷺ - بسورة هود ، فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ! قال : « شيبتي » « هود » و « الواقعة » ، و « المرسلات » و « عم يتساءلون » و « إذا الشمس كورت » .
وفي رواية : شيبتي هود وأخواتها .

قال القرطبي بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة . ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس . وتشيب منه الرؤوس «^(١)» .

٤ - متى نزلت سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هي مكية إلا ثلاث آيات منها : وهي قوله - تعالى - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك ... ﴾ الآية ١٢ .
وقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ الآية ١٧ .
وقوله - تعالى - : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ﴾ الآية ١١٤ .
والذي نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات التي قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .

كذلك نرجح أن هذه السورة الكريمة ، كان نزولها في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، وذلك لأن نزولها - كما سبق أن أشرنا - كان بعد سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التي افتتحت بالحديث عنه .

وهذه الفترة التي كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتي أعقبته ، تعتبر من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها في تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى هذه الفترة مات أبو طالب عم النبي - ﷺ - والمدافع عنه ، وماتت كذلك السيدة خديجة - رضى الله عنها - التي كانت نعم المواسى له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول - ﷺ - بموتها نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتها العظيمة فى نفسه ، وتعرض - ﷺ - فى هذه الفترة لألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها وبلغت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقسى وأقصى مداها ..

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتباعت على رسول الله - ﷺ - المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وهلك عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرًا على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - ﷺ - ذلك التراب دخل رسول الله - ﷺ - بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ، ورسول الله - ﷺ - يقول لها : « لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك » ..

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب » (١) .
وسنرى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكمل تصوير .

٥ - مناسبتها لسورة يونس - عليه السلام - :

قال الآلوسى - رحمه الله - : ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر فى سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جدًا ومجملة ، فشرحت فى هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط فى غيرها من السور .. ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله - تعالى - هنا ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ... ﴾ نظير قوله - سبحانه - هناك ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم ... ﴾ بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضًا - ، حيث ختمت بنفى الشرك ، واتباع الوحى ، وافتتحت هذه ببيان الوحى والتحذير من الشرك (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .

٦ - عرض إجمالي للسورة الكريمة :

عندما نطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها في الربع الأول^(١) منها - قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة ، حتى ينالوا السعادة في دنياهم وآخرتهم .

قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾ .

ثم وضحت السورة جانباً من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التى تدل على جهالاتهم بعلم الله التام ، ويقدرته النافذة ، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمول هذا العلم ..

قال - تعالى - : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ثم بينت أحوال الإنسان في حالة منحه النعمة ، وفي حالة سلبها عنه ، وسأقت للرسول - ﷺ - من الآيات ما يسليه عما أصابه من كفار مكة ، وتحدثهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم ، وأنذرتهم بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل المناسب لكل من فريقى الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ... ﴾ .

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ، أفلا تذكرون ﴾ .

فإذا ما وصلنا إلى الربع^(٢) الثانى من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ،

(١) الآيات من ١ - ٢٤ .

(٢) الآيات من ٢٥ - ٤٠ .

قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى أمره لهم بعبادة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعمائهم ، وكيف أنه - عليه السلام - لم يقابل سفاهتهم بمثلهما ، بل خاطبهم بلفظ « يا قوم » الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤله ما يؤلهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ... ﴾ .

فكان رده عليهم ﴿ إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ... ﴾ .
وقد أتاهم الله - تعالى - بالعذاب الذى استعجلوه فأغرقهم بالطوفان الذى غشيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع^(١) الثالث ، تقص علينا مشهداً مؤثراً ، مشهد نوح - عليه السلام - وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : ﴿ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

ولكن الابن العاق لا يستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له : ﴿ سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ .

ويجيبه الأب بحزن وحسم ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينها الموج فكان من المفرقين ﴾ .

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

ويأتيه الجواب من الله - تعالى - : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

ويلجأ نوح - عليه السلام - إلى خالقه ، مستعيذاً به من غضبه فيقول : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

فيقبل الله - تعالى - ضراعتة فيقول : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سمنتهم ثم يسهم منا عذاب أليم ﴾ .

ثم يختم الله - تعالى - قصة نوح ، بتسليية النبى - ﷺ - ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته إياهم بأنه لا يريد منهم أجراً على دعوته ؛ وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ؛ وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالتكذيب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكى السورة عنهم - ﴿ يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ .

فيرد عليهم هود بقوله : ﴿ إني أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ... ﴾ .

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات والمجادلات أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ...

وفى الربع^(١) الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، ما دار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على الناقة التى هى لهم آية .. ولكنهم استخفوا بتذكيره وبتحذيره فكانت النتيجة إهلاكهم ...

قال - تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خذى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يكن فىها ، ألا إن ثمود كفروا بهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ، ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ... ﴾ .

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ؛ وحكت ما دار بينه وبين قومه الذين جاءوه يهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ﴾ .

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : ﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضعفه أمام هؤلاء المنحرفين المندفعين إلى

ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال بأسى وحزن : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو أوى إلى ركن شديد ﴾ .

وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن يغادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد وقت قصير .

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

ثم تتابع السورة الكريمة فى الربع الخامس^(١) ، حديثها عن جانب من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول لقومه ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

ثم نهاهم بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التى كانت منتشرة فيهم ، وهى إنقاص الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ...

ولكنهم - كعادة السفهاء الطغاة - قابلوا نصائحه بالتهكم والاستخفاف والوعيد ... فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذى أهلكتهم ، كما أهلكت أمثالهم .

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانباً من قصة موسى مع فرعون وملئه ، الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتعقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... قال - تعالى - : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب ... ﴾ .

أما فى الربع السادس^(٢) والأخير منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون

(٢) الآيات ص ١٠٨ إلى آخر السورة .

(١) الآيات من ٨٤ - ١٠٧ .

يوم القيامة ، منهم الشقى ومنهم السعيد ، وأنه - سبحانه - سيوفى كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى ما يوصل إلى السعادة ، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله ، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، وإلى الصبر الجميل . قال - تعالى - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبي - ﷺ - وتقوية قلبه ، وتسليته عما أصابه ، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال - تعالى - : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

٧ - أهم الموضوعات التي عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استعراضنا لسورة هود ، ومن معرفة الفترة التي نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتي :

(١) ترغيب الناس في طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه في كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ... ﴾ .

(ب) تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن

السورة الكريمة قد اشتملت في معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحي متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ...

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التي اتبعتها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفي ذلك ما فيه من التسلية للرسول الكريم - ﷺ - عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه .

وكان ما ورد في هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول - ﷺ - : إن ما أصابك من قومك يا محمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

(ج) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر ..

فقد تحداهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، ثم تحداهم في موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم - على لسان الرسول - ﷺ - الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أقوامهم مع أن الرسول - ﷺ - لم يكن معاصرا لهؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئاً لأخبارهم فدل ذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

(د) بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف ، وهي أنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً ؛ ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التي هي جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه في مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - في ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ، لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيي . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ .

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن نذكرها قبل البدء في تفسيرها ، وأرجو أن يكون في ذكرها ما يعطى القارئ صورة واضحة عن هذه السورة الكريمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة في ٢١ من صفر سنة ١٤٠١ هـ

محمد سيد طنطاوى

٢٨ / ١٢ / ١٩٨٠ م

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
 كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
 يَنْتَوْنُ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
 يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

سورة هود - عليه السلام - من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور . ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تتظمن منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند

الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة .

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

وقوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل في اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شيء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أتقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق : ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .

وقوله : ﴿ ثم فصلت ﴾ من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بياتها ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقاننا معجزا ، بحيث لا يتطرق إليها خلل فساد . ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلا حكيبا ، بأن أنزلها نجوما ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : ﴿ أحكمت آياته ﴾ أى : نظمت نظما رصينا محكما ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف .. وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجحاح ، قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا

﴿ ثم فصلت ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ^(١) .

و ﴿ ثم ﴾ في قوله - سبحانه - « ثم فصلت » للتراخي في الرتبة كما هو شأنها في عطف الجمل ، لما في التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن العقول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز .

وجملة ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من

حيث مصدره ، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أى : هذا الكتاب الذى أتقنت آياته إتقاناً بديعاً ، وفصلت تفصيلاً رصيناً ، ليس هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخالق الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها .

قال الشوكانى : وفى قوله ﴿ من لدن حكيم خير ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خير ، عالم بمواقع الأمور ^(١) .

وقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ جملة تعليلية ، أى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خير ، لكى تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتركوا عبادة غيره ؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وقوله : ﴿ إنى لكم منه نذير وبشير ﴾ بيان لوظيفه الرسول - ﷺ - .

والضمير المجرور فى « منه » يعود على الله - تعالى - .

أى : عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه - سبحانه - قد أرسلنى إليكم لكى أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة ، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

قال بعضهم : « والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى » ^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله .. ﴾ .

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .

والتوبة : الإقلاع عن كل ما نهى الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١١ ص ٣١٥ .

وَيَتَعَمَّكُم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك أى : أطال لنا بقاءك .

والآية الكريمة معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ . والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن نبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديبوا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ يَتَعَمَّكُم ﴾ الله - تعالى - ﴿ متاعا حسنا ﴾ بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة . قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا . وقوله : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ أى : ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثانى الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالجمله الكريمة ، وعد كريم عن الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا . وجمله ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ معطوفة على استغفروا . و ﴿ ثم ﴾ هنا على بابها من التراخى ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التى لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التى تقلق الإنسان فى دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره - سبحانه - على هذه النعم .

قال - تعالى - ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنجيئنه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : ﴿ وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ .

أى : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن فى إخلاصهم العبادة لله ، وفى طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والأخروية ، وفى إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أى : إن تولوا - أيها الناس - عن الحق الذى جئتكم به ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هولاه ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا . فتنكير ﴿ يوم ﴾ للتحويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث

إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أزر لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفي وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - في تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقنعوا عن غيهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به نبيهم - ﷺ - .

والمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع الذى لا انفكاك لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .
أى : إلى الله - تعالى - وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل .

وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله العبادة ، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من جهالات المنحرفين عن الحق ، ومن أوهامهم الباطلة ، فقال - تعالى - :

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليهم بذات الصدور ﴾ .

وقوله : ﴿ يثنون ﴾ من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .

وثنى الصدور : إمالتها وطأطأتها وحنيتها بحيث تكون القامة غير مستقيمة . والاستخفاء : محاولة الاختفاء عن الأعين ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم .. ﴾^(١) .

وقوله : ﴿ يستغشون ثيابهم .. ﴾ أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما في قوله - تعالى - ﴿ واستغشوا ثيابهم ... ﴾ أى : جعلوها كالغشاء عليهم .

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنه كان الرجل من الكفار

يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويخفي ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله ما في قلبي فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت في المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى - ﷺ - نثى صدره . وتغشى بثوبه لتلا يراه .

وقيل : نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - ﷺ - المحبة ، ويضمر في قلبه ما يضادها .. «^(١)» .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديعا جهالات بعض الضالين يعلم الله - تعالى - المحيط بكل شيء ، كما تصور تصويرا دقيقا أوضاعهم الحسية حين يأوون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبى - ﷺ - .

والضمير المجرور في قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذى جاءهم به نبيهم - ﷺ - توها منهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ - وعليه يكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء النبى - ﷺ - ويطأطئون رءوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحر بيانه .

ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يؤيد عودة الضمير إليه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

وافتححت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجيء به مرة أخرى في قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم .. ﴾ للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطاس بصيرة .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور ﴾ .

أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بثيابهم ، يعلم

الله - تعالى - ما يسرونه في قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بما تضرره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى في سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخارى من حديث ابن جريج .

وفي لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم .. « (١) » .

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت في شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقة للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجعلوا صفات الله - تعالى - .

قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتزليل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة في حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله وينم بمقتضى سياق الآية « (٢) » .

وإذا فالذى يستدعيه السياق ويقضيه ربط الآيات ، كون الآية في ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول علمه فقال - تعالى - :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٨٠ .

عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : الدابة اسم لكل حيوان ذى روح ، ذكرها كان أو أنثى . عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو فى الأصل المشى الخفيف .. واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين ... » (١) .

قال - تعالى - ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير ﴾ (٢) .

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذى به قوام حياتها .

والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ﴿ على الله ﴾ على متعلقه وهو ﴿ رزقها ﴾ لإفادة القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة من أجل الحصول على ما يغنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٣) .

وجملة ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء فى هذا الكون .

(٣) سورة الملك الآية ١٥ .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢ .

(٢) سورة النور الآية ٤٥ .

والمستقر والمستودع : اسما مكان لمحل الاستقرار والإيداع للدابة في هذا الكون ، سواء أكان ذلك في الأصلاب أم في الأرحام أم في القبور أم في غيرها .
قال الشوكاني : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ قال : حيث تأوى . ومستودعها قال : حيث تموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذى ذهب اليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الشعب عن ابن مسعود عن النبي ﷺ - قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتاحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعنى^(١) .

وقوله : ﴿ كل في كتاب مبين ﴾ تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطة بكل شيء .

والتنوين في ﴿ كل ﴾ هو تنوين العوض ، أى : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل في كتاب مبين ، أى : في كتاب واضح جلى ظاهر في علم الله - سبحانه - ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قدرته فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ... ﴾ .

والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذى لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .
أى : وهو - سبحانه - الذى أنشأ السموات والأرض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، في ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .
وقيل : أنشأهن في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - : كان الله قادرا على خلق السموات والأرض وما بينهما في لحظة ، فخلقهن في ستة أيام ، تعليما لعباده الثبوت والتأني في الأمور .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤٨٤ .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض في يومين ، وخلق السموات في يومين وخلق ما بينهما في يومين ، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دَخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا ... ﴾^(١) .

وجملة ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ اعتراضية بين قوله ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وبين ﴿ ليليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التي لا يعلمها البشر إلا بالاسم . وقد جاء ذكر العرش في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة .

ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفيته فنفوض علمها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه قبل خلقها ليس تحته شيء سوى الماء .

قالوا : وفي ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود السموات والأرض . قال القرطبي : قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ بين - سبحانه - أن خلق العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء ...

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بن حصين قال كنت عند النبي - ﷺ - إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقالوا : جئنا لتتفقه في الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « إن الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء . ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء »^(٢) .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق

(١) سورة فصلت الآيات من ٩ - ١٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٨ .

السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .

وروى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر العقيلي قال : قلت يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك^(١) .

والعماء : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبرا له ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شيء آخر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ جملة تعليلية . ويبلوكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خلق ما خلق من السموات والأرض وما فيها من كائنات ، ورتب فيها جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليميز المحسن من المسىء ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهل من عقاب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت الى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو مقصود الله - تعالى - من عباده ، فخصهم بالذكر ، واطرح ذكر من وراءهم ، تشريفا لهم ، وتنبیها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفًا للسامعين ، وترغيبا في حيازة فضلهم^(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الكافرين من البعث والحساب فقال : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . أى ، ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم ﴿ إنكم مبعوثون ﴾ يوم القيامة ﴿ من بعد الموت ﴾ الذى سيدرككم فى هذه الدنيا عند نهاية آجالكم ﴿ ليقولن ﴾ لك هؤلاء الكافرون على سبيل الإنكار والتهمك ما هذا الذى تقوله يا محمد ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أى : إلا سحر واضح جلى ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ إلا ساحر مبين ﴾ فتكون الإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦٠ .

الرسول - ﷺ - أي : أنه في زعمهم يقول كلاما ليسحروهم به ، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس في حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَلَيْنَ آخِرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
 أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
 مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾
 وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
 لَيَكْفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ
 مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قال القرطبي ما ملخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة تكون الجماعة ، كقوله - تعالى - : ﴿ وجد عليه أمة من الناس ... ﴾ والأمة : أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة : الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به ، كقوله - تعالى - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ والأمة : الدين والملة ، كقوله - تعالى - ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ والأمة : الحين والزمان كقوله - تعالى - : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ والأمة : القامة وهو طول الانسان وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أى القامة ، والأمة : الرجل المنفرد يدينه وحده ، لا يشركه فيه أحد . قال - ﷺ - بيعت زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده « والأمة : الأم . يقال : « هذه أمة زيد ، أى أم زيد... »^(١) والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والملة .

والمعنى : ولئن آخرنَا - بفضلنا وكرمنا- عن هؤلاء المشركين « العذاب » المقضى

لجحودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا « إلى أمة معدودة » أى : إلى وقت معين من الزمان على حساب إرادتنا وحكمتنا : « ليقولن » على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « ما يحبسهم » أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد - ﷺ - محبوسا عنا ، وغير نازل بنا...

ولاشك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والظفیان ، حيث قابلوا رحمة الله - تعالى - المتمثلة هنا فى تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به وإعراضهم عن حذرهم منه .

واللام فى قوله ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب ﴾ مؤظفة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسهم » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكربين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

قال الآلوسى : والظاهر بأن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزل ﴿ اقرب للناس حسابهم ﴾ قال ناس : إن الساعة قد اقربت فنتاهاوا ، فنتاهى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعماهم السوء : فأنزل الله - تعالى - ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فنتاهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية «^(١)» .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ إيما إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديدهم ، والأسر الذى أذل كبرياءهم .

وافتححت جملة ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ للاهتمام

بضمون الخبر ، وللإشارة الى تحقيقه ، وإدخال الروح في قلوبهم .
وعبر بالماضى ﴿ حاق ﴾ مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت لا ريب فيه ،
عندما يأذن الله - تعالى - بذلك .

ثم بين - سبحانه - جانباً من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - ﴿ ولئن
أذقنا الإنسان مناً رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء
الآتى بعد ذلك في قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :
الأول : أنه - تعالى - استثنى منه قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾
والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الانسان المذكور في هذه الآية داخل فيه
المؤمن والكافر .

الثانى : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله - سبحانه - : ﴿ والعصر إن
الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ﴾ .

الثالث : أن مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج في تفسير هذه
الآية : « يابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزع منك فيؤوس
قنوط »^(١) .

وقيل المراد بالانسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .
والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا ، وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والغنى والأمان
وما يشبه ذلك من ألوان النعم .

والؤوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس ، والكفر ، والقنوط : الشديد
الجحود لنعم الله - تعالى - يقال : يشس من الشئ ييأس ، إذا قنط منه .

والمعنى : ولئن منحنا الإنسان - بفضلنا وكرمنا - بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان
والأمان ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .

﴿ إنه ﴾ فى هذه الحالة ﴿ ليؤوس كفور ﴾ أى : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع
اليه ما سلب منه أو مثله ، وكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن .

قال الشوكانى : وفى التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ١٩٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

ينعم الله بها عليه : لأن الإذاقة والنوق أقل ما يوجد به الطعم «^(١)» .
 وفي قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه .
 وجملة ﴿ إنه ليؤوس كفور ﴾ جواب القسم ، وأكدت بيان وباللام ، لقصد تحقيق
 مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .

وهي تصوير بليغ صادق لما يعترى نفس هذا الانسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن
 ذاقها ، فهو - لقلّة إيمانه وضعف ثقته بربه - قد فقد كل أمل في عودة هذه النعمة إليه ،
 ولكأن هذه النعمة التي سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين - سبحانه - حالة هذا الانسان اليؤوس الكفور ، عندما تأتبه السراء بعد الضراء
 فقال : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح
 فخور ﴾ .

والنعماء : النعمة التي يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .
 والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السيء عليه .

والمراد بالسيئات : الأضرار التي لحقته كالفقر والمرض .
 والمعنى : ولئن أذقنا هذا الانسان اليؤوس الكفور ﴿ نعماء ﴾ بعد ضراء مسته كصحة بعد
 مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل ..

﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أى : ليقولن في هذه الحالة الجديدة بيطر وأشر ، وغرور
 وتكبر ، لقد ولت المصائب عني الأدبار ، ولن تعود إلى .

وعبر - سبحانه - في جانب الضراء بالمس ، للإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما تذوقه
 من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده في كل الاحوال .
 وجملة ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ جواب القسم .

أى : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة : كثير التباهى والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول
 بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه - سبحانه - .

وإنها - أيضا - لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته
 الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر
 بتقلبات الأيام ، فهو يؤوس كفور إذا نزعته منه النعمة ، وهو بطر فخور إذا عادت إليه ،
 وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مردولة .

وقوله : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات.. ﴾ استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بذلك ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة تمسح ذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ منه - سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبى - ﷺ - يضيق بها صدره ، ويحزن منها نفسه ، فقال - تعالى - :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَضَائِقٌ بِهِ عِصْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا
مِّنَّا إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنها أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولا . وقال آخرون : اتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية «^(١)» .

ولفظ ﴿ لعل ﴾ - كما يقول الآلوسى - للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه - ﷺ - مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - ﷺ - عن كتم شيء أمر بتبليغه ... والمقصود بهذا الأسلوب هنا تحريضه - ﷺ - وتهيبج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذ التوقع « .

و ﴿ تارك ﴾ اسم فاعل من الفعل ترك . و ﴿ ضائق ﴾ اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على ﴿ تارك ﴾ .

والمراد ببعض ما يوحى إليه - ﷺ - في قوله - سبحانه - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ : ما نزل عليه : من قرآن فيه استهزاء بأهلتهم ، وتسفيه لعقولهم التي استساغت أن تشرك مع الله - تعالى - في عبادتها آلهة أخرى .

والضمير المجرور في قوله - سبحانه - ﴿ وضائق به صدرك ﴾ يعود الى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة ﴿ أن يقولوا ﴾ في محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكنز : يطلق على المال الكثير المجموع بعضه إلى بعض سواء أكان في بطن الأرض أم في ظهرها ، ومرادهم بإنزاله هنا : أن ينزل على الرسول - ﷺ - من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم في رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة .. والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متعنتة يطلبونها منك ...

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسالكهم القبيحة هذه، تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يثير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء مال كثير تستغنى به وتغنى أتباعك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك في دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك في تحصيل مقصودك ..

لا - أيها الرسول الكريم - لا تترك شيئا من تبليغ ما أمرك الله بتبليغه هؤلاء المشركين ، ولا يضيق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا إياهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - ﷺ - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل ﴿ ضائق ﴾ لا بالصفة المشبهة « ضيق » لمراعاة المقابل وهو قوله ﴿ تارك ﴾ ، وللإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - ﷺ - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ، لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - ﷺ - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد في الإساءة إليه - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ تذييل قصد به زيادة تثبيته وتحريضه

على المضى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والمأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكمل تعبير عن الفترة الحرجة التى نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت فى الفترة التى أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول - ﷺ - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - ﷺ - حيث تكاثر فيها إيذاء المشركين له ولأصحابه ..

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة تحت النبى - ﷺ - على الثبات والصبر ، وعلى تبليغ ما يوحى إليه ، مع عدم المبالاة بما يضعه المشركون فى طرفه من عقبات ..

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معى - أيها القارئ الكريم - فى أنه لا يوجد أى دليل نقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى تؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية فى أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ... ﴾ (١١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى فى زعمهم ، فقال - تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَالَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الْجَاهِلِيَّةَ فَعَلِمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَانْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضراب وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذي لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد جرماً ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ، واخترعته من عند نفسك .

وقوله : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ... ﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يجرس ألسنتهم ، ويكبت نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر كما تزعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم فهاتوا أنتم عشر سور مختلقات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم في بلوغ هذا الامر كل من تتوسمون فيه المعاونة غير الله - تعالى - لأنه هو - سبحانه - القادر على أن يأتي بمثله .

وجواب الشرط في قوله - سبحانه - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف دل عليه ما تقدم .
أى : إن كنتم صادقين في زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والتأمل لآيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين تارة بأن يأتوا بمثله كما في سورتي الإسراء والطور . ففي سورة الإسراء يقول - سبحانه - ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(١) وفي سورة الطور يقول - سبحانه - ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾^(٢) .

وتارة تحدهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما في هذه السورة ، وتارة تحدهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما في سورتي البقرة ويونس ، ففي سورة البقرة ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله... ﴾^(٣) وفي سورة يونس يقول - سبحانه - : ﴿ أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾^(٤) . وقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم في فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو

(٣) الآية ٢٣ .

(١) الآية ٨٨ .

(٤) الآية ٣٨ .

(٢) الآية ٣٤ .

فهل أنتم مسلمون ﴿ إرشاد هؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون ، إذ الخطاب موجه إليهم لعلهم يثوبون إلى الرشد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الذين تحديتهم أن يأتيوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا في ذلك بين شاءوا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم في الإتيان بعشر سور من مثل القرآن .. وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الناس أن هذا القرآن ﴿ أنزل يعلم الله ﴾ وحده ، وبقدرته وحدها . ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ - سبحانه - فهو الإله الحق ، الذي تعنوا له الوجوه ، وتخضع له القلوب ، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

﴿ فهل أنتم ﴾ أيها المشركون بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده ﴿ مسلمون ﴾ أى : داخلون في الإسلام ، متبعون لما جاءكم به الرسول - ﷺ - .

والمراد بالعلم في قوله ﴿ فاعلموا إنما أنزل ... ﴾ : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملابسا لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شيء .
والفاء في قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخير .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ما جاءكم به نبينا محمد - ﷺ - تشكون في أن الإسلام هو الدين الحق؟ إن الشك في ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول في الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي - ﷺ - والمسلمين ، أو إليه وحده - ﷺ - وعلى سبيل التعظيم وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتهم به ﴿ فاعلموا ﴾ أى فازدادوا علما ويقينا وثباتا ، بأن هذا القرآن « إنما أنزل يعلم الله » الذى لا يعزب عنه شيء ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ﴿ مسلمون ﴾ أى ثابتون على الإسلام ، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل

بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة في شأنهم فلأن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ

﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ

مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أى : من كان يريد بأقواله الحسنة وأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ أى : توصل إليهم - بإرادتنا ومشيتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا .

والتعبير بكان في قوله ﴿ من كان يريد ... ﴾ يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل ﴿ نوف ﴾ بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمينه معنى توصل . وقوله - سبحانه - ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما سبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده في دنياهم .

والبخس : نقص الحق ظلماً . يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلّمه ونقصه . أى : وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهوداً لا إخلاص معها ولا إيمان .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم في الآخرة فقال : ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس لهم في الآخرة إلا النار ، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة في الدنيا وبقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة في الآخرة .

﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ أى : وفسد ما صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى - وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس ...

وقوله ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى : وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب فى الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرأتين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، وإنما كانت متجهة اتجاهها كلياً إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾^(١) .

وقوله - تعالى - ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾^(٢) .

هذا ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان فى شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... ﴾ لا يليق إلا بهم .

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تناولاً أولياً ، ولكن هذا لا يمنع من أنها يندرج تحت وعيدها كل من قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبت كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقترفه بأشد أنواع العقوبات ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ - : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » - أى رائجتها -^(٣) .

وصفة القول : أن الآيتين الكريميتين تسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، هى أن الله - تعالى - لا ينقص الناس شيئاً من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهرها الصلاح ، إن كان المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها

(١) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٢) سورة الإسراء الآيات من ١٧ - ٢٠ .

(٣) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووى من باب « تحريم الرياء » ص ٦١٩ .

وجدوا نتائجها وثارها في الدنيا فحسب .

وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثارها ونتائجها المحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم في الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى - في شريعة الإسلام - لا يحول بين العمل النافع في الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثارها ، بل إنه يزكيه وينمي ويباركه .. ورحم الله القائل : ليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها فإن كان مسلما مخلصا وفي ثوابها في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفي ثوابها في الدنيا .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، أتبع ذلك بيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون ويتركون فقال - تعالى - :

أَفَمَنْ كَانَ

عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ

مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ

مِنَ الْأَحْزَابِ ۚ قَالَ نَارٌ مَّوعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ

مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق من كل شيء بحسبه كالبرهان في العقليات والنصوص في النقليات ، والخوارق في الإلهيات ، والتجارب في الحسيات ، والشهادات في القضائيات ، والاستقراء في إثبات الكلليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبي منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءهم ببينة من ربه ، كما ترى في قصصهم في هذه السورة وفي غيرها ... «^(١)» .

وقوله : ﴿ ويتلوه ... ﴾ من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأيد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ ويقوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ .

وفي مرجع الضمائر في قوله « ربه - ويتلوه - ومنه » ...
وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على
بينة من ربه ﴾ الرسول - ﷺ - وأتباعه المؤمنون .
ويقوله تعالى - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - على
نبيه - ﷺ - ليكون معجزة له شهادة بصدقه .

والضمير في قوله من ربه يعود إلى النبي - ﷺ - وفي قوله ﴿ ويتلوه ﴾ يعود إلى القرآن
الكريم ، وفي قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - .
وعلى هذا القول يكون المعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه إلى الحق
والصواب في كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ويؤيده ويقويه في دعوته
شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر البشر..
أفمن كان هذا شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو أفمن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا
وزينتها ؟ كلا إنها لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - ﷺ - في دعوته ، تتجلى في إعجازه ، فقد
تحدى النبي - ﷺ - أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت
بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وإنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الذي يتسق مع ما يفيدته ظاهر
الآية الكريمة ، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة وغيرها ، نجد الرسل الكرام كثيرا ما
يؤكدون لأقوامهم - أنهم - أي الرسل على بينة من ربهم .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي
وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي
وأتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ... ﴾ .

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي
ورزقني منه رزقا حسنا .. ﴾

وهكذا نجد كل نبي يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه وما دام الأمر كذلك فسيدينا
رسول الله - ﷺ - هو أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به - ﷺ -
يقننون به في ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم . وبالشاهد إعجازه وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب وأن الضميرين في قوله « ويتلوه - ومنه » يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه . وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلي من ربه يدل على حقيقة الإسلام وهو القرآن ويؤيده ويقويه - أي القرآن - شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الآلوسی ما ملخصه : قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ : أصل البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا .. والتتوين فيها للتعظيم ، أي : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير الراجع إليها في قوله ﴿ ويتلوه ﴾ مذكرا وقوله ﴿ ويتلوه ﴾ أي يتبعه ﴿ شاهد ﴾ عظيم يشهد بكونه من عند الله وهو إعجازه .. « .

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه .. وكذا الضمير في « منه » - يعود إلى القرآن - وهو متعلق بمحذوف وقع صفته لشاهد ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه .. «^(١) .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم - أيضا - ويرى أن المراد بالشاهد جبريل - عليه السلام - وأن قوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة لا من التلو بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلي من ربه يدل على حقيقة الإسلام وهو القرآن ويتلو هذا القرآن على الرسول - ﷺ - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام - .

فالضمير في ﴿ ويتلوه ﴾ على هذا الرأي يعود الى جبريل - عليه السلام - وفي « منه » يعود على الله تعالى - .

وهناك أقوال أخرى في تفسير الآية الكريمة رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها^(٢) .

وقوله ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾ دليل آخر على صدق النبي - ﷺ - في دعوته . وهو معطوف على شاهد والضمير في قوله ﴿ ومن قبله ... ﴾ يعود على شاهد - أيضا - .

(١) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ٢٥ .

(٢) راجع تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ٢٥ .

وقوله ﴿ إماما ورحمة ﴾ منصوبان على الحالية من قوله ﴿ كتاب ﴾ .
والمعنى ومن قبل هذا الشاهد على صدق الرسول - ﷺ - وهو القرآن الكريم أنزل الله
- تعالى - على موسى كتابه التوراه مشتملا على صفات الرسول - ﷺ - و ﴿ إماما ﴾
يؤتم به في أمور الدين والدنيا ورحمة لبنى اسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا
تعاليمه .

قال الشوكاني : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا في الوجود لكونه -
أى الشاهد بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى .
وهي شهادة كتاب موسى وهو التوراة أنه بشر بمحمد - ﷺ - وأخبر بأنه رسول من الله
- تعالى - ^(١) .

واسم الإشارة في قوله ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعود الى الموصوفين بأنهم على بينة من ربهم
وهم النبي - ﷺ - وأتباعه المؤمنون الصادقون .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم يؤمنون بأن الاسلام هو الدين الحق وبأن
رسول الله - ﷺ - رسول صدق وبأن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .
فالضمير في قوله ﴿ به ﴾ يعود على كل ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه
ويدخل في ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ﴾ بيان لسوء عاقبة الكافرين بما جاء
به الرسول - ﷺ - بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين به .

والاحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة الرسول
- ﷺ - ودعوته .

أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول - ﷺ - من هدايات فإن نار جهنم هي
المكان الذى ينتظره وينتظر كل متحزب ضد دعوته - ﷺ - .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن إشعار بأن فيها مالا يحيط به الوصف من ألوان
العذاب الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يودى الى اليقين بأن
ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق الذى لا يشو به باطل فقال - تعالى - : ﴿ فلا تك فى
مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

أى: فلا تك - أيها العاقل - في شك من أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الصدق ، بل عليك أن تعتقد اعتقادا جازما في صحة ذلك ، لأن ما جاء به - ﷺ - هو الحق الثابت من عند ربك و لكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك لا نظاس بصائرهم ، ولتقليدهم لأبائهم ، ولإيثارهم الغي على الرشد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل وسأقت حشودا من الأدلة الدالة على صدق الرسول - ﷺ - في دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذى آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التى هى بشس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هى من الآيات التى قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤيد ذلك ، بل الذى نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى المقدمة . ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم كما بين حسن عاقبة المؤمنين وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - :

وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى
 وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قال الإمام الرازي : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورجبتهم في تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقة بقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... ﴾ إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - ﷺ - ويقدمون في معجزاته وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ... ﴾ .

ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... ﴿١﴾ .

وجمله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفي ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشريف وأشراف . أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله - تعالى - يعرضون يوم الحساب ، على ربهم ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

﴿ ويقول الأشهاد ﴾ الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا الكذب على الله ﴿ هؤلاء ﴾ المجرمون هم ﴿ الذين كذبوا على ربهم ﴾ بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه .

﴿ أَلَا لعنة الله على الظالمين ﴾ الذين وضعوا الأمور في غير مواضعها ، فأوردوا أنفسهم المهالك .

وجيء باسم الإشارة ﴿ هؤلاء ﴾ زيادة في التشنيع عليهم ، وفي تمييزهم عن غيرهم وصدرت جملة ﴿ أَلَا لعنة الله على الظالمين ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ أَلَا ﴾ لتأكيد الدعاء عليهم بالطرْد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب اقترانهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأشهاد ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله - ﷺ - يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله عز وجل - يدني المؤمن فيضع عليه كنفه - أي ستره وعفوه - ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أعفوها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم أَلَا لعنة الله على الظالمين ﴾^(١) .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف بعد أن قال الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - جانباً آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ... ﴾

و ﴿ يصدون ﴾ من صد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال صد يصد صدوداً وصدًا .

و ﴿ سبيل الله ﴾ طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام .
﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أى يطلبون لها العوج ، يقال : بغيت لفلان كذا إذا طلبته له .
والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ في الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج - بفتح العين - يكون في المحسوسات كالميل في الحائط والرمح وما يشبهها .
أى أن مكسور العين يكون في المعاني ومفتوحها يكون في المحسوسات .

والمعنى : أَلَا لعنة الله وخزيه على الظالمين الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم

عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها ، وقوله عوجا مفعول ثان ليبيفون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ بيان لعقيدتهم الباطلة في شأن البعث والحساب .
أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

وكرر الضمير ﴿ هم ﴾ لتأكيد كفرهم وللإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم حتى لكأن كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .

ثم بين - سبحانه - أنه كان قادرا على تعذيبهم في الدنيا قبل الآخرة ولكنه أخر عذابهم إملأ لهم فقال : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ... ﴾ .

وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشيء .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن - سبحانه - عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم في الدنيا . وما كان لهم من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد ، يقال أعجزنى فلان أى : منعى عن مرادى ...

والمقصود أن قوله ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . فجمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضع بذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة^(١) .

وقوله : ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم في الدنيا مضاعفة العذاب لهم في الآخرة .

وقوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ تصوير بليغ لاستحواذ الشيطان عليهم .

أى أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذى جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم - ﷺ - .

فليس المراد نفى السماع والإبصار الحسين عنهم وإنما المراد أنهم لا نظاس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمدهم الكذب على الله ، ﴿ وذل عنهم ﴾ أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من اعتقادات باطلة وادعاءات فاسدة .

وقوله ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ زيادة في تأكيد خسارتهم . وكلمة ﴿ لا جرم ﴾ وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع . وفي كل موضع جاءت متلوّة بأن واسمها .

وجهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل : حق أو ثبت ، والجملّة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم في الآخرة هم الأخسرون .

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس و« جرم » اسمها وما بعدها خبرها . والمعنى . لا محالة ولاشك في أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

قال الجمل : والإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمانينة القلب . ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فمعناه : خشع وخضع له . فقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إشارة الى جميع أعمال الجوارح . وقوله : ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله - تعالى - «^(١)» .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات التى ترضيه - سبحانه - واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له أولئك الموصوفون بذلك هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلودا أبديا وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ﴾ .

وقوله : ﴿ مثل الفريقين ... ﴾ أى : حالهم وصفتهم .

وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ثم أطلق على القول السائر المعروف للمثالة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - أى الذى ورد فيه أولا .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس وعرض الغائب فى صورة الشاهد . فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم . لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم والسمع الواعى لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال وجهالة لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم ، فيدخلون فى دين الإسلام وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيمانا على إيمانهم .

والاستفهام فى قوله ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ للإنكار والنفي، أى: هل يستوى فى الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما؟ كلا إنها لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا

وقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ حض على التذكر والتدبر والتفكير .

أى : أتشكون فى عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك فى عدم استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول فى صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين وذكرت من أوصافهم أربعة

عشر وصفا أولاها : افتراء الكذب ... وآخرها : الخسران في الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود في الجنة : ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات .. وفي ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته وعن إعجاز القرآن الكريم وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ساقى السورة الكريمة بترتيب حكيم قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها فقد حدثنا عن قصة نوح مع قومه وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوه بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبيئات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إغراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيئات ليس من خواص قوم النبي - ﷺ - ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم وعنادهم يفيد تسليية النبي - ﷺ - وتخفيف ذلك على قلبه .

وثانيها : أنه - تعالى - يحكى في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة . وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يهمل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبي - ﷺ - لأنه كان أميا ، وما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفه بالوحي من الله - تعالى -^(١) .

وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة في سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح ... إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلا من غيرها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمِ
 ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا
 مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ آتِبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا
 بِالرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

وقوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... ﴾ جواب لقسم محذوف . أى والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامة في بدء الجملة .
 وافتتحت القصة بصيغة القسم لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم نوح بسبب كفرهم نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد وقد يقيم الرجل بين الأجناب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام : فأرسل الله إليهم نوحا ليدهم على طريق الرشاد . قال ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تئامى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده ^(١) .

وقوله : ﴿ إني لکم نذیر مبین ، أن لا تعبدوا إلا الله ... ﴾ بیان للوظيفة التي من أجلها أرسل الله - تعالى - نوحا إلى قومه .

قال الشوكاني : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهمزة في ﴿ إني ﴾ على تقدير

حرف الجر أى : أرسلناه بأنى. أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو أنى لكم نذير مبين .
وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول . أى : أرسلناه قائلا لهم ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾^(١) .

ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف ..
ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار ..

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : إني لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات
العذاب التي تتمثل في عبادتكم لغير الله - تعالى - .

واقترص على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله - تعالى - إذا ما
أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ بدل من قوله ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أى أرسلناه بأن لا
تعبدوا إلا الله .

وقوله : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ جملة تعليلية ، تبين حرص نوح الشديد
على مصلحة قومه ومنفعتهم .

أى إني أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم
عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم
منى بمقتضى القرابة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ،
لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ، جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليبا أى
مؤلما .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ،
ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى ، وما نرى لكم
علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من
لفظه كرهط وهو - كما يقول الآلوسى - : مأخوذ من قوهم فلان ملء بكذا : إذا كان قادرا
عليه ... أو لأنهم متهائون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون ...
ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة فى ذمهم .

أى : بعد هذا النصح الحكيم الذى وجهه نوح - عليه السلام - لقومه ، رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم ﴿ ما نراك ﴾ يا نوح إلا بشرا مثلنا ، أى : إلا إنسانا مثلنا ، ليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا ...

فهم - لجهلهم وغبانهم - توهموا أن النبوة لاتجامع البشرية ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة التفاهم معه ، والافتداء به في أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب بما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ... ﴾^(١) .

ثم إنهم فى التعليل لعدم اتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك إلا بشر مثلنا : بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادنا بادى الرأى ﴾ ومرادهم بقولهم : ﴿ أرادنا ﴾ أى فقرأونا ومن لا وزن لهم فينا .

قال الجمل : ولفظ ﴿ أرادنا ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو جمع أرذل - بضم الذال - جمع رذل - بسكونها - نحو كلب وأكلب وأكالب ...

ثانيهما : انه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر .. والأرذل هو المرغوب عنه لرداءته^(٢) . ومرادهم بقولهم : ﴿ بادى الرأى ﴾ أى : أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولا وعليه تكون الياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها ويؤيده قراءة أبى عمرو « بادى الرأى » .

أى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أقلنا شأنا وأحقرنا حالا من غير أن يشبثوا من حقيقة أمرك ، ولو تشبثوا وتفكروا ما اتبعوك ويصح أن يكون مرادهم بقولهم ﴿ بادى الرأى ﴾ أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ ﴿ بادى ﴾ من البدو بمعنى الظهور . يقال : بدأ الشيء يبدو بدوًا ويُدوًا وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن اتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهم تدين بعقيدتنا .

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٩١ .

وشبيه هذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ قالوا أتؤمن لك واتبعك الأزدلون ﴾^(١) .
قال صاحب الكشاف : وإنما استردلوا المؤمنين لفقهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم أي الملائ من قوم نوح - كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، وبينون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زال عنهم أن التقدم في الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة والتأهيل لها ... »^(٢) .
ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعماً جديداً فقالوا : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والفضل : الزيادة في الشرف والغنى وغيرها مما يتميز به الانسان عن غيره .
والمراد هنا : آثاره التي تدل عليه .

أي : أنت يا نوح لست إلا بشراً مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأننا ، وما نرى لك ولتبعيك شيئاً من الزيادة علينا لا في العقل ولا في غيره ، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق في نظرنا هو في عبادة هذه الاصنام التي عبدوها من قبلنا آبائنا .
وهكذا نرى أن الملائ من قوم نوح - عليه السلام - قد عللوا كفرهم بما جاءهم به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولأتباعه عليهم ..

وهي كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطاس بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح - عليه السلام - الذي حكاه القرآن في قوله - تعالى - :

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَاسَيْتُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ

(١) سورة الشعراء الآية ١١١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦٥ .

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَخْتُهُمْ
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
 أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا
 لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملائ الذين كفروا من قومه : ﴿ يا قوم ﴾
 أى : يا أهلى وعشيرتى الذين يسرفى ما يسرفهم ويؤلمنى ما يؤلمهم .

﴿ أرايتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ أى : اخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ،
 وحجة واضحة من ربى ، بها يتبين الحق من الباطل .

﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ أى : ومنحنى بفضله وإحسانه النبوة التى هى طريق الرحمة لمن
 آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة ﴿ فعميت عليكم ﴾ أى :
 فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحبت العمى على
 الهدى .

يقال : عمى على فلان الأمر : أى أخفى عليه حتى صار بالنسبة اليه كالأعمى قال صاحب
 المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال - تعالى - ﴿ فعميت
 عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالتشديد والبناء للمفعول ﴿ فعميت ﴾ أى : فحجبها عنكم
 جهلكم وغروركم ..

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى
 المقتضى لأشد أنواع الخفاء^(١) .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ للإنكار والنفى .
 أى : إذا كانت الهداية إلى الخير التى جئتمكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلانها ،

فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجبارا ، ونفسركم قسرا على الإيمان بي ، وعلى التصديق بنبوتى ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها .

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع و اختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق الفنى بين الألفاظ ، ومن أمثله ذلك قوله - تعالى - في قصة نوح مع قومه ﴿ أنزلنكموها ﴾ فأتت تحس أن كلمة أنزلنكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها الى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو لون من التناسق في التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية^(١) .

ثم وجه نوح - عليه السلام - نداء ثانيا إلى قومه زيادة في التلطف معهم ، وطمعا في إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ .

أى : لا أطلب منكم شيئا من المال في مقابل تبليغ ما أمرنى ربي بتبليغه إليكم : لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال ..

﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ - تعالى وحده ، فهو الذى يثبني على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه جزاء على العمل الصالح .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - في سورة الشعراء : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ وجملة ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لا أسألكم عليه مالا ﴾ لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده في ما لهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة ... وإنما يقيسهم بمقياس الإيمان و التقوى .

قال الألوسى : والمروى عن ابن جريح أنهم قالوا له : يانوح إن أحببت أن تتبك فاطرد هؤلاء الأراذل - وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء .

وذلك كما قال زعماء قريش للنبي - ﷺ - في شأن فقراء الصحابة : اطرده هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإننا نستحي أن نجلس معهم في مجلسك ... »^(١) .

وجملة ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ تعليل لنفي طردهم .

أى : لن أطردهم عن مجلسي أبدا ، لأنهم قد آمنوا بي ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التي تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملا الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب .

وقوله : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ استدراك مؤكد لمضمون ما قبله .

أى : لن أطردهم ، لأن ذلك ليس من حقي بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بحسابتهم ، ولكنى مع هذا البيان المنطقي الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وتتطاولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعول ﴿ تجهلون ﴾ للعلم به ، وللإشارة إلى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغي ألا يجعله عاقل .

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيثون إلى رشدهم فقال : ﴿ يا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ﴾ .

أى : افترضوا يا قوم أى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسي ، فمن ذا الذى يحميني ويجيرني من عذاب الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه في تقييم الناس ليس كميزانكم ، إن أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أطردهم ؟

والاستفهام في قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أى : أنصرون على جهلكم : فلا تذكرون أن لهم ربا ينصرهم إن طردتهم ؟ إنكم إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أمركم فرطا ، وستعرضون للعذاب الأليم الذى يهلككم . ثم أخذ نوح - عليه السلام - في تفنيد شبهاتهم ، وفي دحض مفترياتهم ، وفي تعريفهم

بحقيقة أمره فقال : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك .. ﴾ .

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذى يخزن فيه المال أو الطعام أو غيرها خشية الضياع ، والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التى يحتاج إليها عباده ، وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها . وملكيته لها .

أى : إني لا أقول لكم إن النبوة التى وهبني الله إياها ، تجعلني أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطى من أشياء بغير حساب ...

كلا . إني لا أملك شيئاً من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلني لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة الكريمة رد على قولهم السابق ! ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ .
وأيضاً لا أقول لكم إني أعلم الغيوب التى اختص الله بعلمها ، فأدعى قدرة ليست للبشر ، أو أزعم أن لى صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة - أو أدعى الحكم على قلوب الناس وعلى منزلتهم عند الله ، كما ادعيتم أنتم فقلتم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ... ﴾ .

وأيضاً فإني لا أقول لكم إني ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصني من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتضى للنبوة وليست مانعا منها - كما تزعمون - حيث قلتم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ .

ولم يكتف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاوهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما أنفوسهم ، إني إذا لمن الظالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ تزدرى ﴾ من الازدراء بمعنى التحقير والانتقاص ، يقال : ازدرى فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأنى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضاً - فى شأن الذين تنظرون إليهم نظر احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤتيهم ذلك - إذا شاء - لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر - أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ؛ و ﴿ إني إذا لمن الظالمين ﴾ لنفسى ولغيرى إذا ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه ، وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الأعين في قوله ﴿ تزدري أعينكم ﴾ للمبالغة والتنبية على أنهم استزدلوهم بادي الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير روية بسبب ما عاينوه من رثاءة حالهم وقلة مناهم ، دون تأمل في معانيهم وكالاتهم ^(١) . وهذا الإسناد من باب المجاز العقلى ، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة « في نظر الناظر » فتكون الأعين سببا في هذا الازدراء .

وأكد جملة ﴿ إني إذا لمن الظالمين ﴾ بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتكديبا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها ...

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقتهم - إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم :

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ

جِدْلَنَا فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ

نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : ﴿ يا نوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا ... ﴾

أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثرت في ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك ، والجidal : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله - كما يقول الألوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجدليل - أى الحبل المقتول - ، وجدلت البناء : أحكمته ، والأجدل :

الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كمنبر القصر المحكم البناء
وسميت المنازعة في الرأي جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما ، يقتل الآخر عن
رأيه - أى بصرفه عنه - ...

وقيل : الأصل في الجدل الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة - بفتح الجيم -
أى : الأرض الصلبة ^(١) .

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجّة سفاهة في القول فقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين ﴾ .

أى : لقد سئنا مجادلتك لنا ومللناها ، فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من
الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ،
وكارهون لما تدعوننا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجّة ، ويعلم التحدى إذا يئس
عن مواجهة الحق ...

ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرج هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يقعه عناد
قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله
﴿ إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين ﴾ .

أى : إنما يأتيكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه
هو الذى يملكه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى : وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت
مشيئته - سبحانه - إنزاله لكم ، لأنه - تعالى - لا يعجزه شيء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله - تعالى - اعترافا آخر بشمول إرادته فقال :
﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ﴾ .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للمنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .
يقال : نصحته ونصحت له ... أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان نقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل

شياء .

أى : إني قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ومع ذلك فإن

نصحي الدائم لن يفيدكم شيئا ، مادامت قلوبكم في عمى عنه ، وأسأعكم في صمم منه ، ونفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط في قوله ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .
وقوله ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ : زيادة تأكيد منه -
عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أى : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء الذى تستحقونه .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا سريعا بقارئها إلى الحديث عن مشركى مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله ، ووقفوا من نبيهم ﷺ - موقفا يشبه موقف قوم نوح منه - عليه السلام - فترد عليهم بقوله -
تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ

قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ اجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر .
والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .
والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشيء القبيح الذى يستحق فاعله العقاب .
يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقرن الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين فى معنى
هذه الآية اتجاهان :

الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها فى شأن
مشركى مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .

وعليه يكون المعنى . لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذى لا يحوم
حوله ياطل ، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا

القرآن ، قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدى تقع عقوبة إجرامى وافترائى الكذب ، وأنا برىء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هى من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبه إلى الله - تعالى - قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة إجرامى وكذبنى ، وأنا برىء مما تفترونه من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح ، لأن التعبير عن أفكارهم يقولون ، وعن الرد عليهم بقل ، الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة فى شأن مشركى مكة .

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئاً عن الاتجاه الثانى مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ما ملخصه : يقول - تعالى - ذكره : أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك : افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرسته واختلقته فعلى إثمى فى افترائى ما افتريت على ربي دونكم .. وأنا برىء مما تذبنون وتأتمون فى حقى وحق ربكم ... ^(١)

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانباً من مجادلة قوم نوح له ، ومن تطاولهم عليه ، ومن تحديهم لدعوته ، كما حكمت لنا رده عليهم بأسلوب حكيم ، جعلهم يعجزون عن مجابته فماذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة ، فبينت بعد ذلك قضاء الله العادل فى هؤلاء الظالمين ، حيث حكمت لنا ما أوحاه الله إلى نوح - عليه السلام - فى شأنهم ، وما أمره بصنعه ... فقال - تعالى - :

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّأَمَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
 مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
 مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ معطوف على قوله ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا .. ﴾ .

أى : بعد أن لجج قوم نوح في طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته .. أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الدخول في الدين الحق ، فلم يزداهم دعاؤه إلا فرارا ..

وقوله : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ تسلية له - عليه السلام - عما أصابه منهم من أذى ..

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمر ، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه ، والابتئس : الكاره الحزين في استكانته .

أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماذيبهم في سفاهاتهم وطيغيانهم ، فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - في هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهى ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ فمنذ ذلك أوحى الله - تعالى - إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم ^(١) .

وقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... ﴾ معطوف على قوله .. ﴿ فلا تبتئس ... ﴾ .

والفلك : ما عظم من السفن ، ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح - عليه السلام - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

والبَاء في قوله ﴿ بأعيننا ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير اصنع .
أى : واصنع الفلك يا نوح ، حالة كونك برأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحيننا .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجوني في رحمتهم أو في دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائي بإغراقهم ولا راد لقضائي .

وقوله - تعالى - ﴿ ويصنع الفلك ﴾ بيان لامثال نوح لأمر ربه .

وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان في الماضي : استحضارا لصورة الصنع ، حتى لكان نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .

ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... ﴾ .

والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا استخف به وضحك منه .

أى : امتثل نوح لأمر ربه ، فطلق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزأوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على سبيل التهكم به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء في بعض الآثار .

وهنا يرد عليهم نوح بقوله : ﴿ إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ .
أى قال نوح لهم : إن تسخروا مني ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة ، وتستهجلوا منا هذا العمل ، فإننا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة في مقابل سخريتكم الباطلة .
قال الإمام الرازي : وقوله ﴿ إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فيه وجوه :

الأول : التقدير : إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق في الدنيا والخزى في الآخرة .

الثاني : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نضع فإننا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .

الثالث : إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم ، واستجهلكم أقيح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون

إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاعتذار بظاهر الحال ، كما هو عادة الأطفال^(١) .
ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهديدا آخر فقال : ﴿ فسوف تعلمون من
يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى المهين فى
الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاصل فى شأن قوم نوح - عليه
السلام - بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا أذانهم عنه فهاذا كان
من أمره وأمرهم بعد ذلك .

كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى
السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطرفان ،
وسارت السفينة بمن فيها ، وأغرق الله - تعالى - الظالمين ، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك
فقال - تعالى .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ أَمِنَ وَمَاءَ مَعَهُ ۚ إِلَّا لَاقِلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِّدْهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ ۖ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ
 أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
 بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... ﴾ بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قومه . و ﴿ حتى ﴾ هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ويصنع الفلك .. الخ ﴾ . والمراد بالأمر في قوله - سبحانه - ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ... ﴾ حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا .. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشىء على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة ، وللأرض بتفجير عيونها ، وللسماء بإنزال أمطارها ... قلنا احمل فيها ...

وجملة ، وفار التنور ، معطوفة على ﴿ جاء أمرنا ﴾ ، وكلمة ﴿ فار ﴾ من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوى ، يقال في الماء إذا غلا وارتفع ... ويقال في النار إذا هاجت قال - تعالى - ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ﴾ ...

ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد ... »^(١) .

وللمفسرين في المراد بلفظ ﴿ التنور ﴾ أقوال منها : أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الكانون ...

ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء في السفينة ...

ومنها : أن المراد به طلوع الفجر من قولهم : تنور الفجر ...

ومنها : أن المراد به أعالي الأرض والمواضع المرتفعة فيها ..
وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ فار التنور ﴾ التمثيل
بحضور العذاب ، كقولهم ، حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال^(١) .

وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور في اللغة يطلق على الشيء الذي يحبز فيه ، وفورانه
معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء في القدر عند الغليان ، ولعل
ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة
من الأقوال في معنى التنور : « وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله ﴿ التنور ﴾ قول من قال :
هو التنور الذي يحبز فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى
الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك ، فيسلم
لها .

وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .
أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه ... وفار التنور الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء
عذابنا .. احمل فيها - أى السفينة من كل زوجين اثنين .. »^(٢) .

وقال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال - في معنى
التنور .. ؟ .

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يحبز فيه ،
فوجب حمل اللفظ عليه ...

ثم قال : والذي روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة
عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين النجاة فلا بد أن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت
المعين « فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة »^(٣) .

وجملة ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ جواب إذا
ولفظ ﴿ زوجين ﴾ تشنية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع .
قراءة الجمهور : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بدون تنوين للفظ كل ، وإضافته إلى
زوجين .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٢٢٦ .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥ .

وقرأ حفص : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بتتوين لفظ كل وهو تتوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكرا وأنثى .

ويكون لفظ ﴿ زوجين ﴾ مفعولا لقوله ﴿ احمل ﴾ واثنين صفة له .
والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما في قوله - ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ... ﴾^(١) .

والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ استثناء من الأهل .

أى : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله - تعالى ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما .. ﴾ وابنه الذي أبى أن يركب معه السفينة .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى (واعلة) بالعين المهملة ، وفي رواية (والقه) وابنه منها واسمه (كنعان) .. وكانا كافرين^(٢) .

وجملة ﴿ ومن آمن ﴾ معطوفة على قوله ﴿ وأهلك ﴾ أى : واحمل معك من آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكر أو أنثى ، واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

(١) سورة القصص الآية ٢٩ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٥٠ .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قال الآلوسى بعد أن ساق أقوالا في عدد من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه : ... والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه الثلاثة وبنوهم ، واثنتان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم ... » ^(١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

ومجريها ومرساها ، قرأها الجمهور بضم الميمين فيها ، وهما مصدران من جرى وأرسي . والباء في ﴿ باسم الله ﴾ للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة ، قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين .

أى : قلنا له ذلك فامتثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلموا أمركم لمشئته الله - تعالى - وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها في هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساءها في المكان الذى يريد الله - تعالى - إرساءها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ﴿ اركبوا ﴾ بفى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدى بفى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة ^(٢) .

وجملة ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ تعليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر الله - تعالى - : أى : إن ربي لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له مخلصا في عبادته . قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول الله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها .. ﴾ .

وقال - سبحانه - في موضع آخر : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى تجاننا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾ . ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور : عند الركوب في السفينة وعلى الدابة . فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - قال : « أمان أمتى من الفرق إذا

ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك .. بسم الله مجربها ومرساها إن ربي لغفور رحيم «^(١) .

ثم بين - سبحانه - حال السفينة وهي تمخر بهم عباب الماء فقال :

﴿ وهي تجرى بهم في موج كالجبال ﴾ .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشيء يموج إذا اضطرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - ﴿ وهي تجرى بهم ﴾ ؟ قلت : اتصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهي تجرى بهم . أى تجرى بهم وهم فيها في موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل في تراكمها وارتفاعها ..^(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التي أبصر فيها نوح - عليه السلام - ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين . والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .

أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنعان ، وكان هذا الابن في مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بني اركب معنا في السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور ، بل رد على أبيه : ﴿ قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء .. ﴾ .

أى : قال : سألتجئ إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكي أتحصن به من وصول الماء إلى . وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. ﴾ .

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه - سبحانه - بلطفه وإحسانه ، وأما الجبال وأما الحصون .. وأما غيرها من وسائل النجاة . فسيعلوها الطوفان ، ولن تغني عن المحتمى بها شيئا .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠ .

وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلاً لشأنه .
 وقوله : ﴿ وحال بينها الموج فكان من المغرقين ﴾ بيان للعاقبة السيئة التي آل إليها أمر
 الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الابن وأبيه ، فكانت النتيجة أن صار الابن
 الكافر من بين الكافرين المغرقين .

والتعبير بقوله : ﴿ وحال ... ﴾ يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ، حتى لكان هذه
 السرعة لم تمهلها ليكملاً حديثها .

والتعبير بقوله : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ يشير إلى أنه لم يغرق وحده ، وإنما غرق هو
 وغرق معه كل من كان على شاكلته في الكفر .

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مدار بين نوح وابنه من محاورات في تلك اللحظات
 الحاسمة المؤثرة ، التي يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير
 المؤلم .

وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله - تعالى - أمره إلى
 الأرض وإلى السماء .. فقال : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء ألقى وغيض
 الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله - تعالى - الكافرين ، قال الله -
 تعالى - للأرض : ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ﴾ .

أى : اشربي أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة في باطنك كما يبتلع
 الإنسان طعامه في بطنه بدون استقرار في الفم .

وقال - سبحانه - للسماء ﴿ ويا سماء ألقى ﴾ أى : أمسكى عن إرسال المطر يقال :
 ألقى فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : ألقعت الحمى عن فلان ، إذا
 تركته .

فامتلتنا - أى الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - في الحال ، فهو القائل وقوله الحق :
 ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وغيض الماء ﴾ أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل
 ونقص .

والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطرفان .
 وقوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى : تم ونفذ ما وعد الله - تعالى - به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين .

والضمير في قوله : ﴿ واستوت على الجودى ﴾ للسفينة ، والجودى ، جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام .

أى : واستقرت السفينة التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : مر النبي - ﷺ - - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا الصوم ؟ قالوا ، هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه نوح وموسى - عليه السلام - شكرا لله .

فقال النبي - ﷺ - « أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم » . فصامه ، وقال لأصحابه : من كان أصبح منكم صائنا فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه « ^(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا للقوم الظالمين .
 أى : هلاكا وسحقا وطردا من رحمة الله - تعالى - للقوم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : ﴿ وبعدا ﴾ مصدر بعد - بكسر العين - ، يقال بعد بعدا - بضم فسكون - وبعداً - بفتحتين - إذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء ، وهو منصوب على المصدر بفعل مقدر . أى : وقيل بعداً بعدا ... « ^(٢) .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة في هذه الآية كلما طويلا ، نكتفى بذكر جانب مما قاله في ذلك الشيخ القاسمى في تفسيره .

قال - رحمه الله - ما ملخصه : « هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان بإبراز ذلك ، ومن أوسعهم مجالا في مضار معارفها

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٠٠ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٧ .

الإمام « السكاكي » فقد أطلّ وأطنب في كتابه « المفتاح » في الحديث عنها .
فقد قال - عليه الرحمة - في بحث البلاغة والفصاحة :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فأذكر لك على سبيل الأنموذج ، آية
أكشف لك فيها من وجوهها ما عسى أن يكون مستورا عنك ، وهذه الآية هي قوله -
تعالى - ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء ألقى ، وغيض الماء ، وقضى
الأمر ... ﴾ .

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، ومن
جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان .. فتقول : إنه - عز سلطانه - لما أراد أن يبين معنى
هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ،
وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض لما أراد ذلك : بنى الكلام على التشبيه ، بأن شبه
الأرض والسماء بالمأمور الذي لا يتأتى منه أن يعصى أمره .. وكأنها عقلاء مميزون فقال :
﴿ يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء ألقى ... ﴾

ثم قال : ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء
بالأرض ، باتصال الملك بالمالك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذي هو ترك الفاعل للفعل .

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني ... فذلك أنه اختير ﴿ يا ﴾ دون سائر أخواتها ،
لكونها أكثر في الاستعمال ... واختير لفظ « ابلعي » على « ابتلعي » لكونه أخصر . ثم أطلق
الظلم ليتناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى . نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها
ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى الارتداد ، بل
إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ،
فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما ترى عربية ، مستعملة
جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة .

ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت ^(١) .

(١) راجع تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٤٤٦ وتفسير المنار ج ١٢ ص ٩٠ .

ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه في هذه السورة ، بتلك الضراعة التي تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذي رد به الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه قال - تعالى - :

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
 ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾
 قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي
 مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
 تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْوُحُ
 أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ
 وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
 مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
 مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿٤٩﴾

والمزاد بالنداء في قوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ .. الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى -

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها .

أى : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه السلام عن الركوب معه في السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .. تضرع نوح - عليه السلام - إلى ربه فقال في استعطاف ورجاء :

يارب ! إن ابني « كنعان » ﴿ من أهلي ﴾ فهو قطعة مني ، فأسألك أن ترحمه برحمتك ﴿ إن وعدك الحق ﴾ أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق وأنت - ياربى - قد وعدتني بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصبى أطمع فى عفوك عن ابني وفى رحمتك له .

وقوله : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ أى : وأنت يا إلهى - لا زاد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كمال العلم والحكمة .

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : ﴿ رب إن ابني من أهلى . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تادباً مع الله - تعالى - وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريد ، وخبير بما يجول فى نفسه . وهذا لون من الأدب السامى ، سلكه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم لربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك !!

ولعل نوحا - عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه الكافر ممنوع ، فكان حاله فى ذلك كحال النبى - ﷺ - عندما قال لعمه أبى طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى .. ﴾^(١) .

وقال الشيخ القاسمى : وإنما قال نوح ذلك - أى : رب إن ابني من أهلى .. ألخ - لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائه - تعالى - بقوله : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ رد من الله - تعالى - على نوح فيما طلبه منه .

أى : قال الله - تعالى - مجيباً لنوح - عليه السلام - فيما سأله إياه : يا نوح إن ابنك

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة ج ٦ ص ٣٦ .

(٢) تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٤٤٨ .

هذا ﴿ ليس من أهلك ﴾ لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره . فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه ، لخلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلا أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زنية .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، ثم قال : وقوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذى لا محيد عنه : فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة^(١) .

وجملة ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لنفى الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة في ذمه حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمدوامته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب ﴿ عمل ﴾ بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى - أى : إنه عمل عملاً غير صالح وهو الكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك ومعتمدك من الأبعاد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أسس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك^(٢) .

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين ، لا جرم نفاه الله - تعالى - بأبلغ الألفاظ وهو : قوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾^(٣) .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٣ .

والفاء في قوله : ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم .. ﴾ للتفريع .

أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتصبا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تثبت من صحة ما تطلبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال في المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .

أى : إني أنهارك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بين الله - تعالى - أن نوحا - عليه السلام - قد تنبه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه - سبحانه - فقال : ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم .. ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - ملتصبا بالصفح من ربه : رب إني أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولا تنق ﴿ وإلا تغفر لى ﴾ ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .
﴿ وترحمنى ﴾ برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

﴿ أكن من الخاسرين ﴾ الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك . ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. ﴾ .

والسلام : التحية المقرونة بالأمان والاطمئنان ، وأصله السلامة ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير وناؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركه أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها .

والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن أنجاهم الله - تعالى -

بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك ..

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يا نوح اهبط بسلام .. ولكن جاء التعبير بقيل ، مسaire للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك .. ﴾ وقوله : ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

وقوله ﴿ اهبط بسلام .. ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم . والتعبير بقوله ﴿ منا ﴾ لزيادة التكريم ، وتأكيد السلام . أى : انزل بسلام ناشئ من عندنا ، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا . وقوله ﴿ عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ متعلق بسلام وبركات .

وفى هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأمم ستمتعهم ثم يمسه منا عذاب ألیم ﴾ كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله .

أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح .

وقسم آخر ستمتعهم فى الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب ألیم بسبب جحوده لتعمنا ، وعصيانه لرسولنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى . ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة ، بقوله : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحىها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفصيلها أحد سوانا .

ونحن ﴿ نوحيا إليك ﴾ ونعرفك بها عن طريق وحبنا الصادق الأمين .
 وهذه القصة وأمثالها ﴿ ما كنت تعلمها ﴾ أنت يا محمد ، وما كان يعلمها ﴿ قومك ﴾
 أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .
 ﴿ من قبل ﴾ هذا الوقت الذي أوحيناها إليك فيه .
 وما دام الأمر كذلك ﴿ فاصبر ﴾ صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما
 صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ تعليل للأمر بالصبر .
 والعاقبة : الحالة التي تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير كما في
 قوله - تعالى - ﴿ والعاقبة للمتقوى ﴾ . وأل فيها للجنس ، واللام في قوله ﴿ للمتقين ﴾
 للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل
 مالا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى .
 والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتتان على
 النبي - ﷺ - والموعظة ، والتسلية .

فالامتتان نراه في قوله - تعالى - ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ .
 والموعظة نراها في قوله - سبحانه - ﴿ فاصبر ﴾ .
 والتسلية نراها في قوله - عز وجل - ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ .

وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت في هذه السورة الكريمة ، ومن العبر
 والعظات والهدايات والحقائق التي نأخذها منها ما يأتي :

١ - الدلالة على صدق النبي - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند
 الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من
 القصص ، التي هي من أنباء الغيب ، والتي لا يعلم حقيقتها وتفصيلها أحد سوى الله - عز
 وجل - .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب
 وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده في الليل وفي النهار . وفي السر وفي
 العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقه ، وورغبتهم في الإيمان بشتى ألوان الترغيب ،
 وحذرهم من الكفر بشتى أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم

وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم .. مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنت .

وما أحوج الدعاء إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم لن ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة والأنساب لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ : « وفي هذه الآية تسلية للأبء في فساد أبنائهم وإن كان الأبء صالحين » ، فقد روى أن ابنا لمالك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك فقال : « الأدب أدب الله ، لا أدب الأبء والأمهات ، والخير خير الله ، لاخير الأبء والأمهات .. »^(١) .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما قال صاحب المنار معصية لله - تعالى - خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ في اجتهاد رأى بنية سالحة .

وإنما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشرى ، وما غرس في الفطرة من الرحمة والرفقة بالأولاد إلى اتباع الظن ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله - إياهم - بعد أن ، بما يصعدون به في معارج العرفان^(٢) .

٥ - إن القرآن في إيراده للقصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها ، أما ماعدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .

فمثلا في قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التي قضاها نوح في صنع السفينة . ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ، ولا لتفاصيل الأنواع التي حملها معه في السفينة ، ولا لبيان الفترة التي عاشها نوح ومن معه فيها .

ولا لبيان المكان الذي هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على الجودي .. ولا لبيان

(١) تفسیر القرطبی ج ٩ ص ٤٧ .

(٢) تفسیر المنار ج ١٢ ص ٨٦ .

الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض .

وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان . وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى فى هذا الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض .

وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذة عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصوصا قطعية عندنا^(١) .

٦ - أن سنة الله - تعالى - فى خلقه لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .

فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة مالمقى من الأذى ... ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه : « ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله - سبحانه - .

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما .

إن هذه الحفنة - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، قد استحقت أن يغير الله لها المؤلف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شيء ... وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها .

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم .

إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى

إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له أن يقبس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى ، وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - ، وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !! .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤديوا واجبهم كاملا ، ثم يتركوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ .

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون .. والعاقبة للمتقين «^(١)» .

ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ عَادٍ

أَخَاهُمْ هُودًا قَالِ يَنْقُومُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ
غَيْرِهِ إِنَّا نَمُرُّوكُمْ إِلَّا مُمْفَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِنَّا أَجْرِيكَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِيكَ الْهِنَاءِ عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠

إِنَّ تَقْوَلِ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضُ الْهَتِنَا بِسُوءِ قَالِ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
 وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۖ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي
 جَمِيعًا تَمَّ لَا تُنظِرُونَ ۖ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
 مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ
 رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
 ۖ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي
 نُرْسِلُكَ فِيهَا وَتَتَّبِعُوا ۚ وَأَتَّبِعُوا أَمْرًا كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ وَأَتَّبِعُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَتَّبِعُوا
 بَعْدَ الْعَادِ قَوْمَ هُودٍ ۖ

تلك هي قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكمتها هذه السورة ، وقد وردت قصته
 معهم في سور أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ، والأحقاف .
 وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو - كما قال بعض المؤرخين - :
 هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح ^(١) .
 وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم - ، وكانت مساكنهم
 بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالي
 جنوب الجزيرة العربية .
 وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله إليهم لهدايتهم .

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار .

ويقال إن هودا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينها زهاء مائة سنة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على قصة نوح التي سبق الحديث عنها .

أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ، أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودا ، فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ .

ووصفه - سبحانه - بأنه ﴿ أخاهم ﴾ لأنه من قبيلتهم في النسب ، أو لأنه أخوهم في الإنسانية وناداهم بقوله : ﴿ يا قوم ﴾ زيادة في التلطف معهم ، استجلابا لقلوبهم ، وترضية لنفوسهم ، .وجملة ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ في معنى العلة لما قبله .

أى : أنا أمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحييكم ويميتكم .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا شبهة لصاحبه في النطق به .

أى : ما أنتم إلا متعمدون للكذب في جعلكم الألوهية لغير الله - تعالى - .

ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا في مقابل دعوته إياهم إلى الحق فقال : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني ... ﴾ .

وفطرني : أى خلقني وأبدعني على غير مثال سابق ، يقال : فطر الأمر . أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر : الشق ، ثم استعمل في الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقني بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء .

ومقصده من هذا القول ، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك في نفوسهم ، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجعله موسرا فيهم ..

والهمزة في قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على محذوف .

أى : أتجهلون ما هو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله - تعالى - رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدهم إلى ما يودى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر

فقال : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذه على الخطايا :
 والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه في الماضي .
 أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .

وتم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك : مقدم على طلب المغفرة .

وجملة ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ جواب الأمر في قوله ﴿ استغفروا ﴾ .
 والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشئ باسم مصدره .
 ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلان اللين وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير يقال :
 درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثر نزول المطر منها .
 وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هودا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه ..
 فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعا في أوقات حاجتكم إليه ؛
 لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم .

وجملة ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ معطوفة على ما قبلها .

أى : وأيضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزا إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التي
 عرفتم بها ، وهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة .

قال الآلوسى : « رغبتهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا
 أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسايتهم ثلاث
 سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة
 بالتناسل ... »^(١) .

^١ (١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٧٣ .

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ والتولى : هو الإعراض عن الشيء بإصرار وعناد .

أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من إجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضع لقومه دعوته ، ورجبهم في الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، توددا إليهم ، وتذكيرا لهم بأصرة القرابة التي تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

ولكن قوم هود - عليه السلام - قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة .. ﴾ .

والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل . أى : قالوا له يا هود إنك لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعو إليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نحن بتاركى آهتنا عن قولك ﴾ .

أى : وما نحن بتاركى آهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقولهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى : بمستحيين لك ومصدين .

ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : « إن نقول إلا اعتراضك بعض آهتنا بسوء ... » .

ومعنى اعتراضك : أصابك ومسك . يقال عراه الأمر واعتراه أى أصابه ، وأصله من قولهم : عراه يعروه ، أى : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك هزة ... أى : تصيبني .

أى : ما نحن بتاركى آهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك أن تياس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التي نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته نحوك ، فيصيبك بالجنون والهديان والأمراض .

ولم يقولوا : « اعتراضك آهتنا بسوء » بل قالوا : ﴿ بعض آهتنا ﴾ تهديدا له وإشارة إلى

أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكاً .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها من السوء إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقيح .. مما يدل على توغلهم في الطغيان ، وبلوغهم النهاية في العناد والكفر والحجود .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .. » .
 أى : مسك بجنون لسبك إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين .
 ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يباليون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم ... »^(١) .

والآن وبعد أن استمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم ؟
 لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم والمعتمد على الله - تعالى - وحده في الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :
 ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ .

أى : قال هود - عليه السلام - للطفاة من قومه بعزة وثقة ﴿ إني أشهد الله ﴾ الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .

﴿ واشهدوا ﴾ أنتم أيضاً على ﴿ أنى برىء مما تشركون من دونه ﴾ .

أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها لغير الله - تعالى - لأنها عبادة باطلة . يحقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم ، وبراءته من شركهم ، وإستخفافه

بأصنامهم التي زعموا أن بعضها قد أصابه بسوء ، ويوثق هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك على أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت في حقك كذا وكذا ... فافعل أنت ما بدا لك !!

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول : ﴿ فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ﴾ .

أى : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم ، وهأنذا في مواجهتكم ، فانضموا إلى أهتكم ، وحاربوني بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إهمال ، فإنى لن أكف عن الجهر بدعوتى ، ولن أتراجع عن احتقار الباطل الذى أنتم عليه .

وهذا - كما يقول صاحب الكشاف - من أعظم الآيات ، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لتقته بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبتهم ..^(١) .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة من شركهم ، وإلى عدم المبالاة بهم فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ... ﴾ .

أى : إني فوضت أمرى إلى الله الذى هو ربي وربكم ، ومالك أمرى وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون شيء الا بإرادته ومشئته .

وفى قوله : ﴿ ربي وربكم ﴾ مواجهة لهم بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له ، وأنه إنكار عن جحود وعناد .. فهو - سبحانه - ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ تصوير بديع لشمول قدرته - سبحانه - والأخذ : هو التناول للشئ عن طريق الغلبة والقهر .

والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .

قال الإمام الرازى : واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخطبوا فى القرآن بما يعرفون ..^(٢) .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٣ .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٦ .

والمعنى : إني اعتمدت على الله ربي وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله - تعالى - مالکها وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه .
وفي هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم . وصلابة أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم .. فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : إنكم مهما بلغتكم من القوة والبطش ، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربي بناصيتها . ويقهرها بقوته قهراً يهلكها - إذا شاء ذلك - فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توکلی على الله ربي وربكم !؟

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ .
أى : إن ربي قد اقتضت سنته أن يسلك في أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه - حاشاه - أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان متمسكا بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه - سبحانه - يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى .

ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ... ﴾ .

أى : فإن تولوا عن دعوتي ، وتعرضوا عن الحق الذي جئتكم به من عند ربي ، فتكون عاقبتكم خسرا ، وأمرکم فرطا .

أما أنا فقد أدت واجبي ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربي بدون تكاسل أو تقصير . وقوله ﴿ ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ﴾ وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .

أى : وهو - سبحانه - سيهلككم بسبب إصراركم على كفركم في الوقت الذي يشاؤه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم، يرثون دياركم وأموالكم، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للدمار في الدنيا ، وللعذاب الدائم في الآخرة .

وقوله : ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أى : إن ربي قائم على كل شيء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رسله وأوليائه ، وأن يخذل أعداءه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقَت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، جانباً من الحوار الذي دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدال ؟ لقد كانت نتيجته إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم .

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ . والمراد بالأمر في قوله - سبحانه - ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ الأمر بنزول العذاب بهم .

أى : وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا في قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم ﴿ نجينا هودا والذين آمنوا معه ﴾ تنجية مصحوبة ﴿ برحمة ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

﴿ ونجيناهم ﴾ كذلك ﴿ من عذاب غليظ ﴾ أى : من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ووصف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام ، ومن تفاخر بالقوة . قال - تعالى - ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... ﴾^(١) .

وكان عذابهم كما جاء في آيات أخرى بالريح العقيم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثنائية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. ﴾ .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - ﴿ وتلك عاد ... ﴾ يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التي خلفوها من بعدهم . أى : وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود - عليه السلام - وتلك هي عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم ، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا ، وبعدوا عن الأنظار والأفكار ، وقد كانوا يقولون : من أشد منا قوة .

وقوله : ﴿ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .. ﴾ بيان لجرائمهم التي استحقوا بسببها العذاب الغليظ .

وألجحد : الإنكار الشديد للحق الواضح .

وآيات ربهم : الحجج والبراهين التي جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم .
والجبار : هو الشخص المتعالى المتعاضم على الناس ، المترفع عن الاستجابة للحق .
والعنيد : المعاند الطاغى الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .
أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ،
وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند
منهم ، بدون تفكر أو تدبر .

وقال - سبحانه - ﴿ وعصوا رسله ﴾ مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود - عليه
السلام - ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعا ، لأنهم قد جاءوا
برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله - تعالى - وحده ، والتقىد بأوامره ونواهيه .
والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلا لا رسولا .
وقد وصفهم - سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح
والشناعة : أولها : جحودهم لآيات ربهم . وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر
رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا
لعنة ويوم القيامة ﴾ .
والإتباع : اقتفاء أثر الشيء بحيث لا يفوته . يقال : أتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره لكى
يدركه أو يسير على نهجه .
واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرود من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .
وقوله : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ تسجيل لحقيقة حالهم ،
ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيد لسخط الله عليهم .
أى : ألا إن قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء
جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى .
وتكرير حرف التنبيه « ألا » وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة فى تهويل حالهم وللحض على
الاعتبار والاتعاظ بمآلهم .

هذا ، ومن العبر البارزة فى هذه القصة :

١ - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعويين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، ويرغبهم في اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم .

وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .

انظر إلى قول هود - عليه السلام - : ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ . يرسل الساء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

٢ - وأن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - في تبليغ رسالته ، ويفار عليها كما يفار على عرضه أو أشد .

فإنه في هذه الحالة سيقف في وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم .. لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر في قصة هود عليه السلام .

ألا تراه وهو رجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين ، يدلون بقوتهم ويقولون في زهو وغرور : من أشد منا قوة .

ومع كل ذلك عندما يتناولون على عقيدته ؛ ويأمرهم قد أصروا على عصيانه .

يواجههم بقوله : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ . من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون .. ﴾ .

أرأيت كيف واجه هود - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق الذى يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم .. ؟

وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب .. يجعل الإنسان يجهر به دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى - .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ

يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التي بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذي كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم .

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام فقد قال - سبحانه - : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهوها قصورا ، وتنتحون الجبال بيوتا .. ﴾^(١) .

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - اليهم صالحا ليأمرهم بعبادة الله وحده . وقوله : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على ما قبله من قصتي نوح وهود - عليهما السلام -

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب والموطن صالحا - عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التي قالها كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذي خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكروهم بقدرة الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ .

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشيء على غير مثال سابق .

واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا في المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم العمرين لها ، والساكين فيها ﴿ تتخذون من سهوها قصورا ، وتنتحون الجبال بيوتا ... ﴾ .

قال - تعالى - فى شأنهم .. ﴿ أتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . ووزوع ونخل طلعتها هضيم . وتنتحون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ﴾^(٢) .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد ذكروهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضاله عليهم ، لكى يستميلهم إلى التفكير والتدبر ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم إليه . والفاء فى قوله ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ للتفريع على ما تقدم .

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦ - ١٥٠ .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة ، وأن تطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب .

ثم تتوبوا إليه توبة صادقة : تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾ .
أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب الدعاء الداعين المخلصين ، فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا رجلا فاضلا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلك وعقلك وصدقك .. قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجائنا فيك ، وصرت فى رأينا رجلا مختل التفكير .
فالإشارة فى قوله ﴿ قبل هذا ﴾ إلى الكلام الذى خاطبهم به حين بعثه الله إليهم .
والاستفهام فى قولهم ﴿ أتتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ للتعجب والإنكار .

أى : أجيئنا بدعوتك الجديدة لتتهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا من قبلنا ؟ لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير .
ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : ﴿ وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ .
ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، ورب عظيم من صحة ما تدعوننا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ، ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ .

أى قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى .

﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ أى : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارني لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .

وجملة ﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ جواب الشرط وهو قوله ﴿ إن كنت على بينة ﴾ .

أى : إذا كان الله - تعالى - قد منحني كل هذه النعم ، وأمرني بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذى يجبرني ويعصمني من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ، ومسايرة لكم فى باطلكم ؟

لا ، إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر ، يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران . أى : فما تزيدوننى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

فآية الكريمة تصور تصورا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته ومن حرص على طاعته - سبحانه -

ثم أُرشد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية .. ﴾ أى : معجزة ، واضحة دالة على صدقى وفى إضافة الناقة إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتشريف لها ، وتنبيه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التى تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . مالا يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفى بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة مميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبيهم - عليه السلام - فيما يدعوهم إليه .

وقوله : ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ﴾ أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره .

أى : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل في أرض الله الواسعة ؛ ومن رزقه الذى تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشيء من السوء مها كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .
 والتعبير بقوله ﴿ فإخذكم ﴾ بفاء التعقيب وبلفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ، بل قابلوه بالطغيان والعصيان ، ﴿ فعقروها ﴾ أى : فعقروا الناقة ﴿ وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾^(١) .

والفاء معطوفة على محذوف : أى فخالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فعقروها أى نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر لأن ناجر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ .
 والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج إليه الإنسان في هذه الحياة من مأكول ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التى يعيشون فيها .

أى : قال لهم نبيهم بعد نحرهم للناقة : عيشوا في بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهى آخر ما بقى لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

﴿ ذلك ﴾ الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .

﴿ وعد غير مكذوب ﴾ فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذى لا يخلف وعده .

وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .

قال الجمل : « ومكذوب » يجوز أن يكون مصدراً على وزن مفعول ، وقد جاء منه ألفاظ نحو : المجلود والمعقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابيه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعاً مستتراً في الصفة ومثله : يوم مشهود . والثانى : أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق^(٢) .

ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب في الوقت الذى حدده لهم ، قال

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٠٨ .

- تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى : فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .
 ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا .
 ونجيناهم أيضاً ﴿ من خذى يومئذ ﴾ أى : من خذى وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذى
 نزل فيه العذاب بالظالمين من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم .
 فالتنوين فى قوله ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف .
 وقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ تسليية للرسول - ﷺ - وللمؤمنين
 عما أصابهم من أذى .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شئ ، العزيز الذى
 لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبتئس عما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل
 بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويرا يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال :
 ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن
 ثمود كفروا ربهما ألا بعدا لثمود ﴾ .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك
 تشقيق الصوت ، من قولهم : انصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت .
 و ﴿ جاثمين ﴾ : من الجثوم وهو للناس وللطير بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر
 يجثم جثا وجثوما فهو جاثم .. إذا وقع على صدره ، ولزم مكانه فلم يبرحه .
 ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يعنى إذا أقام به وعاش فيه فى
 نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - عن طريق الصيحة الشديدة
 التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - ﴿ فأصبحوا ﴾ بسببها ﴿ فى ديارهم جاثمين ﴾ أى :
 هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ...

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلاً
 وهم فى رخاء من عيشهم .

﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهما ألا بعدا لثمود ﴾ أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ،
 كفروا نعمة ربهما وجحودها ؛ ألا بعدا وسحقا وهلاكاً لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .
 وفى تكرار حرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وتكرار لفظ ﴿ ثمود ﴾ تأكيد لطردهم من رحمة الله ،

وتسجيل لما ارتكبه من منكرات .

وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التي نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت في هذه السورة الكريمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست ، تعجب مما لا عجب فيه ؛ وتستنكر ما هو حق وصدق ، وتسيء ظنّها بالشخص الذي كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاهم بما لم يألفوه ... حتى ولو كان ما أتاهم به فيه سعادتهم وهدايتهم ... فصالح - عليه السلام - كان مرجوا في قومه قبل أن يكون نبياً ، فلما صار نبياً وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملمهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجأهروه بالعداوة والعصيان ... مع أنه أتاهم بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (١) .

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - ﷺ - قد مر على ديار ثمود وهو في طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله - ﷺ - بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .

ثم ساقَت السورة الكريمة جانباً من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ وَأَمْرُهُ قَابِئَةٌ
 فَضَحِكْتُمْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٦﴾
 قَالَتْ يَتُوبَلْتِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
 لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ
 وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
 عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٩﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٨٠﴾ يَتَابِرْهِمٌ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِلْبُشْرَىٰ وَإِنَّهُمْ لَمُتُونَ لَوْلَا
 دَاوُدُ ﴿٨١﴾

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ،
 وبإخباره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام - .

وقد وردت هذه القصة في سور أخرى منها سورة الحجر في قوله - تعالى - : ﴿ وَبَشِّرْهُمْ
 عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ... ﴾ ^(١) .

ومنها سورة الذاريات في قوله - تعالى - ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ
 دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ ... ﴾ ^(٢) .

والمراد بالرسول في قوله - سبحانه - ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ جماعة
 من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .

وقد اختلفت الروايات في عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم : جبريل وميكائيل
 وإسرافيل . وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدي أنهم كانوا أحد عشر ملكًا ..

والحق أنه لم يرد في عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله
 - تعالى - .

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٠ .

(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله - سبحانه - ﴿ بالبشرى ﴾ للمصاحبة والملابسة ، أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ حكاية لتحيتهم له ولرده عليهم .

﴿ وسلاما ﴾ منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما .

﴿ وسلام ﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائى : قال سلم وهو اسم للمسألة .

ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم فقال : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ .

و « ما » فى قوله ﴿ فما لبث ﴾ نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث فى المكان معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض . يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذاً أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرد أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ ...

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب فى إعراب ﴿ فما لبث أن جاء ... ﴾ أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ و ﴿ أن جاء ﴾ فاعل لبث والتقدير ؛ فما تأخر مجيئه ...

ويجوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف الجر ، أى فما تأخر فى أن جاء بعجل حنيذ ...^(١) .

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ﴿ فلما

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٥ ص ٢٤١ طبعة دار الفكر بيروت .

رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ﴿ .
ومعنى ﴿ نكرهم ﴾ : نفر منهم ، وكره تصرفهم . نقول : فلان نكر حال فلان - كعلم -
وأنكره نكرًا ونكورًا ... إذا وجدته على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

﴿ وأوجس ﴾ من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف
والفرع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ،
نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفًا ورعبًا ؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام
مضيفه - بدون سبب مقنع - يشعر بأن هذا الضيف ينوى شرًا به ... والتقاليد فى كثير من
البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قالت الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف : ﴿ لا تخف إنا
أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

أى : لا تخف يا إبراهيم فإننا لسنا ضيوفًا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى -
أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء فى بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففى سورة الحجر قال - تعالى - :
﴿ ونبتهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم وجلون . قالوا
لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ... ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : ﴿ وامراته قائمة فضحكت فبشرناها
بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

والمراد بامراته - كما يقول القرطبي - « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن
أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم »^(١) .

وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف ... أو لغير ذلك من الأمور
التي تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقته . أى : فضحكت سرورًا وابتهاجًا بسبب زوال الخوف عن
إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا ...

قال الشوكاني : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب والسرور كما قاله
الجمهور .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :
 وإني لآقي العرس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكا
 وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت^(١) .

أى : وفي أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ... كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك « ضحكت » سروراً وفرحاً لزوال خوفه ﴿ فبشرناها ﴾ عقب ذلك بمولودها ﴿ إسحاق ﴾ كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله ﴿ يعقوب ﴾ ، فهى بشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل في طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيائها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ ياويلتنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴾ .

وكلمة ﴿ ياويلتنا ﴾ تستعمل في التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه . والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهى كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتعجبن منه .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ، ﴿ وهذا بعلى ﴾ أى : زوجى إبراهيم « شيخاً » كبيراً متقدماً فى السن .

قال الجمل : وهاتان الجملتان - ﴿ وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ﴾ - فى محل النصب على الحال من الضمير المستتر فى ﴿ أألد ﴾ ، وشيخاً حال من بعلى ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل^(٢) .

وقوله - كما حكى القرآن عنها - ﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ أى : إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة ﴿ لشيء عجيب ﴾ فى مجرى العادة عند النساء وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ !!

أى : أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة ؟ لا إنه لا ينبغى لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله لا يعجزها شيء . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥١٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١١ .

وقوله: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ حكاية لما قالته الملائكة لها ، زيادة في سرورها وفي إدخال الطمأنينة على قلبها .

أى رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور المخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ . أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والكلام مستأنف علل به إنكار التعجب . كأنه قيل : « إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم »^(١) .

وقوله - سبحانه - ﴿إنه حميد مجيد﴾ تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أى إنه - سبحانه - ﴿حميد﴾ أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده ﴿مجيد﴾ أى : كريم واسع الإحسان ، فليس بعيداً منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبر .

قال صاحب المنار ما ملخصه : وأصل المجد في اللغة أن تقع الإبل في أرض واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال : مجدت الإبل تمجد من باب نصر - مجداً ومجادة ، وأمجدها الراعى . والمجد في البيوت والأنساب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نواهم . ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ، وسعة كرمه وفضله على عباده ... »^(٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن إلى ضيوفه فقال : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أى : الخوف والفرع ، بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

﴿وجاءته البشرى﴾ منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٣٠ .

بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ أى : يجادل رسلنا ويحاورهم في شأن قوم لوط ، وفي كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاكهم .
وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى مجادلة في تنفيذ أمره - تعالى - .
وقال - سبحانه - ﴿ يجادلنا ﴾ مع أنها كانت في الماضى ، لتصوير هذه الحالة في الذهن تصويراً حاضراً ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، قد حكاها - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أى القرية التى يسكنها قوم لوط ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ الآيتان ٣١ - ٣٢ .

وهذا التفسير للمجادلة التى دارت بين إبراهيم والملائكة فى عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .

وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .
وقوله - سبحانه - ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ بيان للدواعى التى حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة فى شأن إهلاك قوم لوط .
والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .
والأواه : هو الذى يكثر التأوه من خشية الله .

قال الآلوسى : وأصل التأوه قوله : آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا رسول الله ما الآواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الكثير الدعاء »^(١) .

والمنيب : السريع الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .
أى أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إليه فى كل ما يجبه ويرضاه .

ولكن حلم إبراهيم وإنابته ... لم يرد قضاء الله العادل فى شأن قوم لوط ولذا قالت الملائكة

له - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الجدل في أمر قوم لوط ، وفي طلب إمهال عقوبتهم ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بإهلاكهم ﴿ وإنهم ﴾ بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش ﴿ آتيهم ﴾ من ربهم ﴿ عذاب ﴾ شديد ﴿ غير مردود ﴾ عنهم لا بسبب الجدل ولا بأى سبب سواه ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد .

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة - أيضاً - لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : ﴿ قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

ومنها : استحباب نزول المبرش - بالكسر - على المبرش - بالفتح - لأن الملائكة أرسلهم الله - تعالى - لذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبرش أن يتلقى البشارة بالشكر لله - تعالى - على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغي أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ﴿ سلام ﴾ بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .
ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة ؛ أى فى خدمة أضياف إبراهيم ... وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فىكون أزواجه - ﷺ - من أهل بيته^(١) :

ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر

إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح اسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها^(١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال - تعالى - :

وَلَمَّا

جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُهُمْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا
يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا
مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَّطْنَا عَلَيْهَا
حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

- تلك هي قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه ومع قومه المجرمين ، كما حكمتها سورة هود .

- وقد وردت هذه القصة في سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأعراف ، والحجر ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصفات ، والذاريات ، والقمر ..

قال الإمام ابن كثير : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، فهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن أحد من بنى آدم يعهده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهم قرية بوادى الأردن عليهم لعائن الله ^(١) .

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ... ﴾ .

- أى : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم ..

قال ابن كثير ما ملخصه : « يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم .. فأتوا لوطاً - عليه السلام - وهو على ما قيل في أرض له . وقيل في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم ... » ^(٢) .

- وقوله : ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ تصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبي : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه القىء أى غلبه .

أى : ضاق عن حبسه المكروه في نفسه .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٦ .

وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جاهلهم ، وما يعلمه من فسوق قومه ... »^(١) .
 - و ﴿ ذرعا ﴾ تمييز محمول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .
 ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ : أى وقال لوط - عليه السلام - فى ضجر وألم : هذا اليوم
 الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم « عصيب » أى : شديد هوله وكربه .
 وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر
 والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن يديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب
 حصولها فى الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص
 منه ، فإذا علم أنه لا مخلص له منه ضاق به ذرعاً . ثم يصدر تعبيراً عن المعانى يريح به
 نفسه^(٢) .

- ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء
 الضيوف عنده فقال : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه . ومن قبل كانوا يعملون
 السيئات ... ﴾ .

- وهرعون - بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أى : يدفع بعضهم بعضاً
 بشدة ، كأن سائقاً يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .
 يقال : هرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فيها - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى
 ذلك .

قال الآلوسى : والعامية على قراءته مبنياً للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع
 البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ،
 كأن بعضه يدفع بعضاً^(٣) .

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق
 بعضهم بعضاً إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجيء ، كان هؤلاء القوم الفجرة ،
 يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .
 وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : ﴿ ومن

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ج ١٢ ص ١٣٥ .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٩٥ .

قبل كانوا يعملون السيئات ﴿ للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة في نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا من أجل قضائها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ ...

والمراد بيناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللاتي يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ؛ لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى نساؤهم ، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم في آية أخرى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ...

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ... وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته وهو أب لهم ...^(١) .

ومنهم من يرى أن المراد بيناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ... ويضعف هذا الرأي أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء في بعض الروايات - وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيراً ، فكيف تكفيهن بنتان أو ثلاثة للزواج ..؟

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال ما ملخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه . منها : أنه قال ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ وبناته اللاتي من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكلى ..

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ... »^(٢) .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : يرجاء ورفق ﴿ يا قوم ﴾ هؤلاء نساؤكم اللاتي بمنزلة بناتي أرجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن فهن أطهر لكم نفسياً وحسبياً من التلوث

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣٢ .

برجس اللواط ، وأفضل التفضيل هنا وهو ﴿ أظهر ﴾ ليس على بابه ، بل هو للمبالغة في الطهر .

قال القرطبي : وليس ألف أظهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ... ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه ... »^(١) .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشاداً آخر فقال : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفى ... ﴾ .

قال الجمل : ولفظ الضيف في الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلاً إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضديها بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : « أضياف وضيوف ... »^(٢) .

وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة . يقال : خزى الرجل يخزى خزيًا ... إذا وقع في بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدهم إلى نساتهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله . ولا تجعلوني مخزياً مفوضاً أمام ضيوفي بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطاً - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرذيلة . فيقف إلى جانبي ، ويصرفكم عن ضيوفي ؟

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علماً لا شك معه ، أننا لا رغبة لنا في النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٣ .

قال الشوكاني : قوله ﴿ مالنا في بناتك من حق ﴾ أى : مالنا فيهن من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكابلة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا في نكاحهن ... «^(١) .

وقولهم : ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علماً يقينياً الشيء الذى نريده فلماذا ترجعنا؟! وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ..

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليبائس من ارعوائهم عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم ... ﴿ قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره .
وآوى : أى ألبأ وأنضوى تقول : أويت إلى فلان فأنا آوى إليه أويًا أى : انضممت إليه .
والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أذفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصاً قوياً من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ...
قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ؛ لأنه كان غريباً عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ أى : إنا رسل

ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك يسوء في نفسك أو فينا .
 روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أديارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - في سورة القمر : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر ﴾ .

وقوله : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أى : فاخرج من هذه القرية مصحوباً بالمؤمنين من أهلك في جزء من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .

قال القرطبي : قرىء « فاسر وفأسر بوصل الهمزة وقطعها لفتان فصيحتان . قال - تعالى - ﴿ والليلة إذا يسر ﴾ وقال « سبحان الذى أسرى بعبده ... ﴾ وقيل « فأسر » بالقطع تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار في آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار ... »^(١) .

وقوله : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم ... ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ فأسر بأهلك ... ﴾ .

أى : فأسر بأهلك في جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ﴿ إلا امرأتك ﴾ يالوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ، ولأنها سيصيها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين . فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله ﴿ إلا امرأتك ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدي : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها^(٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣٦ .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ بشارة أخرى للوط - عليه السلام - الذي تمني النصر على قومه .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدىء من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاءه وقت الشروق .

والجملة الكريمة ﴿ إن موعدهم الصبح ... ﴾ كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدده من استعجاله العذاب هؤلاء المجرمين .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ للتقرير أى : بلى إنه لقریب .

قال الألوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له : أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين^(١) .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

أى : « فلما أمرنا » بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ؛ وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ...

وقوله : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ﴿ من سجيل ﴾ أى : من حجر وطين مختلط ، قد تجمر وتصلب ﴿ منضود ﴾ أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من التضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض .

﴿ مسومة عند ربك ﴾ أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعداداً خاصاً لإهلاك هؤلاء القوم .

﴿ وما هي ﴾ أى تلك القرى المهلكة ﴿ من الظالمين ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ ببعيد ﴾ أى : ببعيدة عنهم ، بل هي قريبة منهم ، ويرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .
قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾^(١) .
أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعضوا ؟؟
ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ﴿ وما هي ﴾ يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هي تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هي حاضرة مهينة بقدرة الله - تعالى - لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول ﷺ .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحاتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام -

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله - ﷺ - « رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب الإنكار على لوط - عليه السلام - فى قوله ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والحق أنه لا تتخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً - عليه السلام - إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه - تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

ولا جناح على لوط - عليه السلام - في طلب قوة من الناس - فقد قال الله - تعالى -
 ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ .

وقد طلب رسول الله - ﷺ - من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على
 لوط أمراً هو فعله !!؟

تالله ما أنكر ذلك رسول الله - ﷺ - ، وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ،
 يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة ... ﴿^(١)﴾ .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب - عليه السلام -
 وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم
 يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :

﴿ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ
 شُعَيْبًا قَالَ يَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ
 وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ
 أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
 بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
 نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
 إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
 وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٌ مِّنْكُمْ
 يَبْعِدُونَ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا أَيَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
 وَإِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّن
 اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ يَمُنُّونَ
 مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
 كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾
 كَان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا ابْعَدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

تلك هي قصة شعيب - عليه السلام - كما حكته هذه السورة الكريمة ، وقد وردت هذه
 القصة في سور أخرى منها : سورتى الأعراف والشعراء ..

ومدين اسم للقبيلة التي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .
وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز والشام .
وأهل مدين يسمون أيضاً بأصحاب الأيكة .

والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية (معان) ، وكان يسكنها بعض الناس
فأرسل الله شعبياً إليهم جميعاً .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم في النسب .
وكان النبي - ﷺ - إذا ذكر شعيب قال : (ذلك خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته
لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون في الكيل والميزان ... فدعاهم إلى عبادة الله
وحده ، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء : أن شعبياً أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ؛
وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله - تعالى - لم يبعث نبياً مرتين
سوى شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنها أمة واحدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة ،
أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أي السحابة - وأن كل عذاب كان كالمقدمة
للآخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ... ﴾ معطوف على ما سبقه من
قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحاً - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم
شعبياً - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم
لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى إليه
مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف في الكيل والميزان فقال :
﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ .

والمكيال والميزان : اسمان للآلة التي يكال بها ويوزن .

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا
باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكانه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتهم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - ﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ... ﴾ .

ثم بين لهم الأسباب التي دعتهم إلى أمرهم ونهيبهم فقال : ﴿ إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل في معاملتكم ، فإني أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون في رغد من العيش ، وفي بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فعن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لوأهبها وهو الله - تعالى - وأن يستعملها استعمالاً يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإني - أيضاً - أخاف عليكم إذا ما تماديتم في مخالفة ما أمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ...

قال الشوكاني : وصف - سبحانه - اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع في اليوم ، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً ^(١) .

فأنت ترى أن شعيباً - عليه السلام - بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم .. ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعاً لعذرتهم حتى لا يقولوا له نحن في حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرتنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حمله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن

النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب في دعوته فقال : ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ ..

أى : وياقوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين في كل أحوالكم العدل والقسط .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ... ﴾ أى : ولا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم . يقال : بخس فلان فلاناً حقه إذا ظلمه وانتقصه . وهو يشمل النقص والعيب في كل شيء ..
والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء ...

قال الجمل ما ملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء .. لأن القوم لما كانوا مصريين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد ، ولا شك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ... ^(١) .

وقوله : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله في غير ما خلقت له .

قال ابن جرير : « وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثى فلان في الأرض يعنى - كرضى يرضى - إذا تجاوز الحد في الإفساد .. » ^(٢) .

أى : ولا تسعوا في أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ثم أرشدكم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

ولفظ ﴿ بقية ﴾ اسم مصدر من الفعل : بقى ، ضد : فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف وتيمن .

أى : ما يبقية الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة في حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط في معاملاتكم ، هو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٤١٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٨ .

وجملة « إن كنتم مؤمنين » معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .
 أى : ما يبقية الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتي لتسعدوا في دنياكم وآخرتكم .

وجملة « وما أنا عليكم بحفيظ » تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .
 أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسيسكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربي بتبليغه ، وهو وحده - سبحانه - الذى سيتولى مجازاتكم .

وإلى هنا نجد شعبياً - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم في عقائدهم ، وفي معاملاتهم ، وفي صلواتهم بعضهم ببعض ، وفي سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتي هي أقوم ..
 فماذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه - كما حكاه القرآن الكريم - طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿ يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له - على سبيل التهكم والاستهزاء - : يا شعيب أصلاتك - التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها - تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا ؟ والاستهزاء للإنكار والتعجب من شأنه ..

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه - عليه السلام - كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه .

وجملة « أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء » إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله في أموالنا من التطفيف في الكيل والميزان ...

إن كانت صلواتك تأمرك بذلك ، فهى في نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك ..

وجملة « إنك لأنت الحليم الرشيد » زيادة منهم في السخرية منه - عليه السلام - وفي

التهمك عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص في الكيل والميزان ، مع علمك اليقيني بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذي يتأني ويتروى في أحكامه ، الرشيد الذي يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟

إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة في الأحكام .

قال صاحب الكشف : وأرادوا بقوله : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليتهاكروا به ، كما يتهمك بالشحیح الذى لا يبض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به ... »^(١) .

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريره !!

ومع كل هذه السفاهة ؛ ترى شعبيا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي .. ﴾ والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستتيرة منحني إياها ربي ومالك أمرى .

﴿ ورزقنى منه ﴾ - سبحانه - ، ﴿ رزقا حسنا ﴾ يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدي ، وفى الحياة الطيبة التى أحيأها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبروني إن كنت كذلك ، هل يلىق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسأيرة لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يلىق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ... ﴾ .

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبنبهى إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد

مخالفتكم ومنازعتكم ومعاستكم ، أو أن آمركم بشيء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا إني لا أريد شيئاً من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولي فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : قوله ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

ويلقأك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى الماء ، يريد أنه ذهب إليه واردا ، وهو ذهب عنه صادراً ، ومنه قوله - سبحانه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم ^(١) .

وقال الإمام ابن كثير ، وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود - رضى الله عنه - فقالت له : أنت الذى تنهى عن الواصلة - أى التى تصل شعرها بشعر آخر - ؟ قال : نعم . فقالت : فلعله فى بعض نساءك ، فقال : ما حفظت إذا وصية العبد الصالح ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ^(٢) .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾ .

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إساءة الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول : ﴿ وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى . ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذراً إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : ﴿ ويا قوم

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٥ .

لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ... ﴿ .
 ومعنى ﴿ لا يجرمنكم ﴾ لا يحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمه عليه .
 أو بمعنى لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب ، غير أنه لا يكون إلا في كسب ما لا خير فيه ،
 ومنه الجريمة ، وهى اقرار الجرم والذنب .
 وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاسب لشيء ينقطع
 له .

وقوله ﴿ شقاقى ﴾ من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن كل واحد من المتعادين في
 شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر ، والشق : الجانب .
 والمعنى ، وبما قوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على ، وعلى التبادى في
 عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم
 هود أو قوم صالح .

وقوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ : تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .
 أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح
 دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب
 جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا ببعيد عنكم لا في الزمان ولا في المكان .
 والمراد بالبعد - فى قوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ - بعد الزمن والمكان والنسب .
 فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .
 وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة بجوار معان بمابلى
 الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت .
 وكان مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسماة باسمه ، متزوجا
 بابنة لوط .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا إليه - سبحانه - وأنابوا فقال :
 ﴿ واستغفروا ربكم ثم تابوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ .
 أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم تابوا إليه توبة صادقة نصوحا :
 ﴿ إن ربي ﴾ ومالك أمرى ﴿ رحيم ﴾ أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ﴿ ودود ﴾
 أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه النصح ، وينوع

لهم المواعظ ، ويطوف بهم في مجالات الترغيب والترهيب ..
ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه ... فقد ردوا على هذه
النصائح الغالية بقولهم : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ... ﴾ .
أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لا نفهم الكثير من
قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم نتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت في دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص
في الكيل والميزان حتى مللنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على
عقولنا ..

فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لا يعياً بحديثه :
لا أدري ما تقول ، ولا أفهم ما تتفوه به من أفاظ .

قال أبو السعود ما ملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ، أى : ما نفهم
مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاعت
عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ... كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل النصائح
البيانات بالسب والإبراق والإرعاد ... إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل ما لا يفهم
معناه^(١) .

ثم قالوا له - ثانيا - ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أى : لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولا
قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .
ثم قالوا له .. ثالثا - ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ ورهط الرجل : قومه وعشيرته
الأقربون . ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه ...

ولفظ (الراهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصاة دون العشرة من الرجال ليس فيهم
امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، ولكن
مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .
ثم قالوا له - رابعا - ﴿ وما أنت علينا بعزیز ﴾ أى : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو
قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف المكروه ...
وهنا نجد شعبيا - عليه السلام - ينتقل في أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى الشدة ، ومن

التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه - سبحانه - فيقول لهم : ﴿ قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ... ﴾ .

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجونى ، أعز وأكرم عندكم من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم ..

﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم بها من لدنه - سبحانه - كالشئ المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب كفركم وطفیانكم ﴿ إن ربى بما تعملون محيط ﴾ أى : إن ربى قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب ﴾ والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشئ مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن ، والأمر فى قوله ﴿ اعملوا ﴾ للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابدلوا فى تهيدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟ .
وإني سأقابل عملكم السئ هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب .. ﴾ استئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .
﴿ وارقبوا ﴾ عاقبة تكذيبكم للحق ﴿ إني معكم رقيب ﴾ أى : إني معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدّة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرّامات الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طفیانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا .. ﴾ .

أى : وحين جاء أمرنا بعدابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .
﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ من قومه ﴿ الصيحة ﴾ التى زلزلتهم وأهلكتهم ﴿ فأصبحوا فى ديارهم ﴾ التى كانوا يسكنونها .

﴿ جاثمين ﴾ أى : هامدين مبتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا ..
من الجثوم وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل ، يقال ، جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .
﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان ...

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد ...
﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ أى : ألا هلاكا مصحوبا بالخزى واللعنة والطرده من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب .. عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليه السلام - .
هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل ويقنع العاطفة ...

ففى هذه القصة نجد شعيبا - عليه السلام - يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله - تعالى - ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التى حملته على ذلك : ﴿ إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .
ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : وبقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين .. « .

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ... ﴾ .

ثم يفتح لهم باب الأمل في عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ .

ثم تراه يشور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذى جاءهم به من عنده - سبحانه - : ﴿ أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم أعملوا على مكاتتكم إني عامل سوف تعلمون ... ﴾ وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول - ﷺ - يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب .. عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملته ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَإِيهِ فَاذْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرْوَدُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ
 الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٩﴾

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب . ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت في حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت في عهد منفتح بن رمسيس الثانى . والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها في قوله - تعالى - « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... »^(١) .

وهى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون العجاف ، ونقص الثمرات ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى ، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبهجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبرائهم ...

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فسادهم والضمير في قوله ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر ، وفي كل ما أشار به من فساد . وفى هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزمخشري - تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال - سبحانه - ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذى صرح به فى قوله - سبحانه - ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ .
والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة رأى ، وجودة التفكير ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتغال أمر فرعون على ما يناقض الرشد والسداد ، ويطابق الغى والفساد .
أى : ما شأن فرعون وأمره بذى رشد وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه وهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه ...

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ .

ويقدم - كينصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال - تقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوماً بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرحل بمعنى مقدمته .
وقوله ﴿ فأوردهم ﴾ من الإيراد وهو جعل الشيء وارداً إلى المكان - وداخلاً فيه .
والورد - بكسر الواو - يطلق على الماء الذى يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .
والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾^(١) .

وقوله وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمته ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح - سبحانه - بلعنتهم فى الدارين فقال : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ ...

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الأخرى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾^(٢) .

(١) سورة غافر الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

وجملة ﴿ بنس الرشد المرفود ﴾ مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة ، أى بنس الرشد هى .

الرشد العطاء والعون يقال رقد فلان فلانا يرفده رفا أى أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه ، أى : بنس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لا يستهم فى الدنيا والآخرة . وسميت اللعنة رفا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع . فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر ...
وبنس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .
ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساقنا لنا تلك القصص حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

- ١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبي قد قال لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما بلغه عن ربه .
 - ٢ - إبراز أن الناس فى كل زمان ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يجاربون الحق ...
 - ٣ - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح ... والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق ...
- قال - تعالى - ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(١) .

ثم ساقنا السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة اشتملت على تعليقات وتعقيبات

متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات ...
 وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التي منها ما هو قائم ومنها ما هو
 حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعضيائهم الرسل ،
 وإصرارهم على الكفر والعناد ، قال - تعالى - :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ ﴿١٠١﴾
 وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّا أَخَذْنَاهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، وهو
 جزء ﴿ من أنباء القرى ﴾ المهلكة .

ونحن نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق ، ليعتبر به الناس ،
 وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذى لا علم لهم به من عند الله .
 وافتتح - سبحانه - الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد ، للتتويه بشأن هذه الأنبياء التى
 سبق الحديث عنها ، وللإشعار بأنها أنبياء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون .
 والضمير فى قوله : منها قائم وحصيد ، يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة
 للتحريض على النظر والاعتبار ، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى الباقية آثارها أم عفى
 عليها الزمن ؟ فكان الجواب : منها قائم وحصيد .

أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها ، كأثار قوم ثمود .
 ومنها ما آثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزراع المحصود الذى استؤصل بقطعه ،
 فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففى هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث شبه - سبحانه - القرى التى بعض آثارها مازال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندثر بالزرع المحصود .
وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه ، أى منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم : .. ﴾ بيان لمظاهر عدله فى قضاؤه وأحكامه .

والضمير المنصوب فى ﴿ ظلمناهم ﴾ يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أى : وما ظلمنا أهل هذه القرى بإهلاكنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسول الذين جاءوا لهدايتهم ...

ثم بين - سبحانه - موقف آلهتهم المخزى منهم فقال : ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك .. ﴾ .

أى : أن هؤلاء المهلكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئا من النفع ... بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فما أغنت ﴾ للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغباوتهم وظلمهم لأنفسهم .

و ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من شىء ﴾ لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تغن عنهم شيئا ولو قليلا من الإغناء ؛ ولم تنفعهم لا فى قليل ولا كثير ...

وجملة ﴿ وما زادهم غير تتيب ﴾ تأكيد لنفى النفع ، وإثبات للضر والخسران .

والتتيب : مصدر تب بمعنى خسر ، وتب فلان فلانا إذا أوقعه فى الخسران .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ تبب يدا أبى لهب وتب ﴾ أى : هلكنا وخسرنا كما قد هلك وخسر

هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى : أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ، ثم إنه - تعالى - أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ، ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد

زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارها ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران»^(١) .

ثم بين - سبحانه - سنته في عقاب الظالمين في كل زمان ومكان فقال : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... ﴾ .

والكاف في ﴿ وكذلك ﴾ بمعنى مثل ، والمراد بالقرى : أهلها الظالمون .
والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل به بسرعة وقوة .
أى : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتي بعدهم وينهج نهجهم .

وجملة ، وهي ظالمة ، في موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفي ذلك ما فيه من التحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوات الآوان .

والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهى الله عنها ، كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ زيادة في التحذير من الوقوع في الظلم .
أى : إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لا هواده فيه ، ولا مخلص منه .

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله - ﷺ - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٢) .

ثم بين - سبحانه - أن ما ساقه في هذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذي ينقسم الناس فيه إلى شقي وسعيد ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
 نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَاتِكَلِمَ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

أى ﴿ إن في ذلك ﴾ القصص الذى قصصناه عليك - يا محمد - والمشمول على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

﴿ آية ﴾ أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة .
 ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، وإيقانه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية ..
 أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرها ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطفغيانهم ...

« لأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا من عقاب ، يزداد إيمانا على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم فى الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ .

واسم الإشارة فى الموضعين ، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك ، واللام فى قوله - سبحانه - ﴿ مجموع له ﴾ لام العلة .

أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على

أعمالهم ، ويشهده جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشاف : و ﴿ الناس ﴾ رفع باسم المفعول الذى هو ﴿ مجموع ﴾ كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس .

فإن قلت : لأى فائدة أوتر اسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادا مضروبيا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه .

ونظيره قول المهدي : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل ...

والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهده ، ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود ، وطعام محضور ... والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام ، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ...^(١) .

ثم قال - تعالى - ﴿ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ .

والأجل فى اللغة : الوقت المضروب لانتهاه مدة معينة ، فأجل الإنسان : هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا تؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقتضت حكمتنا عدم إطلاع أحد على مواعده .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس فيه فقال : ﴿ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ .

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتلبس بالشقاوة . والشقاء :

أى سوء الحال - بسبب إثارة الضلالة على الهداية ، والباطل على الحق ...

والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتي هذا اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، لا تتكلم فيه نفس بأى كلام إلا بإذن الله - تعالى - ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفريطه في حقوق الله .. وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه : وعمله الصالح ..

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التي تنهى الكلام عن كل نفس إلا بإذن الله وبين قوله - تعالى - ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ... ﴾ .

فالجواب : أن في يوم القيامة مواقف متعددة ، ففي بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفي بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفي هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم ، وستشفع لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ... ﴾ أى : يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾^(١) .

وقال - سبحانه - ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾^(٢) .

- في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - في حديث الشفاعة الطويل : - « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم »^(٣) .

ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ .

قال الألوسى : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه ، ومنه قيل للإماء الحاملات الماء : زوافر .

(١) سورة النبا الآية ٣٨ .

(٢) سورة طه الآية ١٠٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩ .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق ، حتى صار في كرب شديد^(١) .

والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا ، فمصيرهم إلى الاستقرار في النار ، لهم فيها من ضيق الأنفاس . وخرج الصدور ، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم . وخص - سبحانه - من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق : تنفيرا من الأسباب التي توصل إلى النار ، وتشبيها لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر ، وتعاسة الحال ...

ثم أكد - سبحانه - خلودهم في النار فقال : ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ... ﴾ .

أى أن الأشقياء لهم في النار العذاب الأليم ، وهم ما يكون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السموات التي تظلمهم ، والأرض التي تقلهم فهو في معنى قوله - تعالى - ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ .

قال الآلوسی ما ملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأييد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، ملاح كوكب ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار ... إلى غير ذلك من كلمات التأييد عندهم ...

وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد قرارهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، ويراد بالسموات والأرض ، سواوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبدا ...^(٢) .

أما قوله - سبحانه - ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ فقد ذكر العلماء في المقصود به أقوالا متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولاً من أشهرها :

أن هذا الاستثناء في معنى الشرط فكأنه - سبحانه - يقول :

١ - خالدين فيها خلوداً أبدياً إن شاء ربك ذلك إذ كل شيء خاضع لمشيئة ربك وإرادته ..

وعليه يكون المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور

(١) . تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٢٦ .

(٢) . تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٢٦ .

إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شيء خاضع لإرادته ومشيتته فهو الفاعل المختار الذى لا يجب عليه شيء ولا حق لأحد عليه ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ .

وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله نفى خلودهم فى النار لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة ولأنه قد أخبرنا - سبحانه - فى كتابه بخلود الكافرين خلوداً أبدياً فى النار .

قال - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾^(١) .

وشبيه بهذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - فى قوله : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ﴾^(٢) . فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله تأدياً معه - سبحانه ..

فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أى ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئاً غير ذلك وهذا من الأدب العالى فى مخاطبة الأنبياء لخالفهم - عز وجل .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال فى معنى الآية ، وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أى : أن هذا الخلود الدائم هو المعد لهم فى الآخرة ... إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى فى قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء فى سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأييدها بمشيئة الله - تعالى .. فقط ، لا لإفادة عدم عمومها ... ﴾^(٣) .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيها من غير استثناء ؟ .

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

(٣) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٦٠ .

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص ٣٢٣ .

والنكته في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .
وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : يعنى أن دوامهم فيها ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - «^(١) .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .
أما ابن جرير فقد قال ما ملخصه بعد أن سرد الأقوال في ذلك :
« وأولى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الضحاك وقيادة من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكباثر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أى العصاة من المؤمنين ... »^(٢) .

وأما ابن كثير فقد وضع ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال ما ملخصه :
وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حين يشفعون في أصحاب الكباثر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - ﷺ - ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا يحيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة «^(٣) .

وقد ذكر الشيخ الشوكاني هذا القول ضمن أحد عشر قولاً فقال ما ملخصه :

وقوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ : قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها :
(أ) أنه من قوله ﴿ ففى النار ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...
(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدین وإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ عاما في الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من

(١) تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٤٨٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨١ .

خالدين ، وتكون ﴿ ما ﴾ بمعنى ﴿ من ﴾ ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(جـ) أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ... »^(١) .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشاء لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ﴿ فعال ﴾ للإشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، ﴿ ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم ، يقال : جذ الشيء يجذّه جذاً ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من الشيء كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ﴾ ... وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأشقياء ، تفصيلاً يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا طريق الأشقياء .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسليّة للنبي - ﷺ - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، وما فيه إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى : .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْذُودٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فَلَاتُكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هُوَ إِلَّا مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
 ءَابَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٠﴾
 وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مَرِيبٍ
 ﴿١١١﴾ وَإِن كَلَّمْنَا لَمَا لِيُوقِفَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١٢﴾ فَاسْتَقَمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْنَا لِلذَّاكِرِينَ
 ﴿١١٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال
 الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول ﷺ - أحوال الكفار من قومه فقال : ﴿ فلأتك في
 مرية .. ﴾ والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن حرف النون إذا
 وقع على طرف الكلام ، لم يبق عند التلظظ به إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه .. «^(١) .
 والمرية بكسر الميم - الشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين .

والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبيننا لك مصير
 السعداء والأشقياء ... ومادام الأمر كذلك ، فلأتك في شك من أن عبادة هؤلاء المشركين

لأصنامهم إنما هي تقليد لما كان يعبد آباؤهم من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - ﷺ - على سبيل التسلية والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحته كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع في النفس ، وأشد تأثيراً في القلب ، لأنه يشعر المخاطب بأن ما بينه وبينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - إنما هو من قبيل القضايا الموضوعية التي لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل فيها فإنما يجادل في الحق الواضح بدافع الحسد والعدا ، لأن الواقع يشهد بصحة ما بينه وبينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - .

وجملة ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ مستأنفة ، لبيان أن الخلف قد ساروا في الجهالة والجحود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت في الماضي بقرينة ﴿ من قبل ﴾ . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن أبناءهم لم ينقطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آبائهم الضالين بدون تفكير أو تدبر .

والمضاف إليه في قوله ﴿ من قبل ﴾ محذوف ، والتقدير : من قبلهم .

وقوله ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ تذييل قصد به تأكيد العقاب الذى سينزل بهم في الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .

وموفوهم من التوفية ، وهى إعطاء الشيء كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا : المقدار المعد لهم من العذاب ، وسماه نصيبا على سبيل التهكم بهم . أى : وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهم آباتهم في عبادة غير الله ، نصيبهم وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شيء منه ، كما ساروا هم على طريقة سلفهم في الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الدنوية والأخرية . قال صاحب المنار : أى ، وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة وأفيا تاما لا ينقص منه شيء ، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ، فإنه ما من خير يعمله أحد منهم كبر الوالدين وصلة الأرحام ... إلا ويوفيههم الله جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا ينقصه شيء يجوزون عليه في الآخرة .. «^(١) .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية الكريمة يؤيده إذ الكلام فيها في شأن جزاء الذين ساروا على نهج آبائهم في الضلال ، وليس في بيان الجزاء العام في الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس في الحق موجود قبل بعثة النبي - ﷺ - فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. ﴾ .

أى : كما اختلف قومك - أيها الرسول الكريم - في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لاختلاف قومك في شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت . فالجملة الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من مشركى قومه .

وجاء الفعل ﴿ اختلف ﴾ بصيغة المبنى للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض ، وإنما الذى يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال . ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ .

والمراد بالكلمة التى سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا .

قال الشوكانى: قوله - سبحانه - ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم .. ﴾ أى : لولا أن الله - تعالى - قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أى : بين قومك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثيب المحق وعذب المبطل ، أو الكلمة : هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأهلهم ولم يعاجلهم لذلك . وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له - ﷺ - «^(١)» .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ . والمريب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة والحيرة .

أى : وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لفي شك منه ، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المعرضين عن الحق ، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه ، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله ﴿ وإني ﴾ إلى قوم موسى ، وفي قوله ﴿ منه ﴾ إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي - ﷺ - والثاني إلى القرآن الكريم . والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أظهر في معنى الآية ، لأن الكلام في موسى - عليه السلام وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلافا كبيرا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول - ﷺ - كانوا في شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول - ﷺ - عما قاله بعض المشركين في شأن القرآن الكريم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب ، الشاكين في صدقه ، سوف يجمعهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ .

وقد وردت في هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة^(١) منها : قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد ، إن ولما ، وقد قيل في تخريجها :

إن لفظ ، ﴿ كلا ﴾ ، اسم ﴿ إن ﴾ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام في ، ﴿ لما ﴾ ، هي الداخلة في خبر ﴿ إن ﴾ وما بعد اللام هو حرف « من » الذي هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكرة موصوفة والمراد بها من يعقل ، فيكون تقدير الكلام : وإن كلا « لمن ما » ، فقلبت النون ميا للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « لما » والجار والمجرور خبر ﴿ إن ﴾ ، واللام في ﴿ ليوفينهم ﴾ ، جواب قسم مضمرة ، والجملة صلة أو صفة ﴿ لما ﴾ .

والتقدير : وإن كلا من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٢٦ وتفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٣٣ .

ليوفينهم - سبحانه - جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ منها .

وفي الآية الكريمة تأكيدات متنوعة ، حتى لا يشك في نزول العذاب بالظالمين مها تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضا - في أن ما عليه المشركون هو الباطل الذي لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذي تلقاه الخلف عن السلف .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية في تلك الفترة التي نزلت فيها هذه السورة - وهي فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة - يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وتوهينا للشرك والمشركين .

قال الإمام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه - تعالى - لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :

أولها : كلمة « إن » وهي للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » وهي أيضا للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » وهي تفيد التأكيد - أيضا - ، ورابعها حرف « ما » إذا جعلناه على قول الفراء موصولا ، وخامسها : القسم المضمّر فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم : وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة في قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق ... »^(١) .
ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال - سبحانه - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ .
والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهي .

والاستقامة - كما يقول القرطبي - هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ... »^(٢) .

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغى الماء ، أى ارتفع وتجاوز الحدود المناسبة .
والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء ، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٧٠ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٣٦ .

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط ، واحذروا ان تتجاوزوا حدود الاعتدال في كل أقوالكم وأعمالكم .

ووجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبي - ﷺ - تنويها بشأنه ، وليبني عليه قوله - ﴿ كما أمرت ﴾ ، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وقد جمع قوله - تعالى - ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أصول الإصلاح الديني وفروعه ، كما جمع قوله - تعالى - « ولا تطغوا » أصول النهي عن المفسد وفروعه ، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفسد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغي ، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك .

وقال الآلوسی : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق . أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه الآية قال - ﷺ - شمروا شمروا ، وما رؤى بعد ضاحكا .

وعن ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - ﷺ - آية أشد من هذه الآية ولا أشق « (١) » .

وفي صحيح مسلم عن سفیان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (٢) .

وجملة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة وللنهي عن الطغيان . أي : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه - مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون ﴾ .

(١) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٣٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٧ .

والركون إلى الشيء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه في قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتقدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله .

والمعنى : واحذروا - أيها المؤمنون - أن تملوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم ؛ لأن ذلك يؤدي إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل .

قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبي إليه .

وقوله ﴿ فتمسك النار ﴾ أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتقاد عليهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ فى موضع الحال من ضمير ﴿ تمسك ﴾ .
أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب النازل بكم ، بسبب ركونكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم .

وتم فى قوله ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين ما لهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فى من يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حماة !!؟

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو الخير . فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا .. «^(١) .

ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى عدم الركون إلى الظالمين ، فقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

والمراد بإقامتها الإتيان بها في أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص لله رب العالمين .
والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبي : لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية ، المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثمانية أركان الإسلام ، وإليها يفرع في النوايب ، وكان النبي - ﷺ - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة « (١) .

وطرفي النهار : أى أول النهار وآخره ، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره .
والنهار : يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمي بذلك لأن الضياء ينهر فيه
أى يبرز كما يبرز النهر .

والصلاة التي تكون في هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهي صلاة الصبح ، وصلاة
العشى وهي صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب .
وقيل الصلاة التي تكون في هذين الوقتين هي صلاة الصبح والمغرب .

وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ معطوف على طرفي النهار .

والزلف جمع زلفة ه كغرف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذا
الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ... ﴾ أى : قربت
منهم . وتقول أزلفتني فلان منه : أى قربيني .

فمعنى ﴿ وزلفا من الليل ﴾ طائفة من أوله . وصلاة الزلف تطلق على صلاتي المغرب
والعشاء قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء .
قال رسول الله - ﷺ - « هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء » .

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان
يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام
عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ في حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا في
قول « (١) » .

وجملة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ،

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٤ .

وأكدت بحرف ﴿ إن ﴾ للاهتمام وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار .. يذهبن الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صفار الذنوب ، لقوله - تعالى - ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾^(١) . ولقوله - تعالى - ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم إن ربك واسع المغفرة ... ﴾^(٢) ، ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أى : ذلك الذى أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله .. فيه التذكرة النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا فى التمهيد بين بدى السورة ، أن سورة هود ترجح أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية . ومما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لتسلية النبى - ﷺ - وإرشاده وأتباعه إلى ما يعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

ولأن بعض الروايات التى وردت فى شأنها تذكر أنها نزلت فى المدينة ، بل ذكرت أن الرسول - ﷺ - تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شيء ، غير أنى لم أجامعها ، فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله - ﷺ - شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه الرسول - ﷺ - بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل .. ﴾ الآية ، فقال معاذ - وفى رواية عمر - يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة^(٣) .

(١) سورة النساء الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٦ .

والروايات التي ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، في الإمكان أن تؤول أن المراد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، ولجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكليف التي كلفكم الله - تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الألوسى : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي - ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ، والمنهاى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - ﷺ عند ربه^(١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - في خلقه ، وعلى الحكم التي من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص في كتابه فقال - تعالى - :

فَلَوْلَا

كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
 وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ الْمُخَلَّفِينَ
 ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقْصُ
 عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ
 ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ... ﴾ إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات ..

ولولا : حرف تحضيض بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبي - ﷺ - ومن سيأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن ، والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجع أن القرن مائة عام .

و ﴿ أولو بقية ﴾ أي : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة ... وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم ، أي : من خيارهم وأهل الفضل فيهم ، قال الشاعر :
 إن تذبذبوا ثم تأتيني بقتيتكم فما على بذب منكم فوت
 وفي الأمثال : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا .

والفساد في الأرض : يشمل ما يكون فيها من المعاصي واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد

في الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟ .

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين يهون عن الفساد في الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيناهم بسبب إيمانهم ونهيهم عن الفساد في الأرض .

وفي هذا من التوبيخ لأهل مكة ولكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما فيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذي حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد في الأرض .

قال الشوكاني : والاستثناء في قوله ﴿ إلا قليلا .. ﴾ منقطع ، أى : لكن قليلا من أنجيناهم منهم كانوا يهون عن الفساد في الأرض ، وقيل : هو متصل ، لأن في حرف التحضيض معنى النفي ، فكأنه قال : ما كان في القرون أولو بقية يهون عن الفساد في الأرض ، إلا قليلا ممن أنجيناهم منهم ، ومن في قوله ﴿ ممن أنجيناهم منهم ﴾ بيانية ، لأنه لم ينبج إلا الناهون^(١) . وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، وفي الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » ولهذا قال : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية يهون عن الفساد في الأرض ... ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ... ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهي عن الإفساد في الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .

وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها .

والمترف : هو الشخص الذي أبطرتة النعمة ، فانغمس في الشهوات والمعاصي ، وأعرض عن الأعمال الصالحة ..

والجملة الكريمة معطوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولو بقية يهون عن الفساد في الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا في طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة ، فكفروا النعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أى مصرين على ارتكاب الجرائم

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠ .

والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذى يستحقونه بسبب هذه السيئات .
ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم فقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك
القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإِشراك بالله - تعالى - وغيره من الوقوع فى المعاصى
والمنكرات .

والبَاء فى ﴿ بظلم ﴾ للملابسة ، والتنوين فيه للإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم
يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها
أيا كانت هذه الأفعال .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أيها الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى
إهلاكاً متلبساً بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال
يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل .

قال - تعالى - ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ... ﴾ وقال - تعالى - ﴿ ولا يظلم ربك
أحدًا ﴾ .

وقال - تعالى - ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

ومنه من فسر الظلم هنا بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن
ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم فى تعاطى الحقوق فيما
بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضمنون إلى الكفر الإفساد فى الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم
وإنقاصهم المكيال والميزان..

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينها فقال : القول فى تأويل
قوله - تعالى - ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

يقول - تعالى - ذكره : وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التى أهلكتها والتى قص
عليك نبأها ظلماً وأهلها مصلحون فى أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم فى
أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلماً ، ولكنه أهلكتها بكفر أهلها بالله ؛ وتمايهم فى غيرهم ..

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله : وذلك قوله بظلم يعنى بشرك ، وأهلها
مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما
يهلكهم إذا تظالموا^(١) .

والذى نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون مخصص ، حيث لم يرد عن رسول الله - ﷺ - حديث صحيح يخصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقى الذى يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شيء فقال : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

والأمة : القوم المجتمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف شئونه . ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليمتيز الخبيث من الطيب ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى ... ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أى : ولا يزالون ما بقيت الدنيا مختلفين فى شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم بهدائيتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فعصمهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أى : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى - ﷺ - الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضاً : إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصرارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة . وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابى ^(١) .

واسم الإشارة في قوله ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الآلوسی : فكأنه قيل : وللإختلاف خلق الناس ، على معنى لثمره الإختلاف من كون فريق في الجنة وفريق في السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والصوره ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولأنهم لو خلقهم له - أى للإختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل^(١) .

ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى .
ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الإختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أى بين الفارض والبكر .
فيكون المعنى : « وللإختلاف والرحمة خلقهم » أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الإختلاف للإختلاف .

وقد رجح الإمام القرطبي هذا الوجه فقال : قوله « ولذلك خلقهم » قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الإختلاف ، أى : وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الإختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما في قوله - تعالى - ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ . وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر خلقهم .. أى : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير . أى خلق أهل الإختلاف للإختلاف وأهل الرحمة للرحمة ...^(٢) .

والمراد بكلمة ربك في قوله - سبحانه - ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لا تتخلف ، وحكمه الأزلى .

(١) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١١٤٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٥ .

أى : وتمت كلمة ربك ، ونفذ قضاؤه ، وثبت حكمه الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلوسى : وفى معنى ذلك ما قيل من أن المراد بالجنة والناس أتباع إبليس لقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .. » (١) .

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - ﷺ - من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ وكلا ﴾ للعوض عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام : أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه . فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسليبة نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكاتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق

دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرين على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإننا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .
 أى : والله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .
 ومادام الأمر كذلك ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .

﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ بلى هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .
 أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود - عليه السلام - أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه وناقعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
 المدينة المنورة - صباح الخميس ٥ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠١ هـ الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م .

محمد سيد طنطاوى

تفسیر
سُورَةُ يُوسُفَ

تعريف بسورة يوسف - عليه السلام -

١ - سورة يوسف - عليه السلام - هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقها في الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس وهود ..

أما ترتيبها في النزول ، فكانت السورة الثالثة والخمسين ، وكان نزولها بعد سورة هود - عليه السلام - .

وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وجه تسميتها بهذا الاسم ظاهر ، لأنها مشتملة على قصته - عليه السلام - مع إخوته ، ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر في ذلك الوقت ..

ولم يذكر اسم يوسف - عليه السلام - في غير هذه السورة سوى مرتين : إحداهما في سورة الأنعام في قوله - تعالى - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ... ﴾ الآية ٨٤ .
والثانية في سورة غافر في قوله - تعالى - ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... ﴾ الآية ٣٤ .

والقول الصحيح أن سورة يوسف جميعها مكية ، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية ، لأن هذا القول لا دليل عليه .

قال الآلوسی : سورة يوسف مكية كلها على المعتمد ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنها قالا : هي مكية إلا ثلاث آيات من أولها . واستثنى بعضهم رابعة وهي قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ .

٢ - وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه ، وما اعتمدها - كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن الخبر أى عن ابن عباس^(١) .

(١) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٧٠ طبعة منير المشقى .

٣ - وقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة ، منها ما روى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : أنزل القرآن على رسول الله - ﷺ - فتلاه على أصحابه زمنا ، فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف ...»^(١) .

٤ - طبيعة الفترة التي نزلت فيها هذه السورة : قلنا إن سورة يوسف كان نزولها بعد سورة هود ، وسبق أن بينا عند تفسيرنا لسورة هود ، أن هذه السورة الكريمة كان نزولها - على الراجح - في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج ..

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا- كان نزولها في هذه الفترة ، التي تعتبر من أشق الفترات في حياة النبي - ﷺ - إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين ، بعد أن فقد - ﷺ - في هذه الفترة عمه أبا طالب ، وزوجه السيدة خديجة - رضی اللہ عنہا .

ونزول سورة يوسف في هذه الفترة ، كان من أعظم المسليات التي واسى الله - تعالى - بها نبيه - ﷺ - فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبي الكريم من مصائب وأذى ..

ولاشك أن في قصة يوسف وما يشبهها ، تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه .

٥ - والذي يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل ، وأنصح البراهين ، التي تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ...

فقد قصت علينا قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التي لا يعلمها أحد إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا ..

كما يراها قد ساق ما ساقته من حكم وأحكام ، وعبر وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التي تحدثت عنها إلى عشرة أقسام .

(أ) أما القسم الأول^(٢) منها ، فتراها تتحدث فيه عن جانب من فضائل القرآن الكريم ، وعن رؤيا يوسف - عليه السلام - وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه ..

(١) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٧٠ .

(٢) الآيات من ١ - ٦ .

قال - تعالى - ﴿الر . تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين * إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

(ب) وفى القسم الثانى^(١) منها نراها تحدثنا عن مكر إخوة يوسف به ، وحسداهم له ، وتآمرهم على الانتقام منه وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون على أخيهم يوسف ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البديع المعجز فيقول : ﴿لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا لىوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب . يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

(ج) ثم نراها فى القسم الثالث^(٢) منها تحدثنا عن انتشارال سيارة لىوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس دراهم معدودة ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثنواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التى راودته عن نفسه ﴿وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ وعن خروجه من هذه المحنة بريثا ، نقى العرض ، طاهر الذيل .. بعد أن شهد ببراءته شاهد من أهلها .

قال - تعالى - : ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثنواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ... ﴾ .

(١) الآيات من ٧ - ١٨ .

(٢) الآيات من ١٩ - ٢٩ .

ثم يختم - سبحانه - هذا القسم من السورة بحكاية ما قاله الزوج لامرأته وليوسف ، بعد أن تبين له صدق يوسف وكذب امرأته فيقول : ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(د) ثم تحدثنا السورة بعد ذلك في القسم الرابع^(١) منها عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعمّا فعلته تلك المرأة مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف - عليه السلام - إلى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة ..

قال - تعالى - حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنهاها في ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكيئا وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

(هـ) ثم تحدثنا السورة الكريمة بعد ذلك في القسم^(٢) الخامس منها ، عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أنه لم يمنعه السجن من دعوة رفاقه فيه إلى وحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له - سبحانه - ..

﴿ يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(و) ثم تحدثنا السورة الكريمة في القسم^(٣) السادس منها عن الرؤيا المفزعة التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها ، ولكن يوسف الصديق فسرها تفسيراً صحيحاً أعجب الملك ، وحمله على دعوته للالتقاء به ، إلا أن يوسف - عليه السلام -

(٣) الآيات من ٤٣ - ٥٧ .

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٥ .

(٢) الآيات من ٣٩ - ٤٢ .

أبى الالتقاء به إلا بعد أن يحقق الملك في قضيته بنفسه ، ويعلن براءته على رءوس الأشهاد ..
وبعد أن استجاب الملك لطلب يوسف ، وثبتت براءته - عليه السلام - حضر معززا مكرما
وقال للملك بعزة وإباء : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ .

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى هذا المشهد بأسلوبها الزاخر بالمحاورات
والمفاجآت ، فتقول : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع
سنبيلات خضر وأخر يابسات ، يأبها الملاء أفتونى في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ قالوا .
أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة أنا
أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف
وسبع سنبيلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ قال تزرعون سبع
سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ... ﴾ .

وينتهى هذا المشهد ببيان سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، التى تتمثل في
حسن عاقبة المؤمنين حيث يقول - سبحانه - : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها
حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين
آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

(ز) ثم تنتقل السورة الكريمة في القسم السابع^(١) منها إلى الحديث عن اللقاء الأول الذى
تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا من بلادهم بفلسطين إلى مصر يلتمسون الزاد
والطعام ... وكيف أنه عرفهم دون أن يعرفوه .. وكيف أنه - عليه السلام - طلب منهم بعد أن
أكرمهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم - وهو شقيقه « بنيامين » .

وكيف أن أباهم وافق على إرسال « بنيامين » معهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق
لكى يحافظوا عليه ..

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا
عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ،
ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا
تقربون ﴾ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم

لعلم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنما له لحاظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فآله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ... ﴿

(ح) ثم حدثتنا السورة الكريمة في القسم الثامن^(١) منها عن اللقاء الثاني الذي تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا إليه في هذه المرة ومعهم « بنيامين » شقيق يوسف ، وكيف قام يوسف بالتعرف عليه ، ثم كيف احتجزه عنده بحيلة دبرها بإلهام من الله - تعالى - وكيف رد على إخوته الذين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكان « بنيامين » . . . وماذا قال «يعقوب» - عليه السلام - بعد أن عاد إليه أبناؤه ، وليس معهم « بنيامين » .

استمع الى السورة الكريمة وهي تحكى كل هذه المشاهد والأحداث فتقول :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فاجزأوه إن كنتم كاذبين * قالوا جزأوه من وجد في رحله فهو جزأوه كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ... ﴿ .

وبنتهى هذا القسم بقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بعد أن عادوا إليه وليس معهم أخوهم بنيامين : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم * وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴿ .

(ط) ثم حدثتنا السورة الكريمة بعد ذلك في القسم التاسع^(٢) منها عن اللقاء الثالث والأخير بين يوسف وإخوته ، فحككت لنا أن يوسف - عليه السلام - كشف لإخوته عن نفسه في هذا اللقاء . وأمرهم بأن يذهبوا بقميصه ليلقوا به على وجه أبيه ... كما أمرهم أن يعودوا إليه ومعهم جميع أهلهم .

(١) الآيات من ٦٩ - ٨٧ .

(٢) الآيات من ٨٨ - ١٠١ .

كما حكمت لنا لقاء يوسف بأبويه ، وإكرامه لهما ، وشكره لله - تعالى - على ما وهبه من نعم ..

قال - تعالى - حاكيا ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يوسف وأبيه في هذا اللقاء : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾ * قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ * قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا . وأتوني بأهلكم أجمعين .. ﴾ .
 ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .
 ثم ختم - سبحانه - قصة يوسف بهذا الدعاء الذى حكاه - سبحانه - عنه في قوله : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

(ى) أما القسم العاشر^(١) والأخير من السورة الكريمة ، فقد كان تعقيبا على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات ..
 وقد بين - سبحانه - فى هذا القسم ما يدل على أن القرآن من عند الله ، وما يشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ..

كما بين - سبحانه - وظيفة الرسول - ﷺ - وموقف المشركين من دعوته وأنه - ﷺ - ليس بدعا من الرسل وأن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ * وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ * وكأين من آية فى السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .. ﴾ .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

٦ - هذا عرض مجمل لأهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة يوسف - عليه السلام - ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمر من أهمها ما يأتي :
(أ) إبراز الحقائق والهدايات ، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات ... ومن مظاهر ذلك :

المحاورات التي دارت حول إخوة يوسف في شأن الانتقام منه ، والتي منها قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمحاورات التي دارت بينهم وبين أبيهم في شأن اصطحابهم ليوسف ، والتي منها قوله - تعالى - : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ .

والمحاورات التي دارت بين يوسف وإخوته ، بعد أن عرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد .. والتي منها قوله - تعالى - : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ قالوا أنتك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات . تارة بين يوسف وإخوته ، وتارة بين إخوته فيما بينهم ، وتارة بينهم وبين أبيهم ، وتارة بين يوسف وامرأة العزيز ، وتارة بينه وبين ملك مصر في ذلك الوقت .

وهذه المحاورات التي حفلت بها السورة الكريمة ، قد أكسبتها لونا من العرض المشوق ، الذي يجعل القارئ لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها ، ليصل الى الموضوع الذي يليه .

وهذا الأسلوب في عرض الحقائق من أسمى الأساليب التي تعين القارئ على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ، وعلى الانتفاع بهداياته ..

(ب) إبرازها لجوهر الأحداث ولبايها .. أما تفاصيل هذه الأحداث . فتركت معرفتها لفهم القارئ وفطنته ، وسلامة تفكيره ، وحسن تدبره لكلام الله - تعالى - .. وهذا اللون من العرض للأحداث ، يسمى في عرف البلغاء ، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارئ لهذه السورة الكريمة يتدبر وتأمل ، يراها على رأس السور القرآنية التي كثر فيها هذا الأسلوب البليغ .

فمثلا قوله - تعالى - : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ... ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .
والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به في الجب وانصرفوا لشئونهم « جاءوا على قميصه بدم كذب » لكي يخدعوا أباهم ، فلما أخبروه بأن الذئب قد أكله قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ... ﴾ .

وكذلك قوله - تعالى - : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ... ﴾ مترتب على كلام محذوف يفهم من سياق الآيات .

والتقدير : وبعد أن سمع ما قالتها النسوة بشأنه عندما دخل عليهن بأمر من امرأة العزيز ، وسمع تهديد هذه المرأة له بقولها : ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

بعد أن سمع يوسف كل ذلك ، وتيقن من مكرهن به ، لجأ إلى ربه مستجيرا به من كيدهن فقال : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ... ﴾ .

وأيضا قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ * يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان ... ﴾ . يعتبر من بديع أسلوب الإيجاز بالحذف ، إذ تقدير الكلام :

وبعد أن عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك ، وقالوا له : إن رؤياك أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، قال الذي نجا منها ، أي : من صاحبي يوسف في السجن وهو الساقى ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ أي وتذكر بعد نسيان طويل ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى من عنده تفسير هذه الرؤيا تفسيرا صحيحا - وهو يوسف - فاستجابوا له وأرسلوه إلى يوسف ، فذهب إليه في السجن ، فلما دخل عليه قال له : يا يوسف يأبها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان ... إلخ .

وهذا الأسلوب الذي زخرت به السورة الكريمة ، وهو أسلوب الإيجاز بالحذف ، من شأنه

أنه ينشط العقول ، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرؤه ، ويعينها على الاتعاظ والاعتبار .. وهو أسلوب أيضا تقتضيه هذه السورة الكريمة ، لأنها تتحدث عن قصة نبي من أنبياء الله - تعالى - . والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر الأحداث ولبابها ، لا إبراز تفاصيلها وما لا فائدة من ذكره .

فاشتمال السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ ، هو من باب رعاية الكلام لمقتضى الحال ، وهو أصل البلاغة وركنها الركين .

(ج) السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية وتحليل ما يصدر عنها في حال رضاها وغضبها ، وفي حال صلاحها وانحرافها ، وفي حال غناها وفقرها ، وفي حال عسرها ويسرها ، وفي حال صفاتها وحقدتها ..

وقد حدثتنا عن الشخصيات التي وردت فيها حديثا صادقا أميناً ، كشفت لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم ، وسلوكهم ، وميولهم ، وأفكارهم .. وأعطت كل واحد منهم حقه في الحديث عنه .

(١) فيوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسية في القصة - حدثتنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله ، أن نرى له - عليه السلام - مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتي :

امتلاكه لنفسه ولشهوته مها كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ، ونهيه لنفسه عن الهوى ..

ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى - : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون .. ﴾ .

قال الشيخ القاسمي : قال الإمام ابن القيم ماملخصه : « لقد كانت دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : ماركبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة .. ومنها : أنه كان شابا غير متزوج .. ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال .. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة .. بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد ..

ومنها : أنه كان في دارها وتحت سلطانها .. فلا يخشى أن تتم عليه ..

ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتتيال فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ..

ومنها : أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ماتأمره به ..

ومنها : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ..

ومع كل هذه الدواعي ، فقد أثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يفضيه .. «^(١) .

٢ - صبره الجميل على المحن والبلايا ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .. ﴾ .

٣ - نشره للدين الحق ، ودعوته لعبادة الله وحده ، حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه في السجن : ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار * ماتعدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... ﴾ .

٤ - حسن تديره للأمر ، وتوصله إلى ما يريد بأحكام الأساليب ، وحرصه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون .. ﴾ .

٥ - عزة نفسه ، وسمو خلقه ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان براءته ﴿ وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم .. ﴾ .

٦ - تحدته بنعمة الله ، ومعرفته لنفسه قدرها ، وطلبه المنصب الذي يناسبه ، ويتق بقدرته على القيام بحقوقه ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ .

٧ - ذكاؤه وفطنته ، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقه لهم : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ... ﴾ .

٨ - عفوه وصفحه عن أساء إليه ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .. ﴾ .

٩ - وفاؤه لأسرته ولعشيرته ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

١٠ - شكر الله - تعالى - على نعمه ومننه ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقتني بالصالحين ﴾ .

هذا جانب من حديث السورة الكريمة عن يوسف - عليه السلام - ، وهو حديث يدل على أنه كان في الذروة العليا من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ..

(د) وتحدثت السورة الكريمة عن يعقوب - عليه السلام - فذكرت من بين ما ذكرت عنه ، صفات الصبر الجميل ، والأمل في رحمة الله مها اشتدت الخطوب ، والحرص على سلامة أبنائه من كل ما يؤذيهم حتى ولو أساءوا إليه ، والنظر إلى الأمور بعين تختلف عن عيون أبنائه ، والحكم عليها بحكم يختلف عن أحكامهم ..

يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ... ﴾ .

وقوله : - تعالى - : ﴿ وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

(هـ) وتحدثت عن إخوة يوسف حديثا مستفيضا ، تبدو فيه غيرتهم من يوسف ، وحسداهم له ، وتأمرهم على حياته ، وحقداهم عليه حتى وهو بعيد عنهم .. ثم ندمهم في النهاية على ما فرط منهم في حقه بعد أن مكن الله له في الأرض ..

نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم .. ﴾ .

وفي قوله : ﴿ قالوا تالله تنفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ .

وفي قوله - سبحانه - : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ... ﴾ .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاظطين ﴾ .

(و) وتحدثت عن امرأة العزيز حديثا يكشف عن حال المرأة عندما تحب .. وكيف أنها في سبيل الحصول على رغبتها تحطم كل الموانع النفسية والاجتماعية .. وتستخدم كل الوسائل التي تظن أنها ستوصلها إلى مرادها . حتى ولو كانت هذه الوسائل تخالف ما عرف عن المرأة من أنها حريصة على أن تكون مطلوبة من الرجل لا طالبة له ..

(ز) وتحدثت عن العزيز حديثا قصيرا يناسب حجمه وسلوكه وتبلد شعوره ، فهو مع إيقانه بخطأ امرأته لم يزد عن أن قال ليوسف ولها ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(ح) وتحدثت عن ملك مصر في ذلك الوقت ... وعن البيئة التي وصل الحال بها أن تزج بيوسف البريء في السجن ، إرضاء لشهوات النفوس الجامحة ..

قال - تعالى - : ﴿ ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .
وهكذا نجد السورة الكريمة تحدثنا عن نماذج من البشر ، فتصف كل نموذج بما يناسبه من صفات ، بصدق وأمانة ، وتحكم عليه بالحكم الذي يناسبه .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحا في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة ..

ففي الوقت الذي كان الرسول - ﷺ - يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات ..

محنة كيد الإخوة ، ومحنة الجب ، ومحنة الرق ، ومحنة كيد امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان ..

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك .. تسلية للرسول - ﷺ - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم وتطمينا لنفوسهم .

ولكأن الله - تعالى - يقول لنبيه - ﷺ - : كما أخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها ، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين ..

كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا ... ثم تعود إليها في الوقت الذي يشاؤه الله ظافرا منتصرا^(١) .

(١) تفسير « في ظلال القرآن » ج ١٢ ص ١٩٥٠ .

وبعد : فهذا تعريف لسورة يوسف ، رأينا أن نسوقه قبل البدء في تفسيرها ، لعله يعين على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ..
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة :

مساء الخميس ٩ من شعبان سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ١١/٦/١٩٨١ م

د . محمد سيد طنطاوى

« التفسير »

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الْعَافِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَبْنَئِي لَأَنْقَضُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا
إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَعَلَى ءَالٍ يَعْشُرُ بِكَمَا آتَمَّتْهَا عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

افتتحت سورة يوسف - عليه السلام - ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء في هذه الحروف في سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود .
وقلنا ما ملخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الايقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .
فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم

القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتولفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم .. فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة تراها تتحدث - صراحة أو ضمنا - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - ﷺ - ففي مطلع سورة البقرة : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ... ﴾ .

وفي مطلع سورة آل عمران : ﴿ ألم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل .. ﴾ .
وفي أول سورة الأعراف : ﴿ ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه .. ﴾ .

وفي أول سورة يونس : ﴿ أ ل ر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ... ﴾ .
وفي أول سورة هود : ﴿ أ ل ر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... ﴾ .

وهكذا نجد أن معظم الآيات التي تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - ﷺ - في دعوته ..

وهذا كله لتنبية الغافلين إلى أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه المعجزة الخالدة للرسول - ﷺ - .

ثم قال - تعالى - : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

و« تلك » اسم إشارة ، المشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم ويندرج فيها آيات السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصل الكتب ضم أديم الى آخر بالخياطة . واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم .
والمبين : أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .

والمعنى : تلك الآيات التي نتلوها عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة وفي غيرها ، هي آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث لا تشبته على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما في قوله ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربي مبين فقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد - ﷺ - بلسان عربي مبين ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتتفهمون هداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله - عز وجل - . فالضمير في « أنزلناه » يعود إلى الكتاب ، وقرآناً حال من هذا الضمير أو بدلا منه . والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، للرد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .

وجملة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب وحذف مفعول « تعقلون » للإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تعقل أشياء كثيرة لا يحصيها العد . قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه^(١) .

وقال الجمل : « واختلف العلماء هل يمكن أن يقال : في القرآن شيء غير عربي . قال أبو عبيدة : من قال بأن في القرآن شيء غير عربي فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٣ . طبعة دار الشعب .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربي مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب . وكلا القولين صواب - إن شاء الله - .

ووجه الجمع بينها أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية في الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمکن الجمع بينهما^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « القصص : إتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله في اللغة المتابعة قال - تعالى - ﴿ وقالت لأخته قصيه .. ﴾ أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أى : اتباعا . وإنما سميت الحكاية قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، كما يقال : « تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية »^(٢) .

والمعنى : نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم « أحسن القصص » أى : أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله . وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص ، لا شتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبير والعظات .

والباء في قوله ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ للسببية متعلقة بنقص ، و ﴿ ما ﴾ مصدرية .

أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب إيماننا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العليا فى بلاغته وتأثيره فى النفوس . وجملة ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ فى موضع الحال من كاف الخطاب فى ﴿ إليك ﴾ و « وإن » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف .

(١) حاشية المجلد على الجلالين ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٨٥ .

والضمير في قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى الإيحاء المفهوم من قوله ﴿ أوحينا ﴾ .
 والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحينا إليك من هذا القرآن .
 والحال أنك كنت قبل إيحائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن
 دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك في ذلك شأن قومك الأميين .

قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل
 هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص فقال -
 تعالى - ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم
 لى ساجدين ﴾ .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

ويوسف : اسم أعجمي ، مشتق - كما يقول الألوسي - من الأسف ، وسمى به لأسف
 أبيه عليه . وأبوه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر -
 رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : الكريم ابن الكريم ابن
 الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقوله : ﴿ يا أبت ﴾ أصله يا أبى ، فحذفت الباء و عوض عنها تاء التانيث ، ونقلت إليها
 كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التانيث .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ،
 يا أبت إني رأيت فى منامى ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ تسجد لى ، ورأيت كذلك ﴿ الشمس
 والقمر ﴾ لى ﴿ ساجدين ﴾ .

ولم يدرج الشمس والقمر فى الكواكب مع أنها منها ، لإظهار مزيتهما ورفعاً لشأنهما ، وجملة
 ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها .

وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء فى الضمير المختص بها ، لوصفها بوصفهم حيث إن
 السجود من صفات العقلاء ، والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته .

قال ابن كثير : « وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة
 عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد ،
 وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ،

وهو سريره . وإخوته بين يديه .. وخرّوا له سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ،
قد جعلها ربّي حقا ... » ^(١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه
فقال : ﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان
عدو مبين ﴾ .

وقوله ﴿ يا بني ﴾ تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه ، والتلطيف
معه .

وقوله ﴿ رؤياك ﴾ من الرؤيا التي هي مصدر رأى العلمية الدالة على ما وقع للإنسان في
نومه ، أما رأى البصرية فيقال في مصدرها الرؤية .

وقوله « فيكيدوا لك .. » من الكيد وهو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار والفعل كاد يتعدى
بنفسه ، فيقال : كاده يكيداه كيدا ، إذا احتال لإهلاكه . ولتضمنه معنى احتال عدى باللام .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليها السلام - بشفقة ورحمة ، بعد أن سمع منه
ما رآه في منامه : « يا بني » لا تخبر إخوتك بما رأيته في منامك فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا
لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه ..

وإنما قال له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من
فضله عطاء عظيما . وبه منصب جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير
من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، ومن
عدوانهم عليه .

والتونين في قوله « كيدا » للتعظيم والتهويل ، زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم .
وجملة « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على
إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذي يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه ،
وهو بذلك لا يثير في نفسه الكراهة لإخوته .

أى : لا تخبر إخوتك بما رأيته في منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا
الحسد يغرسه الشيطان في نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ،
إذ كل قبيح يقول أو يفعله الناس يفرح له الشيطان .
هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٨ .

أنه يجوز للانسان في بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التي أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه . ومن الأحاديث التي وردت في فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخارى عن عائشة - رضی الله عنها - أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله - ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. » .

وفي حديث آخر : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » .

وفي حديث ثالث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له »^(١) .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء . قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « والظاهر أن القوم - أى إخوة يوسف - كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء »^(٢) .

وهذا ما عليه الأكثرون سلفا وخلفا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم .

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأى من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، فى مؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :

الذى يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء ... » .

ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ،

كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » .

والكاف فى قوله ﴿ وكذلك ﴾ حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهى داخلة على كلام محذوف .

(١) لمعرفة المزيد عن الرؤيا المنامية راجع تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٠٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٦٤ .

وقوله ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ من الاجتناء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشيء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

و ﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ معناه تفسيرها تفسيراً صحيحاً ، إذ التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع ، وهو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه .
والأحاديث جمع تكسير مفرده حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمر عظام في مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحس ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تترك الأحاديث إدراكاً سليماً ، وتعتبر الرؤى تعبيراً صحيحاً صادقاً .
« ويتم نعمته عليك » بالنبوة والرسالة والملك والرياسة « وعلى آل يعقوب » وهم إخوته وذريتهم ، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه .

﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .
وقوله « إبراهيم وإسحاق » بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إتماماً كأننا كنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .

وعبر عنها بأنها أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام - ، وللمبالغة في إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال مألوف في لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبي - ﷺ - يا ابن عبد المطلب ، وأثر عنه - ﷺ - أنه قال : أنا النبي لا كذب - أنا ابن عبد المطلب . وجملة « إن ربك عليم حكيم » مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .

أى : إن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، حكيم في صنعه وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وسأقت بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليها السلام - بعد أن قص ما رآه في المنام .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم في شأنه . وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم المنكرة وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا

إلى أبيهم ليلا يتباكون فقال - تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾

آيَاتٍ لِلسَّالِئِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا
أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا
يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحُلُ لَكُمْ وَجَهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِن
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ
وَأَقْوَاهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ
أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلسَّالِئِينَ ﴾ شروع في حكاية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف في منامه ، وما قاله أبوه له .

وإخوة يوسف هم : رأو بين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالي ، وجاد ، وأشير ، وبنيامين .

والآيات : جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

والمعنى : لقد كان في قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبغى من شرور وخذلان .

وقوله : « للسائلين » أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الانتفاع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .

أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، ومن تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة .. ﴾ . بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جريمتهم . و « إذ » ظرف متعلق بالفعل « كان » فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته .. ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ليوسف ﴾ لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه ، أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .

والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو « بنيامين » وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكره باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقوب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .

وجملة « ونحن عصبة » حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم . أى تشد وتقوى .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه « بنيامين » أحب إلى قلب

أبيننا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذي فرق بينهم - في زعمهم - في المعاملة .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء في موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال في العقيدة والدين .

أى : إن أبانا لفي خطأ ظاهر ، حيث فضل في المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .

قال القرطبي : لم يريدوا بقولهم ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ الضلال في الدين إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ، بل أرادوا : إن أبانا لفي ذهاب عن وجه التدبير في إثارة اثنين على عشرة ، مع استوائهم في الانتساب إليه ^(١) .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس في محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاغت له المحبة .

وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف وأخيه ، صفرهما ، وموت أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

ولا لوم على الوالد في تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر .. ^(٢) .

ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ . ولفظ « اطرحوه » مأخوذ من الطرح ، ومعناه رمى الشيء وإلقائه بعيداً ، ولفظ « أرضاً » منصوب على نزع الخافض ، والتثنية فيه للإبهام . أى : أرضاً مجهولة .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٢٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٧١ .

والمعنى : لقد بالغ أبونا في تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منها ؛ وما دام هو مصراً على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به في أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريباً .

قال الآلوسى : « وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه ، فإن التغريب كالقتل في حصول المقصود ، ولعمري لقد ذكروا أمرين مرين ، فإن الغربة كربة أية كربة ، ولله - تعالى - در القائل :

حسنوا القول وقالوا غربة إنما الغربة للأحرار ذبح
وجملة « يخجل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر .

والخلو : معناه الفراغ . يقال خلا المكان يخلو خلوا وخلاء ، إذا لم يكن به أحد .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو اذفوا به في أرض بعيدة مجهولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .

قال صاحب الكشاف : « يخجل لكم وجه أبيكم » أى : يقبل عليكم إقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه ... »^(١)

وقوله ﴿ وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ معطوف على جواب الأمر .

أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه في أرض بعيدة ، قوما صالحين في دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، وصالحين في دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التي كان يثيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص من يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر في صورة الكباثر ، والكباثر في صورة الصغائر .

فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ . وفي الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شيء هين ، في الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ، وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ بيان للرأى الذى اقترحه أحدهم ، واستقر عليه أمرهم .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « في غيابة الجب » بالإفراد - وقرأ أهل المدينة « في غيابات الجب » - بالجمع - .

وكل شيء غيب عنك شيئا فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غيابة - قال الشاعر :
فإن أنا يوما غيبتي غيابتى فسيروا بسيرى في العشيرة والأهل

والجب : الركبة - أى الحفرة - التى لم تطو - أى لم تبني بالحجارة - فإذا طويت فهى بئر . وسميت جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً . وجمع الجب جبيه وجباب وأجباب .

وجمع بين الغيابة والجب ، لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين ... » (١) .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالبغون فى السير ليصلوا إلى مقصودهم .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفزعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيه الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلاً من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم .

ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل « يهوذا » .

والفائدة فى وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه فى أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وأى باسم يوسف دون ضميره . لاستدرا عطفهم عليه ، وشفقتهم به ، واستعظام أمر قتله .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم فاعلين » محذوف دلالة « وألقوه » عليه .

والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه في غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضا .

وفي هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لشيبتهم عما اقترحوه من القتل أو التفریب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا ، وأقربهم إلى التقوى .

قالوا : وفي هذا الرأى عبرة في الاقتصاد عند الانتقام ، والاكتفاء بما حصل به الفرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم . وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه في غيابة الجب .

ثم حكى - سبحانه - محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم - محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم - : يا أبانا « مالك لا تأمنا على يوسف » أى : أى شىء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .

وفي ندائهم له بلفظ « يا أبانا » استهالة لقلبه ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .

والاستفهام في قولهم « مالك لا تأمنا .. » للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته ، وهو يوحي بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب .. ﴾ .

والرتع والرتوع هو الاتساع في الملاذ والتتعم في العيش ، يقال : رتع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت ، وفعله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السامة ، كالتسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا غدا ليتسع في أكل الفواكه ونحوها ، وليدفع السامة عن نفسه عن طريق القفز والجري والتسابق معنا .

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ . كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء .

وقد أكدوا هذه الجملة والتي قبلها وهي قوله « وإنا له لناصحون » بألوان من المؤكدات ، لكي يستطيعوا الحصول على مقصودهم في اصطحاب يوسف معهم .
وهو أسلوب يبدو فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مآرب سيئة .

ثم أخبر - سبحانه - عما رد به عليهم أبوهم فقال : ﴿ قال إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .

والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والذئب : حيوان معروف بعدوانه على الضعاف من الإنسان ومن الحيوان ، وأل فيه للجنس ، والمراد به أى فرد من أفراد الذئاب .

أى : قال يعقوب لأبنائه رداً على إلحاحهم في طلب يوسف للذهاب معهم يا أبنائي إني ليحزني حزناً شديداً فراق يوسف لى ، وفضلاً عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتوه معكم في رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ، بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .

قالوا : وخص الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأن خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب توحشاً وافتراساً أشد وأولى .

أو خصه بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ رد مؤكداً من إخوة يوسف على تخوف أبيهم وترده في إرساله معهم . إذ اللام في قوله : « لئن » موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله : « إنا إذا لخاسرون » .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه : يا أبانا واهه لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا في هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

وأخيراً استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف . وتسير قصة حياته في الطريق الذى شاء الله تعالى - له أن تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة

الجب . وأوحينا إليه لتبنتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿ .
 أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به في القند إلى حيث يريدون ،
 وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به في قعر الجب ، فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، ونفذوا
 ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة .
 فالقاء في قوله فلما : للتفريع على كلام مقدر ، وجواب « لما » محذوف ، دل عليه السياق .
 وفعل « أجمع » يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم والتصميم على الشيء ، تقول :
 أجمعت المسير أى : عزمت عزماً قويا عليه .
 وقوله « أن يجعلوه » مفعول أجمعوا .

قال الآلوسى : « والروايات في كيفية إلقائه في الجب ، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما
 قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ماله سند يعول عليه »^(١) .
 والضمير في قوله ، وأوحينا إليه يعود على يوسف - عليه السلام - .

أى : وأوحينا إليه عند إلقائه في الجب عن طريق الإلهام القلبي ، أو عن طريق جبريل -
 عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة . ﴿ لتبنتهم بأمرهم هذا ﴾ أى : لتخبئهم في
 الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - في مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك في صغرك من إلقائك في
 الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك ، فالمراد بأمرهم هذا : إيذاؤهم له وإلقائهم إياه في قعر
 الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة شناعته .

وجملة « وهم لا يشعرون » حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون في ذلك
 الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف . لاعتقادهم أنك قد هلكت ولطول
 المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم في ذلك الوقت ، فأنت
 ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك .
 وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير قوله تعالى - : ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا
 ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر .. ﴾ .

وكان هذا الإيجاء - على الراجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا .
 وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيريه بما سيصير إليه أمره من عز وغمى
 وسلطان .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٧٧ .

قالوا : وكان هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - بفلسطين .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يكون فقال :

وَجَاءَ وَ

أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ
بِدْمٍ كَذِيبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

فقوله : ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخيه .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : « دموع الفاجر بيديه » .

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى : تتسابق عن طريق الرمي بالسهم ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر .
﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى : عند الأشياء التى نتمتع بها ونتتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

﴿ فأكله الذئب ﴾ فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .

والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئاً ندفعه .

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن

يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين في ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .
وهذه الجملة الكريمة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المرعب أن يقول
خذوني - كما يقولون - .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكي وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويهاً آخر حكاه القرآن
في قوله : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ... ﴾ أى : بدم ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير
مضاهة ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى لكأنه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول ،
كالخلق بمعنى المخلوق ، أى : بدم مكذوب .

والمعنى : وبعد أن ألقوا بيوسف في الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، ووضعوا على هذا
القميص دماً مصطنعاً ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شيء آخر قد يكون ظيباً وقد
يكون خلافه .

وقال - سبحانه - ﴿ على قميصه ﴾ للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر القميص . وضاع
متكلفاً مصطنعاً ، ولو كان من أثر افتراس الذئب لصاحبه ، لظهر التمزق والتخريق في
القميص ، ولتغلغل الدم في قطعة منه .

ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسبات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء
قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبوا له مكيدة ما ،
وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابهم بقوله : ﴿ قال بل سولت
لكم أنفسكم أمراً ... ﴾ .

والتسويل : التسهيل والتزيين . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أى زينته وحسنته
له ، وصورته له في صورة الشيء الحسن مع أنه قبيح .

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس
الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الخاقدة عليه هى التى
زينت لكم أن تفعلوا معه فعلاً سيئاً قبيحاً ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته .

ونكر الأمر في قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ لاحتفاله عدة أشياء مما يمكن أن
يؤدوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع في الأسواق لأنه لم يكن يعلم على سبيل
اليقين ما فعلوه به .

وفي هذا التنكير والإبهام - أيضاً - ما فيه من التهويل والتشجيع لما اقترفوه في حق
أخيهم .

وقوله ﴿ فصر جميل ﴾ أي : فصرى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي : والله - تعالى - هو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابني يوسف قد أكله الذئب .

أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف مازال حيا ، وأنه - سبحانه - سيجمعى به فى الوقت الذى يشاؤه .

قال الآلوسى : « أخرج ابن ابى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به فى الجب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كالיום ذئبا أحلم من هذا الذئب !! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه ... »^(١) .

وقال القرطبي : « استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات ... »^(٢) .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وفى الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه ... وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فضحه الله - عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجى منه ... »^(٣) .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تأمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم لكى يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيمهم . بأن ألقوا به فى الجب ..

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاره من الجب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه - :

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٥٠ .

(٣) تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٢٠ .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
 وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَبْشَرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِيضَعَةً
 وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
 دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
 الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى
 أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
 الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
 أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
 أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ... ﴾ شروع في الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته في الجب .
 والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .
 والوارد : هو الذي يرد الماء ليستقي للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود .
 وقوله ﴿ فأدلى ﴾ من الإدلاء بمعنى إرسال الدلو في البئر لأخذ الماء .
 والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .

وفي الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :
 وبعد أن ألقى إخوة يوسف به في الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جيا ، فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به وقال : يا بشري هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء ، أى : يا بشارتي أقبلى فهذا أوان إقبالك .
وقيل المنادى محذوف والتقدير : يارفاقى فى السفر أبشروا فهذا غلام ، وقد خرج من الجب .

وقرأ أهل المدينة ومكة : يا بشرى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم . والضمير المنصوب وهو الهاء فى قوله : ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ يعود إلى يوسف .
أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة ، وأسر من الإسرار الذى هو ضد الإعلان . والبضاعة : عروض التجارة ومتاعها . وهذا اللفظ مأخوذ من البضع بمعنى القطع ، وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضمير المنصوب فى ﴿ وأسروه ﴾ .
والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبره بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .

ولعل يوسف - عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب .
ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى بيعه والانتفاع بثمنه .
ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع فى قوله ﴿ وأسروه ﴾ يعود على الوارد ورفاقه ، فيكون المعنى :

وأسر الوارد ومن معه أمر يوسف عن بقية أفراد القافلة ، مخافة أن يشاركوهم فى ثمنه إذا علموا خبره ، وزعموا أن أهل هذا المكان الذى به الجب دفعوه إليهم ليبيعوه لهم فى مصر على أنه بضاعة لهم .

ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .

قال الشوكانى ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتى إلى يوسف كل يوم بالطعام . فأتاه يوم خروجه من الجب فلم يجده ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى السيارة وقالوا لهم : إن الغلام الذى معكم عبد لنا قد أبقى ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه إخوته فيقتلوه^(١) .

وعلى هذا رأى يكون معنى ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ : أخفى إخوة يوسف كونه أبا لهم ،

واعتبروه عرضاً من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .

ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ الشراء الحقيقي ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمن بخس .

والحق أن الرأي الأول هو الذى تظمنن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأنه بعيد عن التكلف الذى يرى واضحاً فى القولين الثانى والثالث .

وقوله : ﴿ والله عليهم بما يعملون ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من إسرارهم . ومن عملهم السىء فى حق يوسف . حيث إنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم . كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله : - سبحانه - ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لما فعله السيارة بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

وقوله ﴿ شروه ﴾ هنا بمعنى باعوه .

والبخس : النقص ، يقال بخس فلان فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى المبخوس .

و ﴿ دراهم ﴾ جمع درهم ، وهى بدل من ﴿ ثمن ﴾ .

و ﴿ معدودة ﴾ صفة لدراهم ، وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشىء القليل يسهل عده ، بخلاف الشىء الكثير ، فإنه فى الغالب يوزن وزناً .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضاً من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين درهماً .

وقوله : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لعدم حرصهم على بقاءه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشىء ، تقول زهدت فى هذا الشىء ، إذا كنت كارهاً له غير مقبل عليه .

أى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقاءه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وزهدهم فيه سببه أنهم التقطوه من الحب ، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالي أن يبيعه بأى ثمن خوفاً من أن يعرض له مستحق ينزعه منه ... »^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا... ﴾ بيان لبعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ولقبه القرآن بالعزیز كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق... ﴾ .
و ﴿ من مصر ﴾ صفة لقوله ﴿ الذى اشتراه ﴾ .

وامرأته : المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أو راعيل .
ومثواه من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال : ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أطال الإقامة به . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وما كنت تأويأ فى أهل مدين ... ﴾ أى مقبياً معهم .
أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لامرأته : اجعلى محل إقامته كريماً ، وأنزليه منزلاً حسناً مرضياً .

وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ أكرمى مثواه ﴾ أى : اجعلى منزله ومقامه عندنا كريماً :
أى حسناً مرضياً بدليل قوله بعد ذلك ﴿ إنه ربي أحسن مثواى ﴾ .

والمراد : تفقيده بالإحسان ، وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ، ساكنة فى كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد هلى تطيب نفسك بثوائك عنده وهل يراعى حق نزولك به ؟ واللام فى ﴿ لامرأته ﴾ متعلق بقال ... ^(١) .

وقوله : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه .
أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو تتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وأمارات الأدب وحسن الخلق .
قالوا وهذه الجملة ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد . والكاف فى قوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ فى محل نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف والإشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته ، وانتشاله من الجب ، ومحبة العزيز له ..

و «مكننا» من التمكين بمعنى التثبيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التي نزل فيها .
أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكننا ليوسف في أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهي فيها .

وقوله - سبحانه - ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ علة لمعلل محذوف ، فكأنه قيل :
وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة
العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى تفسيراً صحيحاً صادقا .
وقوله : ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ تذييل قصد به بيان قدرة
الله - تعالى - ونفاذ مشيئته .

فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراده .

أى : والله - تعالى - متمم ما قدره وأراده ، لا يمنع من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع ،
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .
والتعبير بقوله : ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ احتباس لإنصاف ومدح القلة من
الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يجعلهم لا يندرجون في الكثرة التي لا تعلم ،
بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم .
ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ولما بلغ أشده
آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية في ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ،
يقال : شد النهار إذا ارتفع .

ويرى بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه وقيل
هو جمع شدة كأنعم ونعمة .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، وهى السن التي كان
فيها - على ما قيل - ما بين الثلاثين والأربعين .

﴿آتيناه﴾ أى : أعطيناه بفضلنا وإحساننا .

﴿حكما﴾ أى : حكمة ، وهى الإصابة فى القول والعمل أو هى النبوة .

و ﴿علما﴾ أى فقها فى الدين . وهما سليما لتفسير الرؤى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين
والدنيا .

وقوله : ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ،

نعطى ونجازى الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، فى حياة يوسف - عليه السلام - وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده ، وآتاه الله - تعالى - حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد ... فتقول :

رَوَدَّتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ
 وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَشَايَ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا
 لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ
 وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا
 الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
 أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
 مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن
 هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ... ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف في منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثنواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها .

والمراودة - كما يقول صاحب الكشف - مفاعلة من راد يروء إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرج من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقفته إياها^(١) .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهي منه بشتى الوسائل والحيل . وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفاً من الله - تعالى ..

وقال - سبحانه - ﴿ التي هو في بيتها ﴾ دون ذكر لاسمها ، سترها لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن في تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب في التعبير .

والمراد ببيتها : بيت سكنها ، والإخبار عن المراودة بأنها كانت في بيتها . أدعى لإظهار كمال نزاهته عليه السلام - فإن كونه في بيتها يغرى بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها ، ولم يطاوعها في مرادها .

وعدى فعل المراودة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : « عن » هنا للمجازة ، أى : راودته مبادعة له عن نفسه ، أى : بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض الواقعة ، قاله ابن عطية ، أى : فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه^(٢) .

وقوله ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ أى : أبواب بيت سكنها الذى تبيت فيه بابا فباباً ، قيل : كانت الأبواب سبعة .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقاً شديداً محكما ، كما يشعر بذلك التضعيف في « غلقت » زيادة في حمله على الاستجابة لها .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ٢٥٠ للشيخ الفاضل بن عاشور .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هأنذا مهيمته لك فأسرع في الإقبال على ...

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية في الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت من المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ...

و « هيت » اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهي كلمة حض وحث على الفعل ، واللام في « لك » لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما في قولهم : سقيا لك وشكراً لك . وهي متعلقة بمحذوف فكأنما تقول : إرادتي كائنة لك .

قال الجمل ما ملخصه : « ورد في هذه الكلمة قراءات : « هَيْتِ » كليت ، و « هَيْتَ » كفيل و « هَيْتَ » كحيث ، و « هَيْتَ » بكسر الهاء وضم التاء ، و « هَيْتَ » بكسر الهاء وفتح التاء .

ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات في هذه الكلمة ، وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم أى أقبل وتعال^(١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ بيان لما ردّ به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت في إثارته كل حد .

و « معاذ » مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أى : قال يوسف في الرد عليها : أعوذ بالله معاذاً مما تطلبينه مني ، وأعتصم به اعتصاماً مما تحاولينه معي ، فإن ما تطلبينه وتلحين في طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف .. ولا يفعله إلا من خبت منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .

وقوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ تعليل لنفوره مما دعته إليه ، واستعاذ بالله منه . والضمير في « إنه » يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربي بمعنى خالتي . والتقدير : قال يوسف في الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمني الله - تعالى - بما أكرمني به من النجاة من الجب ، ومن تهيمته الأسباب التي جعلتني أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يفضبه ؟ . وجوز بعضهم عودة الضمير في « إنه » إلى زوجها ، فيكون لفظ ربي بمعنى سيدي

ومالكي ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشتراكي بماله ، وأحسن منزلي ، وأمرك بإكرامي - بالخيانة له في عرضه .

وفي هذه الجملة الكريمة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواععتها ، لأنه يؤدي إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجملة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر لصدها عما تريده منه .
والفلاح : الظفر وإدراك المأمول .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة فكيف تريدين مني أن أكون كذلك ؟ .
هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة في المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها ، هيت لك : بدواعي العفاف الثلاث التي رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة في قوله - كما حكى القرآن عنه - ﴿ معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - في تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة ...

ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجاحمة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا بعد ذلك صداما آخر بينها فيقول : ﴿ ولقد هممت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ... ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي خلط المفسرون فيها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنينين أولا الرأي الذي نختاره في تفسيرها ، ثم نتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : ألهمّ : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشيء ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال : بعض العلماء : ألهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه ، وهمّ بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن خطور المناهى في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد في الأعيان .
روى الشيخان وأهل السنن عن أبي هريرة ، عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إن الله

تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به ^(١) .
 وقد أجمع العلماء على أن همَّ امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم
 والجزم والقصد ، بدليل المرادة وتغليق الأبواب ، وقولها « هَيْتَ لَكَ » .
 كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة
 قلب بمقتضى الطبيعة البشرية : من غير جزم وعزم ...

وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء
 البارد في اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا
 يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - في قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن
 هذا الفعل الذي دعت إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما يقول ابن جرير - رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان همَّ به ..
 والمعنى : ولقد همت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز موقعة يوسف - عليه السلام -
 قصداً جازماً ، بعد أن أغرته بشقى الوسائل فلم يستجب لها ...

﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى : ومال إلى مطاوعتها بمقتضى طبيعته البشرية
 وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل ...

ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله - تعالى - له
 على مقاومة شهوته كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه عنه صرفاً كلياً ،
 وجعله يفر هارباً طالباً النجاة مما تريده منه تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال
 المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال ما ملخصه .
 وقوله - تعالى - ﴿ ولقد همت به ﴾ ومعناه : ولقد همت بمخالطته ؛ « وهم بها » أى : وهم
 بمخالطتها « لولا أن رأى برهان ربه » جوابه محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربه
 لخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه ، كقولك : همت بقتله لولا أنى خفت الله .
 معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟ .

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجود اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه بأنه من عباده المخلصين^(١) .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأي الإمام الألوسي ، فقد قال ما ملخصه :
قوله : « ولقد همت به » أى : بمخالطته .. والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزيمة جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مبادئها ...

والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .
﴿ وهم بها ﴾ أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ... ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحة ههما في الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به ... « لولا أن رأى برهان ربه » أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .

والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين ...^(٢) .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بهما به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .
وأن المراد بهما بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه أثر الهرب .
وقد قرر هذا الرأي ودافع عنه وأنكر سواه صاحب المنار ، فقد قال ما ملخصه :
« ولقد همت به » أى : وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى في نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أدلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ... فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها في التمتع .. مما جعلها تحاول البطش به

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٩١ .

بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام معهود من مثلها ، ومن دونها في كل زمان ومكان ... وكاد يرد صياها ويدفعه بمنله ، وهو قوله - تعالى - ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - ﴿ والله غالب على أمره ﴾ وهو إما النبوة ... وإما معجزتها .. وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهي مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه ^(١) .

وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتداء الذي وقع عليه منها ... أقول : ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة ...

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف - عليه السلام - عن أن يكون قدهم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لا نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطوط المناهى في الأذهان ، لا مؤاخذه عليها ، مادامت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل .

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين في معنى الآية الكريمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ؛ لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من اللغة ... وإنما هي من الأوهام الإسرائيلية التي تتنافى كل التنافي مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام .

قوله - سبحانه - ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله « لولا أن رأى برهان ربه » أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه ، أى : أزيته مثل هذه الإراءة أو تثبتاه تثبيتا مثل هذا التثبيت لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع في السوء - أى في المنكر والفجور والمكروه - والفحشاء - أى كل ما فحش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

« إنه من عبادنا المخلصين » - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتنا وعصمتناهم من كل ما يغيظنا .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « المخلصين » - بكسر اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

والجملة الكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه - عليه السلام - عن السوء والفحشاء . وقوله - سبحانه - ﴿ واستبقا الباب ... ﴾ متصل بقوله - سبحانه - قبل ذلك ﴿ ولقد همت به ... ﴾ وقوله ﴿ كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء ... ﴾ اعتراض جىء به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته .

وقوله ﴿ واستبقا .. ﴾ من الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منها يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التي طلبتها منه . وهى أسرع خلفه لئلا تمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وأفرد - سبحانه - الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم ، لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى : واستبقا إلى الباب .

وجملة « وقدت قميصه من دبر » حالية ، والقدر : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبتة من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله : ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .

وقال - سبحانه - ﴿ وألفيا سيدها ﴾ لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام - لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف . أى قالت تلك المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد

بأهلك - تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويؤلمك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك .
وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها ...

ورحم الله الألوسى فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله ما ملخصه :
« ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى - حيث شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضيها ، وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستئزال يوسف عن رأيه فى استعصانه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه ...

ولم تصرح بالاسم ، بل أتت بلفظ عام « من أراد بأهلك سوءا .. » تهويلا للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءاً .

وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب ...

ثم إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيما أن قولها : « إلا أن يسجن .. » قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين ... »^(١) .

والحق أن هذه الجملة التى حكاها القرآن عنها ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء - كما سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه ببيعه - مثلا - .

وفى الوقت نفسه إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هى الآمرة النهائية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفر من الرد على هذا الاتهام الباطل ، فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال هى راودتني عن نفسى ... ﴾ .

أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إني ما أردت بها سوءا كما تزعم وإنما هي التي بالغت في ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لا يليق معها ..

ثم قال - تعالى - : ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴿ .

وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عم لها ..

قال صاحب المنار : « ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ، أنه كان صبيا في المهد ، ويؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال : « تكلم في المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم » .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : « عيسى ابن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد » وهذا موقوف ، والمرفوع ضعيف ، وقد اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف ...^(١) .

وعلى أية حال فالذى يهنا أن الله - تعالى - قد سخر في تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .

وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد في شهادته - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أى : من أمام « فصدقت » في أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دافعت من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها . « وهو من الكاذبين » في قوله « هي راودتني عن نفسى » .

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أى من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في دعواه أنها راودته عن نفسه .

وسمى القرآن الكريم ذلك الحكم بينها شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق في قضية التبس فيها الأمر على العزيز .

وقدم الشاهد في شهادته الغرض الأول وهو - إن كان قميصه قد من قبل - لأنه إن صح

يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريصا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريرا ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها سيدة ، ويوسف فتي ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول رحمة بها .

وزيادة جملة « وهو من الكاذبين » بعد « فصدقت » وزيادة جملة « وهو من الصادقين » بعد « فكذبت » تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن في إصدار الأحكام .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ... ﴾ بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف . وجه كلامه إلى زوجته معانينا إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من « كيدكن » ومكركن وحيلكن « إن كيدكن عظيم » في بابه ، لأن كثيرا من الرجال لا يفتنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب الناعم الهدىء ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها بل الجنس كله « إنه من كيدكن » .

ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له « يوسف أعرض عن هذا » أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فإكتمه . ولا تتحدث به خوفا من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتا تاما .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : « إنك كنت من الخاطئين » تعليل لطلب الاستغفار . أى توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخظة .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسما وجزما فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهدىء البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين يهتمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتابان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة .. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى

بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعها .

هذا ومن العبر والعظات والأحكام التي نأخذها من هذه الآيات الكريمة :

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيرا ما يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعي ، وما بالذات لا يتغير .

وجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد في سن كانت هي فيه مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا .. أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له في نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : « هيت لك » .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودها لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع في الفتن ، ومنعا من تهيئة الوسائل للوقوع في الفاحشة .

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما رواه الشيخان عن عقبه بن عامر ، أن رسول الله ﷺ - قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الحمى يارسول الله ؟ قال: الحمى الموت^(١) » . والحمى هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وستلت امرأة انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك فقالت : قرب السواد ، وطول السواد^(٢) .

أى : حملنى على ذلك قربنى ممن أحبه وكثرة محادثتى له !

٢ - أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول في مرحلة التصميم والتنفيذ ، لا مؤاخذه فيه .

قال القرطبي ما ملخصه : « اللهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر في النفس ، ولا يثبت في الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - « قالت الملائكة ياربنا ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال : ارقبوه فإن

(١) من كتاب (رياض الصالحين) ص ٦٢١ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) السواد معروف وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه - والسواد - بكسر السين مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث . قالوا : وهذه الكلمة كانت لابنة الخصى ، اعتذرت بها عن نفسها بعد أن فتنت فقبل لها لماذا هذا السلوك وأنت سيئة قومك ؟

فقلت هذه الكلمة التي ذهبت مثلا .. راجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٧٨ .

- عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من أجل .
 وفي الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به^(١) » .
- ٣ - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعذ بالله من ذلك ، وأن يذكر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها .. كما قال يوسف - عليه السلام - ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .
- ٤ - أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .
- قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ، يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين .. والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال « هي راودتني عن نفسي » وقال : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه .. »
- وأما امرأة العزيز فقد قالت : « أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .
 وأما زوجها فقد قال : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. » .
- أما شهادة رب العالمين ببراءته ففى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .
- فقد شهد الله - تعالى - على طهارته فى هذه الآية أربع مرات ، أولها : لنصرف عنه السوء » وثانيها « الفحشاء » وثالثها « إنه من عبادنا » ورابعها « المخلصين »^(٢) .
- ٥ - أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراجيا .. وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشيف واستهتار : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين » .
- ٦ - أن القرآن الكريم صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز ، تصويرا واقعيا صادقا ، ولكن بأسلوب حكيم ، بعيد عما يחדش الحياء أو يجرح الشعور
- قال بعض العلماء : « والذى خطر لى أن قوله - تعالى - : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ١١٦ .

واستعصم ، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبية ، لأنه المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة وفي محيط الحياة البشرية المكتملة كذلك فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينها ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا...^(١) .

ثم حكى السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فاتها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهانها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد ان سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن .. قال - تعالى - :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ ۗ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْ عَلَيَّ هُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ
نَفْسِهِ ۗ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُرَةٍ لَّيْسَ جَنًّا وَلَيَكُونًا
مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

(١) من تفسير « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب ج ١٢ ص ١٩٨١ طبعة دار الشروق .

قوله - سبحانه - ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. ﴾ حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور في مجالسهن ، ولا يكتمنها خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة .. كامرأة العزيز .

والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده حيث المعنى : امرأة .
والمراد بالمدينة : مدينة مصر التي كان يعيش فيها العزيز وزوجته والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لنسوة .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال في انقيادها لها ، وفي خروجها عن طريق العفة .. أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : تطلب منه موافقتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع ، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء في مدينة كبيرة كمصر وفي وصفها بأنها « امرأة العزيز » زيادة في التشهير بها . فقد جرت العادة بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم ، وأشد في النقد والتجريح .

والتعبير بالمضارع في قوله - سبحانه - ﴿ تراود ﴾ يشعر بأنها كانت مستمرة على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول زوجها لها « واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والمراد بفتاها يوسف - عليه السلام - ووصفنه بذلك لأنه كان في خدمتها ، والمبالغة في رميها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال في احتقار نفسها ، أن تكون مراودة لشخص هو خادم لها ..

وجملة « قد شغفها حبا » بيان لحالها معه ، وهى في محل نصب حال من فاعل تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير لومها ، وتأكيد انقيادها لشهواتها .

وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه أو حجابيه ، يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، أى بلغ شغافه .

والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها . وتمكن منه تمكنا لا مزيد عليه و « حبا » تمييز

محول عن الفاعل ، والأصل : شغفها حبها إياه .

وجملة ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها ، والمراد بالضلال : مخالفة طريق الصواب .

أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، وصادق علمنا . في خطأ عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير - تراود خادمها عن نفسه .

والتعبير «إنا لنراها ..» للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .

قال صاحب المنار : « وهن ما قلن هذا إنكاراً للمنكر ، وكرها للرديلة ، ولا حبا في المعروف ، ونصرا للفضيلة . وإنما قلته مكرأ وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن ، وإراءتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عدلنها عليه فهو مكر لا رأى »^(١) .

وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريرة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال - تعالى - :

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أى : باغتيالهن لها . وسوء مقاتلتهن فيها ، وسمى ذلك مكرأ لشبهه به في الإخفاء والخداع .

أو قصدن بما قلته - كما سبق أن أشرنا - إثارتهن ، لكى تظلمهن على فتاها الذى راودته عن نفسه ، ليعرفن السر في هذه المراودة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر ليس غريباً على النساء في مثل هذه الأحوال .

وقوله : ﴿ أرسلت إليهن .. ﴾ الخ بيان لما فعلته معهن .

أى : أرسلت إلى النسوة اللاتي وصفتهن بأنها في ضلال مبين ، ودعتهن إلى الحضور إليها في دارها لتناول الطعام .

﴿ وأعدت لهن متكأ ﴾ أى : وهيات لهن في مجلس طعامها ، ما يتكئن عليه من الوسائد والنهارق وما يشبه ذلك .

فالتكأ : اسم مفعول من الاتكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين في الجلوس كما جرت بذلك

عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعند ما يريدون إطالة المكث مع انتصاب قليل في النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .

أخرج ابن شيبه عن جابر عن النبي - ﷺ - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكئا^(١) .

﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ أى : وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من اللحم وفاكهة .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحضارة المادية في مصر في ذلك الوقت كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً ، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية^(٢) .

وهنا نجد المرأة الجريئة الماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى القرآن عنها : « اخرج عليهن » أى ابرزهن ، وادخل عليهن ، وهن على تلك الحالة من الأكل والاتكاء وتقطع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام ..

وهى ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها في حبها له وقد كان لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها الشديد في نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم في قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : قالت امرأة العزيز ليوسف اخرج عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة فلما رأينه أكبرنه ، أى : أعظمته ، ودهشن لهيئته ، وجمال طلعتة وحسن شأنه .

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التي في أيديهن دون أن يشعرن بذلك ، لشدة دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف ..

﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ﴾ وحاش فعل ماض ، واللام في « لله » للتعليل ، والمراد بهذه الجملة الكريمة التعبير عن عجب صنع الله في خلقه أى : وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : ننزه الله - تعالى - تنزيهاً كبيراً عن صفات العجز ، ونتعجب تعجباً شديداً من قدرته - سبحانه - على خلق هذا الجمال البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا بشراً كسائر

(١) تفسير الألوسى ج ١٢ ص ٢٠٤ .

(٢) تفسير « في ظلال القرآن » ج ١٢ ص ١٦٨٤ .

البشر ، لتفوقه في الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تخلب الألباب .

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز في الطباع من تشبيه ما هو مفرط في الجهال والعفة بالملك وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشیطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، اللاتي عدلنها في حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفي ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ .

والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللاتي قطعن أيديهن دهشا من جمال يوسف ، والإشارة إليه - عليه السلام - .

أى : قالت لهن على سبيل التشفي والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه : إن كان الأمر كما قلتن ، فذلك هو الملك الكريم الذي لمتنني في حبي له ، وقتلن ما قلتن في شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتكن له ، وتقطع أيديكن ذهولا لطلعته ، قد علمتن أنى معذورة فيها حدث منى معه ..

ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرته بمواقعتها فلم يستجب فقالت :

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم .. ﴾ . أى : والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لى ، فأبى وامتنع امتناعا بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا .

والتعبير بقوله « فاستعصم » للمبالغة في عصمته لنفسه من الزلل ، فالسين والتاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمة الطعام أى : منعه من الجوع . وعصم القرية أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .

وفي الآية - كما يقول الآلوسى - دليل على أنه - عليه السلام - لم يصدر منه ما سوّد به القصاص وجوه الطروس^(١) - أى الأوراق .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم ، والله لئن لم يفعل ما أمره به ، - وأنا سيدته الآمرة الناهية لاغيرى - ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من الصاغرين ، أى : من الأذلاء

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢٠٩ .

المهانين المقهورين ، من الصغار . يقال : صغر فلان - كفرح - يصغر صغارا ، إذا ذل وهان .

قالوا : وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحقيقه في نظرها ، وأكدت الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه .

وفي هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر ..

ويترامى على مسامع يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر .. فيلجأ إلى ربه مستجيرا به . ومحتما بجهاء ويقول : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه .. » .
أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - يارب السجن الذى هدتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ، وأثر عندى مما يدعونني إليه من ارتكاب الفواحش .

وقال أحب إلى مما يدعونني إليه ، ولم يقل مما تدعونني إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات في دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه ، وبعد أن سمعن ما قالته في شأنه ربة الدار ..

قال الألوسى : « وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خوفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها . فقد روى أنهم قلن له أطع مولاتك ، واقض حاجتها ، لتأمن عقوبتها .. وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لتصيحته ، فلما خلت به دعته إلى نفسها ..

وقوله : ﴿ وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ واعتراف منه - عليه السلام - بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .

﴿ أصب ﴾ من الصبوة وهى الميل إلى الهوى ، يقال : صبا فلان يصبو صبوا وصبوة ، إذا مال إلى شهوات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ربح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .

والمعنى : وإلا تدفع عني يا إلهى كيد هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن إيقاعى فى حياثلهن ، أمل إليهن . وأطاعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ بيان

لتقبل الله - تعالى - لدعائه بفضله ورحمته .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس في نفوسهن من الطمع في استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .

« إنه » سبحانه « هو السميع » لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين « العليم » بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

وقال - سبحانه - ﴿ فاستجاب ﴾ بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف - عليه السلام - بدون تأخير أو إبطاء .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ... ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيده ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء في ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»^(١) .

ثم سأقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت براءته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو في السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعو إليه ، وفسر لصاحبيه في السجن رؤياهما تفسيرا صادقا صحيحا ..

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنْدَهُ
 حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا
 إِنِّي رَأَيْتُ أُورِثُنِي أُعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي رَأَيْتُ أُحْمَلُ فَوْقَ
 رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْدْنَا بِنَاءٍ وَيَلِدُ ۗ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ۗ إِلَّا نَبَأٌ تُكْمَا
 بِنَاءٍ وَيَلِدُ ۗ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مَعَ عِلْمِي ۗ رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ۗ ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ
 لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
 النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي
 السَّجْنَ ۗ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
 ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ ۗ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
 أَمَرَ الْأَتَّعِبُدُوا إِلَّا آيَاتُهُ ۗ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السَّجْنَ ۗ أَمَّا أَحَدُكُمَا
 فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ
 مِنْ رَأْسِهِ ۗ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي

ظَنَّ أَنَّهُ دُنَاجٌ مِّنْهُمَا أَذْكَرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته .
وبدا هنا من البدء - بالفتح - وهو - كما يقول الإمام الرازي - عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في السابق .

والضمير في « لهم » يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهي الكاذبة ... والحين : الزمن غير المحدد بمدة معينة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا وعانوا البراهين المتعددة الدالة على صدق يوسف - عليه السلام - وطهارة عرضه .. بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم في شأنه ، وأن يسجنوه في المكان المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .

واللام في قوله « ليسجننه » جواب لقسم محذوف على تقدير القول أي : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

ولاشك أن الأمر بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذاً لتهديدها بعد أن صمم يوسف - عليه السلام - على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ (١) .

ولاشك - أيضاً - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقيادة زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهي تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف فقال ما ملخصه : قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات.... ﴾

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١٣٣ .

وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستئزال المرأة لزوجها ، وقتلها منه في الذرة والغارب ، وكان مطواعا لها ، وجلا ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت في أن يذلل السجين ويسخره لها^(١) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من أحواله بعد أن دخل السجن فقال: ﴿ ودخل معه السجن فتيان... ﴾ .

والفتيان : تثنية فتى ، وهو من جاوز الحلم ودخل في سن الشباب . قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازا للملك وصاحب طعامه وكان الثاني : ساقيا للملك ، وصاحب شرايه .

وقد أدخلها الملك السجن غضبا عليها ، لأنها اتها بخيانته . والجملة الكريمة عطف على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير بعد أن بدا للعزير وحاشيته سجن يوسف . نفذا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه في السجن فتيان من خدم الملك « قال أحدهما » وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - : « إني أراني أعصر خمرا » أى : إني رأيت فيما يرى النائم . أنى أعصر عنبا ليصير خمرا . سها بما يؤول إليه .

« وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه » أى : وقال الثاني وهو خباز الملك ، إني رأيت في المنام أنى أحمل فوق رأسى سلاها بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

والضمير المجرور في قوله : ﴿ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ يعود إلى المرئى في المنام أى : أخبرنا بتفسير ما رأيناه في منامنا ، إذ نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك ، من السجناء الذين أنت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام - في تأويل رؤياها ، أخذ يهد لذلك بأن يعرفها

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١٩ . وقوله (وقتلها منه في الذرة والغارب) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره ، حتى يتمكن من إخضاعه له ، ومن انتياده لأمره والذرة - بالكسر والضم - أعلى الشيء والمراد به هنا أعلى سنام البعير ، والغارب المكان الذى العنق والسنام منه ، والمراد أن صاحب الجمل يخفى الخطام ويأخذ في التحايل على الجمل حتى يتمكن منه فيضع فيه الخطام ويقوده به .

بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوها إلى عبادة الله وحده و يقيم لها الأدلة على ذلك ..
وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم
يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب
لهم ..

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ في رده عليها بقوله : ﴿ قال لا يأتيكما
طعام ترزقانه إلا نياتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .. ﴾ .

أى : قال يوسف لرفيقيه في السجن اللذين سألاه أن يفسر لها رؤياها : « لا يأتيكما » أيها
الرفيقان « طعام ترزقانه » في سجنكما ، في حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته
وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لها ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته لها إلى وحدانية الله بعد
ذلك .

وقوله « ذلكما مما علمنى ربى » نفى لما قد يتبادر إلى ذهنها من أن علمه مأخوذ عن الكهانة
أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والأخبار عن المغيبات ، كأخباركما عن أحوال
طعامكما قبل أن يصل إليكما ..

ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق
الكهانة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

وقوله : « مما علمنى ربى » فيه إشعار بأن ما أخبرها به من مغيبات هو جزء من علوم
كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل - فضلا منه - سبحانه - وكرما ..

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إني تركت ملة قوم » أى دين قوم « لا يؤمنون بالله » أى لا
يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ، وإنما يدينون بالعبودية لآلهة
أخرى لا تنفع ولا تضر .

« وهم بالآخرة » وما فيها من ثواب وعقاب « هم كافرون » جاحدون لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك وكفر ، ولم يواجه
الفتيان بأنها على دين قومها ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استألتها
إليه ، وإقبالها عليه ..

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون في دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إخراج أو تنفير .

ولما كان تركه لمة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله في ملة قوم آخرين ، تراه يصرح بالملة التي اتبعها فيقول : ﴿ واتبعت ملة آبائى ﴾ الكرام المؤمنين بوحداية الله وبالأخرة وما فيها من حساب وجزاء .

﴿ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ . وسأهم آباء جميعا ، لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون إبراهيم هو أصل تلك الملة التي اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفي هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام - لرقيقه في السجن ، بأنه من سلسلة كريمة ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف ، وقوله ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ تنزهه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شيء من الإِشراك ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله - تعالى - عن ذلك .

و « من » في قوله « من شيء » لتأكيد النفي وتعميمه . أى : ما كان لنا أهل هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإِشراك ، قليلا ذلك الشيء أو حقيرا .

وقوله ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس... ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - برعاية الله - تعالى - له ولآبائه .

واسم الإِشارة . يعود إلى الإِيمان بالله - تعالى - المدلول عليه بنفى الشرك .

أى : ذلك الإِخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه - علينا معاشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس ، الذين هداهم إلى الإِيمان الحق .

وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ إنصاف للقلة الشاكرة لله - تعالى - .

أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - تعالى - على نعمه الجزيلة وآلآئه التي لا تحصى .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبملته وبآبائه . شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

أى : يا صاحبي ورفيقي فى السجن أخبرانى بربكما ، أعبادا عدد من الأرباب المتفرقة فى

ذواتها وصفاتها « خير » لكما « أم » عبادة الله - تعالى - « الواحد » في ذاته وصفاته « القهار » لكل من غالبه أو نازعه ؟

وكرر نداءهما بالصحة ليتجنب إليهما بهذه الصفة التي فيها إناس للقلوب ، وليسترعى انتباههما إلى ما سيقوله لهما .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « وقوله : أرباب متفرقون خير ... » هذا استفهام تقرير بعد تخيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به ، يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين في ذواتهم وفي صفاتهم وفي الأعمال التي يسندونها إليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه أرباب متفرقون ، أى عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام « خير » لكما ولغيركما « أم الله الواحد القهار.. »^(١) .

ولاشك أن الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان ، أن عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، هي العبادة الصحيحة التي توافق الفطرة السليمة والعقول القوية .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة والأوهام الكاذبة فقال : « ما تعبدون من دونه » أى من دون الله - تعالى - المستحق للعبادة .

﴿ إلا أسماء ﴾ أى ألفاظا فارغة لا قيمة لها .

﴿ سميتموها ﴾ آلهة بزعمكم « أنتم وآباؤكم » أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

ومفعول ﴿ سميتموها ﴾ الثانى محذوف . والتقدير سميتموها آلهة .

وقوله « وآباؤكم » لقطع عندهم ، حتى لا يقولوا : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منكم جهلا وضلالا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا

٣٣٢

والمراد بالسلطان في قوله - تعالى - ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ الحجة والبرهان .

أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها أربابا - كما سميتموها بزعمكم - من برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء .

وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لأهتهم ..

أى : ما الحكم فى شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفى صحتها أو عدم صحتها إلا لله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شىء ، والعليم بكل شىء .

وقوله ﴿أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وهو يحييهم ويميتهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أى : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الدين القيم .

أى : الحق المستقيم الثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله - تعالى - وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ..

بعد كل ذلك شرع فى تفسير رؤياهما ليزيدهما ثقة فى قوله ، فقال : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما ﴾ وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن برينًا ويسقى « ربه » أى : سيده الملك « خمرًا » .

﴿ وأما الآخر ﴾ وهو خباز الملك وصاحب طعامه « فيصلب » أى : فيقتل ثم يصلب « فتأكل الطير من رأسه » بعد موته .

ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خمرًا ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله « أما أحدكما ... وأما الآخر » تلطفاً معها ، وتخرجاً من مواجهة صاحب المصير السيء بمصيره ، وإن كان فى تعبيره ما يشير إلى مصير كل منها بطريق غير مباشر .

ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه ، فقال : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره فى أمر خفى عليه فهمه أى : تم التفسير الصحيح لرؤييكما اللتين سألتناني عن تأويلهما .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه في السجن ، بأن أوصى الذى سينجو منها بوصية حكاها القرآن في قوله : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منها ، اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

أى : « وقال » يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد أنه سينجو منها وهو ساقى الملك ، أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - في السجن مظلوما بضع سنين .

والبضع - بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو مأخوذ من البضع - بالفتح - بمعنى القطع والشق . يقال : بضعته الشيء أى : قطعته .

وقد اختلفوا في المدة التى قضاها يوسف في السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير في « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده ملك مصر .

وهناك من يرى أن الضمير في قوله « فأنساه » يعود إلى يوسف - عليه السلام - وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى .

وقال يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك : اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه . واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى ..

وقوله ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أى : فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله وحده ، ولا يذكرها للساقى ليبلغها إلى الملك .

فكانت النتيجة أن لبث يوسف في السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتقاد على المخلوق . والذى يبدو لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فآرسلون ... ﴾ يدل دلالة واضحة على أن الضمير في قوله « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه أى سيده .

وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا يشعر بترجيحه للرأى الثانى فقال ما

ملخصه : « واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق ، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية ، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب ..

ثم قال : والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله ، صار ذلك سببا إلى البلاء وإلى المحنة .. وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابعة والخمسين من عمري .

ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال إن الضمير في قوله : « فأنساه الشيطان ذكر ربه » راجع إلى يوسف .. والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وخالقه ..^(١) . ونحن مع احترامنا لرأى الفخر الرازي ، إلا أننا مازلنا نرى أن عودة الضمير في قوله « فأنساه » إلى الساقى الذي ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه .

قال ابن كثير : وقوله ﴿ اذكري عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ... ﴾^(٢) أي : قال يوسف اذكر قصتي عند ربك وهو الملك ، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكاييد الشيطان .. هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : « فأنساه » .. عائد على الناجى كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد...^(٣) . وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم جانبا من حياة يوسف - عليه السلام - في السجن فإذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك في منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۗ

(١) تفسير الرازي ج ١٨ ص ١٤٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٦ طبعة دار الشعب وراجع تفسير المنار ج ٢ ، ص ٣١٣ .

يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَاءِ يَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
 قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾
 وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
 فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
 سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
 وَأُخْرَى يُاسْتَبْتِ لِعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
 تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا
 قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ
 مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾

فقوله - سبحانه -: ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ﴾
 شروع في حكاية الرؤيا التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت ..
 قال ابن كثير : « هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله - تعالى - أنها كانت سببا
 لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ،
 فهاlette وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمرأها ، وقص
 عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك...»^(١) .
 وقوله « عجاف » جمع عجفاء والعجف - بفتح العين والجيم - ذهاب السمن ، يقال : هذا
 رجل أعجف وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفها وهزالها ..

أى : وقال ملك مصر في ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إني رأيت فيما يرى النائم « سبع بقرات » قد امتلأن شحما ولحما ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى عجاف أى : مهزليل ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم « سبع سنبلات خضر » قد امتلأت حبا ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات « أخر يابسات » قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

﴿ يأبها الملاء ﴾ أى : الأشراف والعلماء من قومي « أفتونى في رؤياى » أى : فسروا لى رؤياى هذه وبينوا لى ما تدل عليه .

﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة سليمة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .

« تعبرون » من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء : والتعريف فى « الملك » للمهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها « الهكسوس » وهم العبالقة الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق . م .

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلمى ..^(١) .

وقال « إني أرى » بصيغة المضارع مع أنه قد رأى بالفعل ، اسحتضارا لصورة الرؤيا حتى لكأنها ماثلة أمامه .

وقال « وأخر يابسات » بدون إعادة لفظ سبع كما فى البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل فى البقرات عليه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هل فى الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر ؟

(١) تفسير التحرير والتوير ج ١٢ ص ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

قلت : الكلام مبنى على انصباؤه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنايل الخضراء ، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ، ويكون قوله « وأخر يابسات » بمعنى : وسبعا آخر يابسات »^(١) .

وفي نداء الملك لقومه قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي .. ﴾ تشریف لهم ، وحض على استعمال عقولهم وعلومهم في تفسير هذه الرؤيا التي أزعجته .

واللام في قوله « للرؤيا » لتقوية الفعل « تعبرون » حيث تأخر عن معموله .
ويبدو أن القوم في ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم ...

فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه في السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، في زمن كثر فيه البارعون في تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع في حزمة واحدة من مختلف النيات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حلم وحلم - بإسكان اللام وضمها تبعا للحاء - وهو ما يراه النائم في منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففي الحديث الصحيح : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان »^(٢) .

أى : قال الملاء للملك : ما رأيته أيها الملك في نومك ما هو إلا تخاليط أحلام ومنامات باطلة ، فلا تهتم بها .

فهم قد شبهوا مارآه بالأضغاث في اختلاطها ، وعدم التجانس بين أطرافها .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

أى : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التعبير ج ٩ ص ١٧ .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم ، بمعرفة تفسير رؤيا الملك ، ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فقد أتى بيان المفيدة للشك .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلماذا قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ! ؟ .

قلت : هو كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمام الخبز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة ، تزيدا في الوصف ، فهؤلاء أيضا تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام - ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا سواها «^(١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وقال الذى نجا منها ﴾ أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك .

﴿ وادكر بعد أمة ﴾ : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف فسر له يوسف رؤياه تفسيرا صادقا أيام أن كان معه فى السجن .

وأصل « ادكر » اذتكر بوزن افتعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال ، لأنها أخف من الذال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله « اذكرنى عند ربك » فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه ، تذكر هذا الساقى حال يوسف .

قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أى : قال الساقى للملك وحاشيته : أنا أخبركم بتأويله: بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قومه . فأرسلون ، أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .

وقال ﴿ فأرسلون ﴾ ليشعرهم أن هذا التأويل ليس من عند نفسه ، وإنما هو من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام .

وقوله ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ... ﴾ من بديع الإيجاز بال حذف في القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عنده العلم بذلك ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف في السجن فقال له : يا يوسف أيها الصديق .

والصديق : هو الإنسان الذي صار الصدق دأبه وشيمته في كل أحواله ، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه في السجن .

وقوله « أفتنا » أى فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتي عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى في منامه « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » .

وقوله « لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف - عليه السلام .

أى : فسر لنا هذه الرؤيا « لعلى أرجع إلى الناس » وهم الملك وأهل الحل والعقد في مملكته ، « لعلهم يعلمون » تأويلها ، فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا تجد يوسف - عليه السلام - لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤوها تأويلا صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال ، فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ... ﴾ .

وتزرعون ههنا : خبر في معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك « فذروه » ..

وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة في التعبير عن استجابتهم لنصيحته ، فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الامتثال .

و ﴿ دأبا ﴾ مصدر دأب على الشيء إذا استمر عليه ولازمه يقال : دأب فلان على فعل هذا الشيء يدأب دأبا ودأبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير « تزرعون » أى قال يوسف للساقى : فارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ فما حصدتم ﴾ من زرعكم في كل سنة ، فذروه في سنبله ، أى : فاتركوا الحب في سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه : إلا قليلا مما تأكلون .

أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئاً قليلاً منه فأخرجوه من السنابل لمحاكتكم إليه فى مآكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى مآكلاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

قال القرطبي : هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئاً منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف ، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله - تعالى - وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده ... »^(١) .

وقوله ﴿ ثم أتى من بعد ذلك ﴾ أى : من بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سبع شداد ﴾ أى : سبع سنين صعب على الناس ، لما فيهن من الجذب والقحط ، يأكلن ما قدمت لهن ، أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .

وأسند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلى ، من إسناد الشىء إلى زمانه .
وقوله ﴿ إلا قليلاً مما تحضنون ﴾ أى : أن تلك السنين المجذبة ستأكلون فيها ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئاً قليلاً منه يبقى محرزاً ، لتنتفعوا به فى زراعتكم لأرضكم .
فقوله ﴿ تحضنون ﴾ من الإحصان بمعنى الإحراز والادخار ، يقال أحصن فلان الشىء ، إذا جعله فى الحصن ، وهو الموضع الحصين الذى لا يوصل إليه إلا بصعوبة .

وحاصل تفسير يوسف - عليه السلام - لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخضبة . وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجذبة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخضبة وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخضبة ، فى السنين المجذبة .

ولقد كان هذا التأويل لرؤيا الملك تأويلاً صحيحاً صادقاً من يوسف - عليه السلام - بسببه أنقذ الله - تعالى - مصر من مجاعة سبع سنين .

وقوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ ﴿ يغاث ﴾ من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التي يسوقها الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التي قل فيها المطر .

يقال : غاث الله - تعالى - البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن يشوا من نزوله ، ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتاً أم ماء أم غيرها .

أى : ثم يأتي من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ونقص الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتحضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه .

وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذي يأتي في أعقاب السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له في رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك والناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما يوحى من الله - تعالى - الذي يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة . وإلى هنا نرى أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيراً سليماً حكيماً ، من نتائجه الخير للملك وقومه ...

فماذا فعل الملك مع يوسف - عليه السلام - بعد ذلك ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز في شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ

بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ

النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ

مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنَا حَصْحَصَ
 الْحَقِّ أَنَارُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ
 لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾
 ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
 رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ
 لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ
 اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ
 مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ
 الْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

فقوله - سبحانه - ﴿٥١﴾ وقال الملك ائتنوني به ... ﴿٥٢﴾ حكاية لما طلبه الملك في ذلك الوقت من
 معاونيه في شأن يوسف - عليه السلام - ، وفي الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير :
 وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف في تفسير الرؤيا أحضروا لي يوسف هذا
 لأراه وأسمع منه ، وأستفيد من علمه .

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازي - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما
 علمه ليوسف سبباً للخلاص من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من
 المحن الآخروية؟^(١) .

وقوله - سبحانه - ﴿٥٦﴾ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي

قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم ﴿ بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، قال له يوسف بأناة وإباء : أرجع إلى ربك ، أى إلى سيدك الملك « فأسأله » قبل خروجى من السجن وذهابى إليه « ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » أى : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معى ، لأن الكشف عن حقيقة أمرهن معى يهمنى أن يكون واضحا فى الأذهان والعقول ، حتى يعرف الجميع أنى برئى ، وأننى نقى العرض طاهر الذليل .
والمراد بالسؤال فى قوله « أرجع إلى ربك فأسأله » الحث والتجريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن .. .

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه لزيادة تهيجه على البحث والتقصى إذ من شأن الإنسان - خصوصا إذا كان - حاكما - أن يأنف من أن يسأل عن شىء مهم ، ثم لا يهتم بالإجابة عنه .

وقد آثر يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو فى السجن لتظهر الحقيقة خالصة ناصعة ، دون تدخل منه فى شأنها .

وجعل السؤال عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ، وفاء لحق زوجها ، واحترازا من مكرها ، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشيف ﴿ فذلكن الذى لمتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، سترأهن ، وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته

ولقد أجاد صاحب الكشاف فى تعليقه لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت براءته فقال :

« إنما أتى وتثبت يوسف في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قذف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده . ويجعلوه سلما إلى حظ منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره .

وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم ، واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها^(١) . وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث في فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه - ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة في قوله - تعالى - ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ... ﴾ أن رسول الله ﷺ - قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ - : لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ؛ والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسيان ، ولو كنت مكانه ما أجبته حتى أشرط أن يخرجوني .

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر^(٢) .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفي الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣١٧ ، وما ورد في هذه الأحاديث إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله - ﷺ - ولا فإنه - ﷺ - أقوى الرسل عزا ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبرا .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذى يجعل الناس يتحدثون فيه كثيراً ، وجمعه خطوب .

والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة قال لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكن .. ؟
قال صاحب الظلال ما ملخصه : « والخطب الأمر الجلل ... فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل ..
ومن هذا نعلم شيئا بما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ، وما قالته النسوة ليوسف ، وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى بلغ حد المراودة .

ومن هذا تتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموهل فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائما ، وأنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرسقراطية »^(١) .

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن الإنكار ، بل قلن بلسان واحد :
﴿ حاش لله ﴾ أى : معاذ الله .

﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستعصام عن كل سوء .

وهنا ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ ويبدو أنها كانت حاضرة ، معهن عند الملك .

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حصص ، كما قيل ، ككبب فى كب ، وهو مأخوذ من الحصص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حصص شعره إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته ...

ثم أضافت إلى ذلك قولها « أنا راودته عن نفسه » أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت « وإنه لمن الصادقين » فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللاتى قطعن أيديهن .

قال صاحب الكشف : « ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على

أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قذفنه به لأنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال «^(١) - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء - .
ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسى من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسوؤه بعد أن فارقنى ، ولبث بعيداً عنى فى السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين ...
وإنما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ، أى : لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان .

لذا فأنا التزمت الأمانة فى الحديث عنه ، وابتعدت عن الخيانة ، لأن الله - تعالى - لا يرضاه ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التى شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها ، قد عللت شهادتها هذه بعلتين :

إحداها : كراهتها أن تخونه فى غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو فى السجن ..
وثانيتهما : علمها بأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ولا يسدده ، وإنما يبطله ويزهقه ..

ثم أضافت إلى كل ذلك قولها : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

أى : ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، فأنا التى قلت لزوجى فى حالة دهشتى وانفعالى الشديد ، ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ وما حملنى على هذا القول إلا هواى وشهواتى ، ونفسى : إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا نفساً رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف - عليه السلام -

وجملة ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى : إن ربي كثير الغفران وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه ، عن غيره من الناس الذين رأتهم .

هذا ، ويرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ هو من كلام يوسف - عليه السلام - ، فيكون المعنى :

وذلك ليعلم « أى العزيز » أنى لم أخنه ، فى أهله ﴿ بالغيب ﴾ أى فى غيبته ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال ، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه .

﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ أى : ولا أنزهها عن السوء ، وهذا من باب التواضع منه - عليه السلام - ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أى : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية ، شأنه الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ من النفوس فعصمها عن أن تكون أماراة بالسوء .
﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ لمن شاء أن يفر له ويرحمه من خلقه .

والذى نراه أن رأى الأول الذى سرنا عليه هو الجدير بالقبول ، لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف ، ولأنه لا يودى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض ، بخلاف رأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - « وإنه لمن الصادقين » فإنه يودى إلى تفكك الكلام ، وعدم ارتباط بعضه ببعض ، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا تؤيده ، لأن يوسف - عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك النسوة وقال لهن : « ما خطيبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ... » . وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمأهمن : « الآن حصص الحق .. » إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ .

ومن المفسرين الذين أيدوا رأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... » تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، بأنى راودت هذا الشاب

فامتنع ، ﴿ وما أبرئ نفسي ... ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء .

﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أى : من عصمه الله - تعالى - ...

ثم قال : « وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف - عليه السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك »^(١) .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته عليه السلام .

وهو جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ... ﴾ .

وفى الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير : وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف - عليه السلام - انكشافا تاما ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز ، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به ، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه ..

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته : ائتوني بيوسف هذا ، ليكون خالسا لنفسي ، وخاصة بي فى تصريف أمورى ، وكتبتان أسرارى ، وتسيير دفعة الحكم فى مملكتى .

والسين والتاء فى قوله « أستخلصه » للمبالغة فى الخلوص له ، فهما للطلب كما فى استجاب ، والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الشركة .

فكان الملك قد شبه يوسف - عليه السلام - بالشئ النفيس النادر ، الذى يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه .

والفاء فى قوله « فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » معطوفة على محذوف يفهم من السياق .

والضمير المنصوب فى « كلمه » يعود على الملك - على الراجح - .

والمراد باليوم : الزمان الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .

و ﴿مكين﴾ صفة مشبهة من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة ، يقال : مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة .

﴿أمين﴾ بزنة فاعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على ما نكلفك به ، ومحل ثقتنا . والمعنى : وقال الملك لجنده انتونى بيوسف هذا أستخلصه لنفسى فأتوه به إلى مجلسه . فازداد حب الملك له وتقديره إياه وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى هذه المملكة ، وتلك المقالة من الملك ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر ؛ وعزة النفس ، وطهارة القلب ، والاستعصام بحبل الله المتين ...

وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها ﴿قال : اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ والخزائن جمع خزانة - بكسر الخاء وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء ، والمراد بالأرض : أرض مصر .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصرفها فيما يفيد وينفع ... فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئاً لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير شئونها ... لأنها مقبلة على سنوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته وكفاءته ، وعلمه ...

قال صاحب الكشاف : « وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعت الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله - لا لحب الملك والدنيا »^(١) .

وقال القرطبي ما ملخصه : « ودلت الآية - أيضاً - على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً .

فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله - ﷺ - في الأحاديث الصحيحة من نهيهِ عن طلب الإمارة ...

فالجواب : أولاً : أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ...

الثاني : أنه لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لأني حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إني جميل مليح ... وإنما قال ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ فساها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله - تعالى - ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾^(١) .

والخلاصة أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال للملك ، وطلب ما طلب منه ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه في ذلك الوقت وفي تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه ...

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذي أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ... ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - في خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضع أجر الصابرين المحسنين أى : ومثل هذا التمكين العظيم . مكنا ليوسف في أرض مصر ، بعد أن مكث في سجنها بضع سنين ، لا لذنب اقترفه ، وإنما لاستعصامه بأمر الله .

وقوله ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ تفصيل للتمكين الذي منحه الله - تعالى - ليوسف في أرض مصر ، والتبوأ اتخاذ المكان للنزول به . يقال : بوأ فلان فلانا منزلاً . أى مكنته منه وأنزله به أى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف في أرض مصر ، حيث هيأنا له أن ينتقل في أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول في أى مكان فيها . فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل في جميع أرض مصر ، كما يتصرف ويتنقل الرجل في منزله الخاص .

وقوله : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ... ﴾ بيان لكمال قدرته ونفاذ إرادته - سبحانه -

أى : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيتنا .
 ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل نوفيهم
 أجورهم على إحسانهم في الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .

﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ وأبقى ﴿ للذين آمنوا ﴾ يا الله - تعالى - إيماناً حقاً ﴿ وكانوا
 يتقون ﴾ خالقهم - عز وجل - في كل ما يأتون وما يذرون ، بأن يصونوا أنفسهم عن كل
 ما يفضيه .

وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير
 وسعادة في الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحياناً تكل معرفتها إلى فهم القارىء وفطنته ، فهى لم
 تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله
 ﴿ إني حفيظ عليهم ﴾ للدلالة على كفايته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر لأن
 هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أميناً على خزائن الأرض ،
 بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالاً للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير
 الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات
 شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون
 مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

لم تحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك ، فى أعقاب حديثها عن تمكين الله - تعالى -
 ليوسف فى الأرض ، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ،
 وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ...

قال تعالى :

وَجَاءَ إِخْوَتُهُ

يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا

جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآتُرُونَ

أَنِّي أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
 كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ
 وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قال الفخر الرازي - رحمه الله - اعلم أنه لما عم القحط في البلاد ، ووصل أيضاً إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - وصعب الزمان عليهم فقال لبنينه : إن بمصر صالحاً يبيع الناس - أى يعطيهم الطعام وما هم في حاجة إليه في معاشهم - فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة وبقي « بنيامين » مع أبيه ، ودخلوا على يوسف - عليه السلام - وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبره الله - تعالى - عنه في قوله ليوسف حال ما ألقوه في الجب ﴿ لتبينتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ (١).

وقد جاءوا إليه جميعاً - ما عدا « بنيامين » وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجذب والجوع .

وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للإشعار بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعدم معرفتهم له كان أمراً ثابتاً متمكناً منهم .

قال صاحب الكشاف : « لم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقتة إياهم في سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريماً في البئر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبذل الزى ، ويلبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف ... » (٢).

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ١٨ ص ١٦٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٩ .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التي حدثت في السبع السنين الشدادت شملت مصر وما جاورها من البلاد - كما سبق أن أشرنا - .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده ، دون غيره من المسئولين في مصر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم .. ﴾ بيان لما فعله يوسف معهم بعد أن عرفهم دون أن يعرفوه .

وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسرها قليل - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال : جهزت المسافر ، أى هيأت له جهازه الذى يحتاج إليه في سفره ، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه في دفنه ...

والمراد : أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم . وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهياً لهم ما هم في حاجة إليه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك في الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم .

وذلك لأن قوله لهم ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ يستلزم أن حديثاً متنوعاً نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .

ومن هنا قال المفسرون : إن قوله ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ يقتضى كلاماً دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، ومما قالوه في توضيح هذا الكلام : ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه قال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، جئنا ننتار ، ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثني عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : ائتوني بأخ لكم من أبيكم ^(١) .

ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئاً زائداً عن عددهم ، لأن لهم أخاً لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم إحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم ^(٢) .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٣١ .

والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخاً من أبيهم قد تركوه في منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم في الزيارة القادمة لى ، أن تحضروه معكم لأراه ...

وقوله « من أبيكم » حال من قوله « أخ لكم » أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم ، وليس شقيقاً لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .

وهذا من باب المبالغة في عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لكأنه لا معرفة له بهم ولا به إلا من ذكرهم إياه له .

وقوله : ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم في ذلك حتى ينشطوا في إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى منزلاً كريماً ... وما دام أمرى معكم كذلك ، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أبيكم في المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

والمراد بإيفاء الكيل : إتمامه بدون تطفيف أو تنقيص .

وعبر بصيغة الاستقبال « ألا ترون ... » مع كونه قد قال هذا القول بعد تجهيزه لهم . للدلالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه .

وجملة ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ حالية ، والمنزل : المضيف لغيره . أى : والحال أنى خير المضيفين لمن نزل فى ضيافتى ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أحاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتوني به معكم عند عودتكم إلى ، فإنى لن أبيعكم شيئاً مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، فضلاً عن ذلك فإنى أحذرکم من أن تقربوا بلادى فضلاً عن دخولها .

هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .

أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيه لأبيهم معهم : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومحادثة ومحابلة « وإنا لفاعلون » هذه المرادة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم - وهو « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ . والفتيان : جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته في عمله .

والبضاعة في الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا : أثان الطعام الذى أعطاه لهم يوسف - عليه السلام - .

والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتياناه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمعتهم ، فيجدون فيها الأثان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه من طعام وغيره . لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .

وكأن يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم « بنيامين » لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وقوله ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ تعليل لأمره فتياناه بجعل البضاعة فى رحال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم إلا بعد انقلابهم - أى رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفرغها عندهم .

وقوله « لعلهم يرجعون » جواب للأمر . أى : اجعلوها كذلك ، لعلهم بعد اكتشافهم أنهم ما دفعوا لنا ثمن ما أخذوه ، يرجعون إلينا ليدفعوا لنا حقنا .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه

فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم ...
فإذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكى لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم في اصطحاب « بنيامين » معهم في رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكى ما رد به أبوهم عليهم . قال - تعالى - :

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَنَحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ
قَبْلُ فَأَلَّهٗ خَيْرٌ حَفِظَ ۗ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبِغِي هَٰذِهِ ۖ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفُظُ
آخَانًا وَنَزِدُ دُكَيْلًا بِعَيْرِ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَن
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ۖ إِلَّا
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۗ إِنِ ٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۗ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ

لذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .

والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذي هم في حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه في المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل .

﴿ يا أبانا ﴾ لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة إذا لم نأخذ معنا أخانا « بنيامين » ليراه عند عودتنا إليه : فقد قال لنا مهدداً عند مغادرتنا له : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ .

وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ، فترجوك أن توافقنا على اصطحاب « بنيامين » معنا « وإنا له لحافظون » حفظاً تاماً من أن يصيبه مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله ...

وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيرتب عليه منع الطعام عنهم .

وقرأ حمزة والكسائي « فأرسل معنا أخانا يكتل » - بالياء - أى : فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال ، لأن عزيز مصر لا يعطى طعاماً لمن كان غائباً .

وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم في جواب الطلب .

وقالوا له ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له : وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتاً لا مناص منه .

ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحزان والآلام في نفس يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له في شأن يوسف - أيضاً - ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم في استنكار وألم بقوله : ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ... ﴾ .

أى : قال يعقوب لأولاده بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيه معهم ، وبعد أن تعهدوا بحفظه : أتريدون أن أأمنتكم على ابني « بنيامين » ، كما أمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التي تعرفونها جميعاً ، وهي فراق يوسف لى فراقاً لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - !!! لا ، إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف . فالاستفهام فى قوله « هل آمنكم .. » للإنكار والنفى .

وقوله ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ تفرغ على استنكاره لطلبهم إرسال « بنيامين » معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله - تعالى - خير من حفظهم .

أى : إننى لا أثق بوعودكم لى بعد الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته « فالله » - تعالى - « خير حافظاً » لمن يشاء حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف من قبل حين ائتمنتكم عليه « وهو » - سبحانه - ﴿ أرحم الراحمين ﴾ لمخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى « بنيامين » ، كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا - أى رد يعقوب عليهم - ميل منه - عليه السلام - إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ، وفيه أيضاً من التوكل على الله - تعالى - ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله - تعالى - قال : « وعزق وجلالى لأردهما عليك إذ توكلت على ... » وقرأ أكثر السبعة ﴿ فالله خير حفظاً ... ﴾ وقرأ حمزة والكسائى وحفص « حافظاً ... » وعلى القراءتين فهو منصوب على أنه تمييز ... »^(١) .

ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاوره مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا ما بها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ... ﴾ .

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر . فوجئوا بوجود أثبان هذا الطعام قد رد إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم

دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين :

﴿ يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

فما فى قوله ﴿ ما نبغى ﴾ استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ، ونبغى من البغَاء - بضم الباء - وهو الطلب .

والمراد ببضاعتهم : الثمن الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد .
وجملة ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .

فكأنهم قالوا لأبيهم : كيف لا نعجب وندعش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شىء ؟

وقوله ﴿ ونغير أهلنا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » فنتفخ بها فى معاشنا ، ونغير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة - بكسر الميم وسكون الباء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ عند سفره معنا من أى مكروه .

﴿ ونزداد ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر .

﴿ كيل بعير ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظراً لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد

الرءوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير ، لا يكفيننا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لتأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاهها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر .

ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزير مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهما وازدياد الأظعمة بسبب وجوده معهم .

ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن فى قوله :

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنى به إلا أن يحاط بكم ﴾ .
والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه موثيق .

أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم « بنيامين » إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله ، بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، « إلا أن يحاط بنا » أى : إلا أن نهلك جميعاً ، أو أن تغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .
يقولون : أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص ، واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالباً .

وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقاً ، لأنه مما تؤكد به اليهود وتقوى وقد أذن الله - تعالى - بذلك عند وجود ما يقتضى الحلف به - سبحانه - .

وقوله : « لتأتنى به » جواب لقسم محذوف والاستثناء فى قوله « إلا أن يحاط بكم » مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا : والله لنأتينك به معنا عند عودتنا ، فى جميع الأحوال والظروف إلا فى حال هلاككم أو فى حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين الإتيان به معكم .

وقوله ﴿ فلما أتوه موثقهم ﴾ أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر .

« قال » لهم على سبيل التأكيد والحض على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم وكيل ، أى : مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيراً ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

قال ابن كثير : « وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال ﴿ وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يا بني إذا وصلتكم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .

قالوا : وكانت أبواب مصر في ذلك الوقت أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى في قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذراً من إصابة العين ه أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة .. فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...

ثم قال : والعين حق ، كما صح عن رسول الله - ﷺ - وصح أيضاً بزيادة « ولو كان شئ يسبق القدر سبقته العين » ...

وقد ورد أيضاً : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »^(١) .

وقيل : إن السبب في وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى في أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - ...

وقوله ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شئ ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : وإني بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئاً قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشئ قليلاً .

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أى : ما الحكم في كل شئ إلا لله - تعالى - وحده لا ينازعه في ذلك منازع . ولا يدافعه مدافع .

« وعليه » وحده « توكلت » في كل أمورى .

« وعليه » وحده « فليتوكل المتوكلون » أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .

إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ في الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده في كل الأمور ، وأن الأسباب ما هي إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - معها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد . ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتقاد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأديباً مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها ...

ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ . والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفاً عليهم من الحسد . ومعنى « قضاها » أظهرها ولم يستطع كتبائها يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التي أمرهم أبوهم بالدخول منها ، « ما كان » هذا الدخول « يغني عنهم » أى يدفع عنهم من قدر « الله من شيء » قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة أى رغبة خطرُت في نفسه « قضاها » أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم مع اعتقاده بأن كل شيء يقضاه الله وقدره .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ ثناء من الله - تعالى - على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب - عليه السلام - لذو علم عظيم ، للشئ الذى علمناه إياه عن طريق وحيناً ، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله .

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون ما يعلمه يعقوب - عليه السلام - من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله - تعالى - أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأني للأمور .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم في شأن سفر أخيهم معهم .. فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات

والمفاجآت والمحاورات ... التي حكاها القرآن في قوله - تعالى - :

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ أَخَاهُ قَالَ
 إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
 فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
 أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا
 عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ
 وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاءُؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاءُؤُهُ
 مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
 وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
 وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ
 فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفَ فِي نَفْسِهِ
 وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
 فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا
 إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا
 قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ
 مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ
 الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
 ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ
 ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾ شروع في بيان ما دار
 بين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه « بنيامين » بعد أن حضر مع إخوته .
 وقوله ﴿ آوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلاناً إذا ضمه إلى نفسه ،
 ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت وتجمعت .
 وقوله ﴿ فلا تبتئس ﴾ : افتعال من البؤس وهو الشدة والضر . يقال بئس - كسيع -
 فلان يؤساً وبئوساً ، إذا اشتد حزنه وهمه .

والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئناً
 ومواسياً : إني أنا أخوك الشقيق . فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ،
 فإن الله - تعالى - قد عوض صبرنا خيراً ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم
 أخوه « بنيامين » وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختلى
 بأخيه فأطلعهم على شأنه وما جرى له وقال : « لا تبتئس » أى : لا تأسف على ما صنعوا

بي ، وأمره بكتان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرماً معظماً^(١) .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ... ﴾ والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ..
والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به في ذلك الوقت نظراً لقلّة الطعام وندرته .
وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :

وحين أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع في متاع أخيه « بنيامين » دون أن يشعر بهم أحد ..
وقوله ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهبثوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل .

والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به . والمراد بالعير هنا : أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التي تحمل الطعام وقيل العير تطلق في الأصل على قافلة الحمير ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة .
أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والذى يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية في رحل أخيه . ومن اتهمه لإخوته بالسرقة .. إنما كان بوحي من الله - تعالى - لما علم - سبحانه - في ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك . ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٨٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٢ .

وتفقدون : من الفقد ، وهو غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه .
 أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون ، قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اهتممونا بأننا سارقون !!!
 وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أى : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به للممتارين .
 ﴿ ولن جاء به ﴾ أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقه .
 ﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له .
 ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أى : وأنا بهذا الحمل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .
 ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف - عليه السلام - .

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردًا يدل على استنكارهم لهذه التهمة وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ .
 أى : قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة : تالله يا قوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكى نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنترتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك ، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم ، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .
 وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ .
 أى : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفياً تاماً .
 إذاً فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين .
 فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم بقولهم : ﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .
 والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم ، والضمير فى قوله « جزاؤه » يعود إلى السارق .

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحله ومتاعه أن يسرق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الشوكاني ما ملخصه : وقوله « جزاؤه » مبتدأ ، وقوله « من وجد في رحله » خبر المبتدأ .

والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - ، وتكون جملة « فهو جزاؤه » لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله « فهو جزاؤه » زيادة في البيان . أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير^(١) .

وقالوا « جزاؤه من وجد في رحله » ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقة ، للإشارة إلى كمال نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم من السرقة ، حتى لكأن أسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها في هذا المقام .

وقوله : ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ مؤكد لما قبله ، أى مثل هذا الجزاء العادل ، وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجازى الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .

والتقدير : وبعد هذه المحاورة التي دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهموهم بالسرقة أخبر الإخوة بتفتيش أمتعتهم للبحث عن الصواع بداخلها .

« فبدأ » المؤذن بتفتيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء « بنيامين » فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم .

فلما وصل إلى وعاء « بنيامين » وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى من يوسف - عليه السلام - وكان أيضاً بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى « أيتها العير إنكم لسارقون » ، وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق في شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه « بنيامين » دفعا للتهمة ، ونفيا للشبهة ...

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء « بنيامين » لتفتيشه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئاً ؟ فقالوا : والله لا تتركه حتى تنظر في رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا^(٢) .

(١) تفسير فتح القدير للامام الشوكاني ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٣ ص ٢٨ .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزي ، بعد أن وجدت السقاية في رحل « بنيامين » وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التي من أجلها أهدى الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية في رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق في شريعتهم فيقول ﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ... ﴾ . و « كدنا » من الكيد وأصله الاحتيال والمكر ، وهو صرف غيرك عما يريد به حيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبیح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل . والمراد به هنا : النوع المحمود ، واللام في « ليوسف » للتعليل .

والمراد بدين الملك : شريعته التي يسير عليها في الحكم بين الناس .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن أهدناه بأن يضع السقاية في رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق في شريعتهم .. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال في شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو - سبحانه - الذي أهدى أن يدس السقاية في رحل أخيه ، وهو - سبحانه - الذي أهدى أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم .

والجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف حيث أهدى ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .

قال الآلوسی ما ملخصه : قوله : « كذلك كدنا ليوسف » أى : مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور ... دبرنا وصنفتنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه ...

وقوله « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » أى في حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد ، كأنه قيل : لماذا فعل ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق في دينه أن يضاعف

عليه الغرم ... دون أن يسترَق كما هو الحال في شريعة يعقوب .
 وقوله « إلا أن يشاء الله » أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك الكيد المذكور .. «^(١) .
 قالوا : وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً »^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ نرفع درجات من نشاء فوق كل ذى علم عليم ﴾ استئناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعطائه .

أى : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب .. كما رفعنا درجات يوسف - عليه السلام - .

﴿ وفوق كل ذى علم ﴾ من أولئك المرفوعين « عليم » يزيد عنهم في علمهم وفي مكانتهم عند الله - تعالى - فهو - سبحانه - العليم بأحوال عباده ، ويمنازهم عنده ، وبأعلامهم درجة ومكانة .

وقال - سبحانه - « نرفع » بصيغة الاستقبال والأشعار بأن ذلك سنة من سنته الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل ، وأن عطائه - سبحانه - لا يناله إلا الذين تشملهم إرادته ومشيئته كما تقتضيه حكمته .

وجاءت كلمة « درجات » بالتكثير ، للإشارة إلى عظمها وكثرتها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه « بنيامين » فقال - تعالى - ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المحرج لهم . إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .
 وقولهم هذا يدل على أن صنعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكناً من نفوسهم .

وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - أنه قال فى الآية : سرق يوسف - عليه السلام - صنماً لجده وكان هذا الصنم من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فعير إخوته بذلك »^(٣) .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٣٢ .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢٩ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ٤٣ .

وقوله ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ بيان لموقفه من مقاتلهم ، والضمير في « فأسرها » يعود إلى تلك المقالة التي قالوها .

أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله إخوته في حقه وفي حق شقيقه فسأه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه وإنما رد عليهم بقوله « بل أنتم » أيها الإخوة « شر مكانا » أى : موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخذعتموه ، وقتلتم له بعد أن أقيتم أحاكم في الجب ، لقد أكله الذئب . « والله » - تعالى - « أعلم » مني ومنكم « بما تصفون » به غيركم من الأوصاف التي يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكي يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقال : ﴿ قالوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ الذى أكرمنا وأحسن إلينا « إن » أخانا هذا الذى أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد ترك من خلفه في بلادنا « أبا شيخاً كبيراً » متقدماً في السن ، وهذا الأب يجب هذا الابن حباً جماً فإذا كان ولا بد من أن تأخذ واحداً على سبيل الاسترقاق بسبب هذه السرقة « فخذ أحداً مكانه » حتى لا نفجع أبانا فيه .

وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لأننا « نراك من المحسنين » إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا « بنيامين » ليسافر معنا .

ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم ليوسف ، لم ينفعهم شيئاً ، فقد رد عليهم في حزم وحسم بقوله : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... ﴾ و « معاذ » منصوب بفعل محذوف .

أى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذاً ، من أن نأخذ في جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو « بنيامين » .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق في شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير في هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .

﴿ إِنَّا إِذَا لَظَمُونَ ﴾ إذا أخذنا شخصاً آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده . والظلم تأباه

شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدل في هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدل ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته في العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلقهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه ..

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ... ﴾ .

وقوله « استيأسوا » يشيرون يأساً تاماً فالسين والتاء للمبالغة .

و « خلصوا » من الخلوص بمعنى الانفراد .

و « نجيا » حال من فاعل خلصوا . وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل المبالغة .

والفاء فى قوله ﴿ فلما استيأسوا منه ... ﴾ معطوفة على محذوف يفهم من الكلام .

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم بنيامين ، فلما يشيرون يأساً تاماً من الوصول إلى مطلوبهم ، انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم « بنيامين » ..

هذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ من أبلغ الجمل التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الإمام الثعالبي فى كتاب « الإيجاز والإعجاز » فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله - تعالى - فى إخوة يوسف ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ وهذه صفة اعترأهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معانى القصة الطويلة «^(١)» .

وقوله : ﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم ﴾ إلخ بيان لما قاله لهم أحدهم خلال تناجيهم مع بعضهم في عزلة عن الناس .

ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به « روبيل » لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه « يهوذا » لأنه كبيرهم في العقل ...

أى : وحين اختلى إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا في أمرهم بعد أن احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم :

« ألم تعلموا » وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم « بنيامين » .
« أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » عندما أرسله معكم ، بأن تحافظوا عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .

والم تعلموا كذلك أنكم في الماضي قد فرطتم وقصرتم في شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به في الحب .

والاستفهام في قوله : « ألم تعلموا ... » للتقرير . أى : لقد علمتم علماً يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علماً يقيناً بخيانتكم لعهد أبيكم في شأن يوسف ، فبأى وجه ستعودون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟

قال الشوكاني : قوله : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ أى عهداً من الله - تعالى - بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه يأذنه .

وقوله ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ معطوف على ما قبله . والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم ... وتعلموا تفريطكم في يوسف ، فقوله « ومن قبل » متعلق بتعلموا .
أى : تعلموا تفريطكم في يوسف من قبل . على أن ما مصدرية^(١) .

وقوله ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي .. ﴾ حكاية للقرار الذى اتخذته كبيرهم بالنسبة لنفسه .

أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ما سبق أن قلته لكم ، فانظروا في أمركم ، أما أنا « فلن أبرح الأرض » أى : فلن أفارق أرض مصر « حتى يأذن لي أبي » بمفارقتها ، لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين . « أو يحكم الله لي » بالخروج منها

ويفارقتها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق مع أبي « وهو » - سبحانه - « خير الحاكمين » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : « ارجعوا » يا إخوتي « إلى أبيكم » يعقوب « فقولوا » له برفق وتلطف . « يا أبانا إن ابنك » بنيامين « سرق » صواع الملك ، ووجد الصواع في رحله وقولوا له أيضًا : « إننا » ما شهدنا إلا بما علمنا « أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا وبقيننا بأنه سرق .

« وما كنا للغيب حافظين » أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهدنا وموآثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا .

وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت في شك من قولنا هذا فاسأل « القرية التى كنا فيها » والمراد بالقرية أهلها .

أى : فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثة السرقة فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها .

قالوا : ومرادهم بالقرية مدينة مصر التى حدث فيها ما حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معينًا منها ، وهو الذى حصل فيه التفتيش لرحالهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونه .

وقوله : ﴿ والعير التى أقبلنا فيها ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : أسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأسأل « العير » أى : قوافل التجارة التى كنا فيها عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك « بنيامين » .

وقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أى : وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به . فكن واثقًا من صدقتنا .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل ذلك فى شأن يوسف : « أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » ثم ألقوا به فى الجب ، « وجاءوا أباهم عشاء يبكون ... » .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ بالرد ، والترغيب والترهيب .. ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقه « بنيامين » .

فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم - على عادته في هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله في رحمة الله - تعالى - فيقول :

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى
يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

أى : « قال » يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيج أحزانه

قال لهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمراً أنتم أردتموه ، فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا لله - تعالى - .

قال ابن كثير : « قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب » بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه

بنيامين يشبه ما فعلوه يوسف فقال : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً ... » .
وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول
عليه ، وصح قوله « بل سولت لكم أنفسكم أمراً ... » .

والخلاصة أن الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ، المفيد لتشككه فى
صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ما ضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى
يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة الله ، وفى
رجائه الذى لا يخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعاً فقال - عليه السلام - ﴿ عسى الله أن
يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعاً - يوسف وبنيامين وروبير الذى
تحلف عنهم فى مصر - إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل ما يفعله ويقضى به .

وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته
بالله - تعالى - وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه - .

وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما يراه غيره بحواسه وجوارحه .
ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزانه على يوسف ، جددها فراق بنيامين له
فقال - تعالى - ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو
كظيم ﴾ .

وقوله « يا أسفا » من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من أحداث . يقال :
أسف فلان على كذا بأسف أسفا ، إذا حزن حزناً شديداً .

وألفه بدل من ياء المتكلم للتخفيف والأصل يا أسفى .
وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلئ بالحزن ولكنه يخفيه من الناس ولا يبديه لهم .
ومنه قوله - تعالى - ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أى : المخفين له ، مأخوذ من كظم فلان
السقاء : إذا سده على ما بداخله .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبنائه ، ورد عليهم .. انتابته الأحزان
والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون .. فتركهم واعتزل مجلسهم وقال :

« يا أسفا على يوسف » أى : يا حزنى الشديد على يوسف أقبل فهذا أوان إقبالك .

﴿ وابيضت ﴾ عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره ، حيث انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء .

﴿ فهو كظيم ﴾ أى : ممتلئ حزناً على فراق يوسف له ، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره من الناس .

قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروبييل - مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ... لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حباً خاصاً لا يؤثر فيه مرور الأعوام ... ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم ابن نويرة فى رثائه لأخيه مالك فقال :

لقد لامنى عند القبور على البكا رقيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيتهُ لقبر ثوى بين اللوى والد كادك
فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف جاز لنبى الله يعقوب أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن .
ولقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .
وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد له ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب »^(١) .

ثم يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم والحزن فيقول : ﴿ قالوا تا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ .
قال الشوكانى : قوله « تفتأ » أى : لا تفتأ ، فحذف حرف النفى لأن اللبس . قال الكسائى : فتأت وفتئتُ أفعل كذا : أى ما زلت أفعل كذا .

وقال الفراء : إن « لا » مضمرة . أى لا تفتأ ... ومنه قول الشاعر :
 فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
 أى : « لا أبرح قاعدا ... »^(١) .
 و « حرضا » مصدر حرض . كتعب - والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن
 أو المرض أو غيرها .

والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهو يتحسر على فراق يوسف له : تالله -
 يا أبانا - ما تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ، والحزن المضى ، « حتى تكون
 حرضا » . أى : مشرفا على الموت لطول مرضك .
 « أو تكون من الهالكين » المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل ... ﴿ قال إنما أشكو
 بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

و « البث » ما ينزل بالإنسان من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى أنه
 لا يستطيع إخفاء هذا الحزن ، وأصله التفريق وإثارة الشئ ومنه قولهم : بثت الريح التراب
 إذا فرقته .

قالوا : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزناً ، وإذا لم يقدر على
 كتمه كان بثاً ...

والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذين لاموه على شدة حزنه على يوسف : إنما أشكو ،
 « بثى » أى : همى الذى انطوى عليه صدرى « إلى الله » - تعالى - وحده ، لا إلى غيره ،
 فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى
 « أعلم من الله » أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة « ما لا تعلمون »
 أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى بين فارقنى من أولادى ، فإن
 حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .

قال صاحب الظلال : « وفى هذه الكلمات - التى حكاها القرآن عن يعقوب - عليه
 السلام - ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة
 ذاتها بجلالها الغامر ، ولأنها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلاً عن عودته إلى أبيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ... وهذه قيمة الإيمان بالله ...

إن هذه الكلمات « أعلم من الله ما لا تعلمون » تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب ... والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه - مهما - بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق ... »^(١) .

ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - في رده على أولاده فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ . والتحسس : هو طلب الشيء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث . أى : قال يعقوب لأبنائه : يا بني « اذهبوا » إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه « فتحسسوا » أمرهما . وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نياهما بدون كلل أو ملل .

وفى التعبير بقوله « فتحسسوا » إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى « ولا تيأسوا من روح الله » أى : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته ، وأصل معنى الروح التنفس . يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير ل حلول الفرج . وكلمة « روح » - بفتح الراء - أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما تنتسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ تعليل لحضهم على التحسس أى : لا تقصروا في البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله - تعالى - وبصفاته وبعظيم قدرته ، وبواسع رحمته ...

أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبداً ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب ...

واستجاب الأبناء لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا في طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزير مصر الذي احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ^ط
وَجِئْنَا بِضِعَّةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا^ط
إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَءِتَاكَ
لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ^ط
عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْرِفْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تُقَدِّدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا

يَتَأَبَانَا اسْتَغْفِرْنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ
 اسْتَغْفِرُكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾

وقوله - تعالى - ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَنْسَأُ وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ
 مَرْجَاةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد أن امتثلوا
 أمر أبيهم ، فخرجوا إلى مصر للمرة الثالثة ، ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، وليشتروا من
 عزيزها ما هم في حاجة إليه من طعام .

والبضاعة : هي القطعة من المال ، يقصد بها شراء شيء .

والمزجاة : هي القليلة الرديئة التي ينصرف عنها التجار إهمالاً لها .

قالوا : وكانت بضاعتهم دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة - أي : بأقل قيمة - وقيل
 غير ذلك .

وأصل الإزجاء : السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ألم تر أن الله يزجي
 سحاباً ... ﴾ . أي : يرسله رويدا رويدا ...

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس
 الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف ، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة « يَا
 الْعَزِيزُ » أي : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق ، « مَنْسَأُ وَأَهْلُنَا الضَّرَّ » أي :
 أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجذب والهزل من شدة الجوع .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ مَرْجَاةٍ ﴾ أي : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف
 عنها كل من يراها من التجار ، إهمالاً لها ، واحتقاراً لشأنها .

وإنما قالوا له ذلك : استدراجاً لعطفه ، وتحريكاً لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم
 الذي حكاه القرآن في قوله :

﴿ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ... ﴾ أي : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى
 الشفقة والرحمة ، ما دام أمرنا كذلك ، فأتمم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئاً ، وتصدق علينا فوق
 حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ على غيرهم جزاء كريماً
 حسناً

ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر وضيق حال ، تأثراً جعله لا يستطيع أن يخفي حقيقته عنهم أكثر من ذلك ، فبادرهم بقوله : ﴿ قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ .

أى : قال لهم يوسف - عليه السلام - على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم : هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان .

قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان في وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه ...

وقيل : نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم .
والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك ، من عفوه عنهم ، وطلب المغفرة لهم .

وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سيئات أخيهم يوسف ، فيقولون له في دهشة وتعجب ﴿ قالوا أأنك لأنت يوسف ﴾ ؟

أى : أأنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ... والذى فارقتاه وهو صغير فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئوننا؟ ..

فرد عليهم بقوله ﴿ قال أنا يوسف ﴾ الذى تتحدثون عنه . والذى فعلتم معه ما فعلتم ... « وهذا أخى » بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم ...

« قد منَّ الله » - تعالى - « علينا » حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ومن ضيق إلى فرج ...

ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وتلك سنته - سبحانه - التى لا تتخلف ...

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الخزى والخجل ،

حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم ، فقالوا له في استعطاف وتذلل : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .

أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه في ححك من جرائم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغنناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعتو .

فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

والتثريب : التعيير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الآلوسى : من الثرب ، وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش ... فاستعير للتأنيب الذى يميز الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ، كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب ، فالجامع بينها طريان النقص بعد الكمال .

أى : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعتو يا إخوتى : لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده . وقوله « لا تثريب » اسم لا النافية للجنس ، و « عليكم » متعلق بمحذوف خبر لا ، و « اليوم » متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم . وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهم فى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال :

﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

أى . اذهبوا يا إخوتى بقميصى هذا « فألقوه على وجه أبى » الذى طال حزنه بسبب فراقى له « يأت بصيرا » أى يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن .

« وأتوني » معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعاً من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن إلقاء

قميصه على وجه أبيه يؤدي إلى ارتداد بصره إليه كاملاً ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ويصور القرآن ما حدث فيقول : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ .

و « فصلت العير » أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل فلان من بلده كذا فصلاً ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

و « تفندون » من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم في السن .

والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب - عليه السلام - لمن كان جالساً معه من أهله وأقاربه ، استمعوا إلى « إني لأجد ريح يوسف » .

أى : رائحته التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به .

و « لولا » أن تنسبوني إلى الفند وضعف العقل لصدقتونى فيما قلت ، أو لولا أن تنسبوني إلى ذلك لقلت لكم إني أشعر أن لقائى بيوسف قد اقترب وقته وحين زمانه . فجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام - ما عبق من القميص من رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة له - عليه الصلاة والسلام - .

وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - تعالى - ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ، ولم يجدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ .

قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب مازلت غارقاً فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك . وهو حيك ليوسف وأملك فى لقائه والإكثار من ذكره .

وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف .. وحل أوان المفاجأة التى حكهاها القرآن فى قوله ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى

يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولبن أنكر عليه قوله ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ ﴿ ألم أقل ﴾ قبل ذلك ﴿ إني أعلم من الله ﴾ أى : من رحمته وفضله وإحسانه ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أنتم .

وهنا قال الأبناء لأبيهم فى تذلل واستعطاف : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ .

أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين .

﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ فى حقك وفى حق أخوينا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ أى : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور ﴾ أى الكثير المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ أى : الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه فى هذا اللقاء المثير الحافل بالمفاجآت والبشارات .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وبشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحققت معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فى نهاية القصة فيقول :

فَلَمَّا

دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١١﴾ وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا

لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
 مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
 رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ
 قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ... ﴾ معطوف على كلام محذوف والتقدير :

استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا . وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ فاتوا بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعاً من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوهم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقها عناقاً حاراً .

وقال للجميع ﴿ ادخلوا ﴾ بلاد ﴿ مصر إن شاء الله آمين ﴾ من الجوع والخوف . وقد ذكر المفسرون هنا كلاماً يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعاً لاستقبالهم كما ذكروا أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .

إلا أن ابن كثير قال : « قال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يبق دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها » ..

ثم قال : « وهذا الذي ذكره ابن جرير ، هو الذي يدل عليه السياق »^(١) .

والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن في ربوعها .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٦ .

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا في مصر ما بين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش في قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ السرير الذي يجلس عليه .
أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذي يجلس عليه ، تكريماً لها ، وإعلاء من شأنها .

﴿ وخروا له سجداً ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - .

« وقال » يوسف متحدثاً بنعمة الله ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً ... ﴾ .

أى : وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى . فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقاً ، وأراني تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة .
والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن فى مطلع هذه السورة فى قوله ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ثم قال يوسف لأبيه أيضاً : ﴿ وقد أحسن بى ﴾ ربي - عز وجل - ﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾ بعد أن مكثت بين جدرانها بضع سنين .

وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى بإلى ، لتضمنه معنى اللطف ولم يذكر نعمة إخراجهم من الحب ، حتى لا يبرح شعور إخوته الذين سبق أن قال لهم : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ .

وقوله ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ معطوف على ما قبله تعداداً لنعم الله - تعالى -
أى : وقد أحسن بى ربي حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بى أيضاً حيث يسر لكم أموركم ، وجمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية فى أرض كنعان بفلسطين .
وقوله ﴿ من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ أى جمعنى بكم من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الحب .

وأصل ﴿ نزع ﴾ من النزع بمعنى النخس والدفع . يقال : نزع الراكب دابته إذا نخسها ودفعها لتسرع في سيرها .

وأسند النزغ إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن في ذلك سترًا على إخوته وتادبًا معهم .

وقوله ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقي ، لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عبادته ، رفيق بهم في جميع شئونهم من حيث لا يعلمون .

إنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علمًا تامًا ، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله . ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن عنه في قوله : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ أى : يارب قد أعطيتنى شيئًا عظيمًا من الملك والسلطان بفضلك وكرمك .

﴿ وعلمتنى ﴾ - أيضًا - شيئًا كثيرًا ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرًا صادقًا بتوفيقك وإحسانك .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : خالقهما على غير مثال سابق ، وهو منصوب على النداء بحرف مقدر أى : يا فاطر السموات والأرض .

﴿ أنت ولى ﴾ وناصرى ومعينى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ .

﴿ توفنى ﴾ عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقى ﴿ مسلمًا ﴾ مدة حياتى .

﴿ وألحقنى ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بالصلحين ﴾ من النبيين والصدّيقين والشهداء والصلحين وحسن أولئك رفيقا .

وهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى ربه - تعالى - يختتم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشروهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاءه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب ..

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويلحقنا بهم ، ويوفقنا للسير على نهجهم ...

ثم يختم الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل التسلية على قلب الرسول - ﷺ - وبما يفتح له باب الأمل في النصر على أعدائه ... فيقول :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ

نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

﴿١٠٤﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا

وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا

وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ

أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ

اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ

إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ

نَصْرٌ نَّافِئٌ مِّنْ نَّشَأِهِمْ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. ﴾ . يعود على ما ذكره الله - تعالى - في هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة ، وما قصصناه عليك في غيرها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علماً تاماً شاملاً إلا الله - تعالى - وحده .

ونحن ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبر والعظات .

وقوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء الغيب الموحاة إلى النبى - ﷺ - .

أى : وما يشهد بأن هذا الذى قصصناه عليك في هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول الكريم - ما كنت حاضراً مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم استقر رأيهم على إلقائه في الحب ، وما كنت حاضراً أيضاً وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهداً لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، ولكننا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، ولينتفعوا بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - في خلال قصة نوح - عليه السلام - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ ^(١) .

وقوله - تعالى - في خلال قصة موسى - عليه السلام - ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ ^(٢) .

(١) سورة هود الآية ٤٩ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٤ .

وقوله - تعالى - في خلال حديثه عن مريم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾^(١) .
إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأن النبي - ﷺ - لم يكن معاصرا لمن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق لعلمه - ﷺ - بذلك طريق إلا طريق الوحي .

ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتعزية في قلب النبي - ﷺ - فقال : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة ، الذي ترتاح له النفوس وتقبله القلوب بسرور وانشراح . ولكن أكثر الناس قد استحوذ عليهم الشيطان ، فمسخ نفوسهم وقلوبهم ، فصاروا مع حرصك على إيمانهم ، ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لا يؤمنون بك ، ولا يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .

وفي التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ وما أكثر الناس ... ﴾ إشعار بأن هناك قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبي - ﷺ - ، فدخلت في الدين الحق ، عن طواعية واختيار .

وقوله ﴿ ولو حرصت ﴾ جملة معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبي - ﷺ - في كشف الحق ، فإنهم سادرون في ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشيء باجتهاد .
قال الآلوسى ما ملخصه : « سألت قريش واليهود رسول الله - ﷺ - عن قصة يوسف ، فنزلت مشروحة شرحاً وافياً ، فأمل النبي - ﷺ - أن يكون ذلك سبباً في إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - ﷺ - فعزاه الله - تعالى - بذلك »^(٢) .

وقوله ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ زيادة في تسلية الرسول - ﷺ - وفي إعلاء شأنه .

أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما تسألهم على هذا القرآن الذي تتلوه عليهم هدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيداً ضئيلاً . كما يفعل غيرك من الكهان والأخبار والرهبان ... وإنما تفعل ما تفعل ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٦٥ .

وقوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : ما هذا القرآن الذى تقرأه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .

قالوا : وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتناقى مع أخذ الأجرة من البعض دون البعض ، وإنما تنأتى الأجرة ، إذا كانت الدعوة خاصة وليست عامة .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم فى عمى عنها فقال : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

و ﴿ كأين ﴾ كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظمة الدالة على وحدانية الله وقدرته ير بها هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .

قال ابن كثير ما ملخصه : يخبر - تعالى - فى هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه - سبحانه - فى السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك ... وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وحيوانات ونبات ... فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ... «^(١) .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون إيماناً صحيحاً فقال - تعالى - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

أى : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله فى إقرارهم بوجوده ، وفى إعترافيهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به فى عقيدتهم وفى عبادتهم وفى تصرفاتهم ، فإنهم مع إعترافيهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، كبيراً أم صغيراً . وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أياً كان لونه ، منها قوله ﷺ :

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب .

عندما سئل أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ومنها قوله ؛ : « إن الرقى والتائم والتولة شرك » .

ومنها قوله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

ومنها قوله ﷺ : فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : يقول الله - تعالى - « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه »^(١) .

فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله رب العالمين . ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة تدمرهم تدميراً فقال - تعالى - : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . والغاشية ؛ كل ما يغطي الشيء ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب والاستفهام للتوبيخ والتفريع .

والمعنى : فأمن هؤلاء الضالون ، أن يأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم . وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

إن كانوا قد آمنوا كل ذلك ، فهم في غمرة ساهون ، وفي الكفر والطغيان غارقون ، فإنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ : أن يسير في طريقه الذي رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : ﴿ قل هذه سبيلي ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ... ﴾ والبصيرة : المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقى وسببى واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شبهة ، وهى أنى أدعو إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ببصيرة مستنيرة ، وحنة واضحة ، وكذلك أتباعى يفعلون ذلك ... ولن تكف عن دعوتنا هذه مهما اعترضتنا العقبات .

واسم الإشارة ﴿ هذه ﴾ مبتدأ . و ﴿ سببى ﴾ خبر ، وجملة ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ... ﴾ حالية ، وقد جرى بها على سبيل التفسير للطريقة التي انتهجها الرسول - ﷺ - في دعوته .

وقوله ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ تنزيه لله - تعالى - عن كل ما لا يليق به على أبلغ وجه .

أى : وأنزله الله - تعالى - تنزيهاً كاملاً عن الشرك والشركاء ، وما أنا من المشركين به في عبادته أو طاعته في أى وقت من الأوقات .

ثم بين - سبحانه - أن رسالته - ﷺ - ليست بدعا من بين الرسائل السبائية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه في الدعوة إلى الله ، فقال - تعالى - ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهيها إلى الناس ، إلا رجالاً مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصناهم بوحينا ليلغوه إلى من أرسلوا إليهم ، واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصفى عقولاً وأكثر حلماً .

وإنما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وأكثرهم تفهما وإدراكاً لما يلقى عليه من أبناء جنسه .

ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... ﴾ .

أى : أوصلت الجهالة والغفلة هؤلاء المشركين ، أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذاب دمرهم تدميراً ، وهؤلاء الجاحدين الذين دمروا ما زالت آثار بعضهم باقية وظاهرة في الأرض . وقومك - يا محمد - يرون عليهم في الصباح وفي المساء وهم في طريقهم إلى بلاد الشام ، كقوم صالح وقوم لوط - عليها السلام - .

فالجملة توبيخ شديد لأهل مكة على عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان على شاكلتهم في الشرك والجهود .

وقوله ﴿ ولدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم دائم ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أيها المشركون ما خاطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبر إلى الدخول في الإيمان ، ونبذ الكفر والطغيان .

ثم حكى - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... ﴾ .

وفي قوله ﴿ قد كذبوا ﴾ وردت قراءتان سبعيتان إحداها بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .

وعلى القراءتين فالغاية في قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ غاية لكلام محذوف دل عليه السياق .

والمعنى على القراءة التي بالتشديد . لقد أرسلنا رسلنا هداية الناس ، فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ، ووقفوا منهم موقف المنكر والمعاند والمحارب لهديتهم ، وضاق الرسل ذرعاً بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا استيأس الرسل الكرام من إيمان هؤلاء الجاحدين ، وظنوا - أى الرسل - أن أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم في كل ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم ، وإيذائهم لهم ... أى : حتى إذا ما وصل الرسل إلى هذا الحد من ضيقهم بأقوامهم الجاحدين جاءهم نصرنا الذى لا يتخلف .

والمعنى على القراءة الثانية التى هى بالتخفيف : حتى إذا يش الرسل من إيمان أقوامهم بأساً شديداً ، وظن هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم فيما جاءوهم به ، وفيما هدوهم به من عذاب إذا ما استمروا على كفرهم ..

حتى إذا ما وصل الأمر بالرسل وبالأقوام إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذى لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلاً منا وكرماً ..

فالضمير في قوله ﴿ كَذَّبُوا ﴾ بالتشديد يعود على الرسل ، أما على قراءة التخفيف ﴿ كَذَّبُوا ﴾ فيعود إلى الأقوام الجاحدين .

ومنهم من جعل الضمير - أيضاً - على قراءة ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا - أى الرسل - أن نفوسهم قد كذبت عليهم في تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد طال . والنصر قد تأخر .. جاءهم - أى الرسل - نصرنا الذى لا يتخلف .

قال الشيخ القاسمى في بيان هذا المعنى : قال الحكيم الترمذى : ووجهه - أى هذا القول السابق - أن الرسل كانت تحاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا عن تهمة بوعد الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال انتظاره واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة^(١) .

وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم
بخالقهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ معطوف على
ما قبله ، ومتفرع عليه .

أى : جاءهم نصرنا الذى وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجا من نشاء
إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل ، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم .
ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى
الألباب ﴾ أى : لقد كان في قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة
وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القوية ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من
حكم وأحكام ، وآداب وهدايات .

﴿ ما كان ﴾ هذا المقصوص في كتاب الله - تعالى - ﴿ حديثاً يفترى ﴾ أى يختلق .
﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذى بين يديه ﴾ من الكتب السابقة عليه ، كالتوراة
والإنجيل والزبور ، فهو المهيمن على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين
لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .
﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ أى : وكان في هذا الكتاب - أيضاً - تفصيل وتوضيح كل شيء
من الشرائع المجملة التى تحتاج إلى ذلك .

﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ،
ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، وينتفعون بما اشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .
وبعد : فهذا تفسير لسورة يوسف - عليه السلام - تلك السورة الزاخرة بالحكم
والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية في
حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها . وعظائها ومنعها وسرها وعلايتها ،
ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها ..

أسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شافعاً لنا يوم نلقاه وصلى الله وسلم
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

تفسير

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة « الرعد » توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه هذه
السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات تامة ، وأحكام حكيمة ،
وتراكيب بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده وشفيعاً لنا يوم نلقاه ، إنه
- سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

المؤلف

الدكتور محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدي سورة الرعد

نريد بهذا التمهيد - كما سبق أن ذكرنا في تفسير السورة السابقة - إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن سورة الرعد ، قبل أن نبدأ في تفسيرها آية فآية فنقول - وبالله التوفيق :

١ - سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها اثنتا عشرة سورة ، هي سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

٢ - وسميت بهذا الاسم منذ العهد النبوي ، ولم يعرف لها اسم سوى هذا الاسم ، ولعل سبب تسميتها بذلك ، ورود ذكر الرعد فيها ، في قوله - تعالى - ﴿ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... ﴾^(١) .

٣ - وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي ، وأربع وأربعون آية في المدني ، وخمس وأربعون في البصري ، وسبع وأربعون في الشامي^(٢) .

٤ - والذي يقرأ أقوال المفسرين في بيان زمان نزولها ، يراها أقوالاً ينقصها الضبط والتحقيق .

فهناك روايات صرحت بأنها مكية ، وأخرى صرحت بأنها مدنية ، وثالثة بأنها مكية إلا آيات منها فمدنية ، ورابعة بأنها مدنية إلا آيات منها فمكية ...

قال الآلوسى : « جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبي طلحة أنها مكية » . وروى ذلك عن سعيد بن جبير - أيضاً - .

قال سعيد بن منصور في سننه ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله - تعالى - ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هل هو عيد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية .

(١) الآية رقم ١٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٧٦ طبعة منير المشقى .

وأخرج مجاهد عن ابن الزبير ، وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء عنه أنها مدنية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنها مدنية إلا قوله - تعالى - ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبيهم بما صنعوا قارعة .. الآية ﴾ فإنها مكية .

وروى أن من أولها إلى آخر قوله - تعالى - ﴿ ولو أن قرآنا سیرت به الجبال ... ﴾ . نزل بالمدينة ، أما باقيها فنزل في مكة ..^(١) .

هذه بعض الروايات في زمان نزولها ، وهي - كما ترى - التعارض فيها واضح . والذي تطمئن إليه النفس ، أن السورة الكريمة يبدو بوضوح فيها طابع القرآن المكي ، سواء أكان ذلك في موضوعاتها ، أم في أسلوبها ، أم في غير ذلك من مقاصدها وتوجيهاتها . وأن نزولها - على الراجح - كان في الفترة التي أعقبت موت أبي طالب ، والسيدة خديجة - رضی الله عنها .

وهي الفترة التي لقي فيها الرسول - ﷺ - ما لقي من أذى المشركين وعتنتهم ، وطفيتانهم ..

والذي جعلنا نرجح أن نزولها كان في هذه الفترة ، ما اشتملت عليه السورة الكريمة ، من أدلة متنوعة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومن تسليية له - ﷺ - عما أصابه من قومه - كما سنرى ذلك عند تفسيرنا لآياتها ، كذلك مما جعلنا نرجح أن نزولها كان في هذه الفترة ، قول السيوطي في كتابه الإتيقان : « ونزلت بمكة سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ... »^(٢) .

وقد رجحنا عند تفسيرنا لسورة يونس ، وهود ، ويوسف - عليهم السلام - أن هذه السور قد نزلت في تلك الفترة من حياة النبي - ﷺ - ونرجح هنا أن نزول سورة الرعد كان في تلك الفترة - أيضاً - لمناسبة موضوعاتها لأحداث هذه الفترة .

٥ - عرض إجمالي لسورة الرعد :

(١) لقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبالإشارة إلى إعجازه ، ثم ساقته ألواناً من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وعظيم حكمته ...

(١) تفسير الألوسي جـ ١٣ ص ٧٥ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن جـ ١ ص ١٢ طبعة مصطفى الحلبي .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .. ﴾ .

(ب) ثم حكى السورة بعد ذلك جانباً من أقوال المشركين فى شأن البعث ، وردت عليهم بما يكتبهم فقال - تعالى - ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ، أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ... ﴾ .

(جـ) ثم بينت السورة الكريمة ما يدل على كمال علمه - تعالى - وعلى عظم سلطانه ، وعلى حكمته فى قضائه وقدره فقال - تعالى - : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ... ﴾ .

(د) ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يسأل المشركين سؤال تهكم وتوبيخ عن خلق السموات والأرض فقال - تعالى - : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ .

(هـ) ضربت السورة الكريمة مثلين للحق والباطل . وعقدت مقارنة بين مصير أتباع الحق ، ومصير أتباع الباطل فقال - تعالى - : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. ﴾ .

(و) ثم حكى السورة الكريمة بعض المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - وردت عليهم بما يحق باطلهم ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أتاب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .. ﴾ .

(ز) ثم حكى السورة الكريمة لوناً آخر من غلوهم فى كفرهم ، ومن مقترحاتهم الفاسدة ، حيث طلبوا من النبى - ﷺ - أن يسير لهم بالقرآن جبال مكة ليتفسحوا فى أرضها ، ويفجر لهم فيها الأنهار والعيون ليزرعوها ، ويحى لهم الموتى ليخبروهم بصدقه ... فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن قرآناً سیرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به

الموتى بل الله الأمر جميعاً ، أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ... ﴿ .
 (ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين ،
 وبالثناء على القرآن الكريم ، وبتسليية الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه وبالشهادة له
 بالرسالة ، وبتهديد المشركين بالعذاب الأليم ، فقال - تعالى - ﴿ مثل الجنة التي وعد
 المتقون أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ ...

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله
 من ولى ولا واق ﴾ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن
 يأتي بأية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب * ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ، قل كفى
 بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بالحديث عن
 موضوعات من أبرزها ما يأتي :

(١) إقامة الأدلة المتنوعة على كمال قدرة الله - تعالى - وعظيم حكمته . تارة عن طريق
 التأمل في هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد ، وأرض صالحة للاستقرار عليها ،
 وشمس وقمر وكواكب مسخرة لمنافع الناس ، وجبال لتثبيت الأرض ، وأنهار لسقى الزرع ...

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان
 يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .
 وتارة عن طريق علمه المحيط بكل شيء ، فهو العليم بما تنقصه الأرحام وما تزداده في
 الحلقة وفي المدة وفي غير ذلك ، وهو العليم بأحوال عباده سواء أكانوا ظاهرين بالنيار أم
 مستخفين بالليل .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده
 بمقدار ... ﴾ .

وتارة عن طريق الظواهر الكونية التي يرسلها - سبحانه - لعباده خوفاً وطمئناً ، ﴿ هو
 الذى يريكم البرق خوفاً وطمئناً وينشئ السحاب الثقيل ﴾ ويسبح الرعد بحمده والملائكة
 من خيفته ... ﴾ .

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء
 ويقدر ... ﴾ .

وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي ينزلها - سبحانه - بالكافرين ﴿ ولا يزال الذين

كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴿١﴾ .

(ب) إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، والرد على المشركين فيما طلبوه من النبي - ﷺ - من مطالب متعنتة ، ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله - تعالى - :

﴿ تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .
﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ .

(ج) تثبيت فؤاد النبي - ﷺ - وتسليته عما لحقه من أذى ، وذلك لأن السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - مكية ، وأنها - على الراجح - قد نزلت في فترة اشتد فيها إعراض المشركين عن دعوة الحق وتكذيبهم لها ، وتطاولهم على صاحبها - ﷺ - ومطالبتهم له بالخوارق التي لا يؤيدها عقل سليم .

فنزلت السورة الكريمة لتثبيت الرسول - ﷺ - وأتباعه ، ولتمزق أباطيل المشركين عن طريق حشود من الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد استهزئُ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ففهم المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ، ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً

بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴿ هذه بعض الموضوعات التى نرى السورة الكريمة قد اهتمت بتفصيل الحديث عنها .

وهناك موضوعات أخرى يراها كل من تأمل آياتها بفكر سليم ، وعقل قويم ، وروح صافية ...

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا فهم كتابه ، والعمل بما فيه من آداب وأحكام ، وهدايات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ
 عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
 يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
 رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ
 وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ
 النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ
 قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَّرَعٌ وَغَيْلٌ صِنْوَانٌ
 وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ
 فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لقد افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة ، وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء في هذه الحروف في سور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون من كلامكم ، ومنظوماً من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها كلماتكم .

فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا سورة واحدة من مثله ..

ومع كل هذا التساهل معهم في التحدى ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

و ﴿ تلك ﴾ اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويدخل فيها آيات السورة التي معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

وقوله ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين .

أى : تلك الآيات التي نقرؤها عليك - يا محمد - في هذه السورة هي آيات الكتاب الكريم ، وما أنزله الله - تعالى - عليك في هذا الكتاب ، هو الحق الخالص الذى لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ من ربك ﴾ مزيد من التلطف فى الخطاب معه - ﷺ - فكأنه - سبحانه - يقول له : إن ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذى تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة الكمال .

واسم الموصول ﴿ الذى ﴾ مبتدأ ، والجمله بعده صلة ، والحق هو الخبر ...

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك لبيان موقف أكثر الناس من هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به لانطاس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم ...

وفي هذا الاستدراك ، مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس ، وهم أولئك الذن فتحوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم ، فأمنوا به ، واعتصموا بحبله ، ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وعلى رأس هذه القلة التي آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق وغيره من السابقين إلى الإسلام .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة المتنوعة ه عن طريق المشاهدة - على كمال قدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له فقال - تعالى - ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ .
والعمد : جمع عماد ، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت .
وجملة ﴿ ترونها ﴾ في محل نصب حال من السموات .

أى : الله - سبحانه - هو الذي رفع هذه السموات الهائلة في صنعها وفي ضخامتها ، بغير مستند يسندها ، وبغير أعمدة تعتمد عليها ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم بجلاء ووضوح .
والمراد بقوله ﴿ رفع ﴾ أى خلقها مرتفعة منذ البداية ، وليس المراد أنه - سبحانه - رفعها بعد أن كانت منخفضة .

ولا شك أن خلق السموات على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقاً قادراً حكيمياً ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو دليل آخر على قدرة الله - تعالى - عن طريق الغائب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك بعد أن أقام الأدلة على ذلك عن طريق الحاضر المشاهد .

الاستواء فى اللغة يطلق على معان منها الاستقرار كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ أى : استقرت ، وبمعنى الاستيلاء والقهر .
وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم - كما يقول الراغب - .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية ، كما ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات من القرآن الكريم .

والمعنى : ثم استوى على العرش استواء يليق بذاته - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : « الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ . والتسخير : التذليل والخضوع .

أى : أن من مظاهر فضله أنه - سبحانه - سخر ذلك وأخضع لقدرته الشمس والقمر ، بأن جعلها طائعين لما أراده منها من السير في منازل معينة ، ولأجل معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه . بل يقفان عند نهاية المدة التي حددها - سبحانه - لوقوفها وأقولها . قال - تعالى - ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يدبر الأمر ، يفضل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ . وتدبير الأمر : تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها . والآيات : جمع آية . والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية ، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - يقضى ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه وأنه - سبحانه - ينزل آياته القرآنية واضحة مفصلة ، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته بطرق متعددة ، وبوجوه متنوعة .

وقد فعل - سبحانه - ما فعل - من رفعه السماء بلا عمد ، ومن تسخيره للشمس والقمر ، ومن تدبيره لأمر خلقه ، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيها خلق ، توقنون بلقائه ، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة ، لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم ، لكي يحاسبكم على أعمالكم .

وقال - سبحانه - ﴿ يدبر ﴾ و ﴿ يفضل ﴾ بصيغة المضارع . وقال قبل ذلك ﴿ رفع السموات ﴾ و ﴿ سخر الشمس والقمر ﴾ بصيغة الماضى . لأن التدبير للأمور ، والتفصيل للآيات ، يتجددان بتجدد تعلق قدرته - سبحانه - بالمقدورات .

وأما رفع السماوات ، وتسخير الشمس والقمر ، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة . وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض مظاهر قدرته في عالم السماوات ، أتبعه بذكر بعض هذه المظاهر في عالم الأرض فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ والمد : البسط والسعة . ومنه ظل مديد أى متسع .

والرواسى : الجبال مأخوذ من الرسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة ، يقال : رسا الشيء يرسو رسوا ورسواً ، إذا ثبت واستقر ، وأرسيت الوتد في الأرض إذا أثبتته فيها .

ولفظ رواسى : صفة لموصوف محذوف . وهو من الصفات التي تغنى عن ذكر موصوفها . والأنهار : جمع نهر ، وهو مجرى الماء الفائض ، ويطلق على الماء السائل على الأرض . والمراد بالثمرات : ما يشملها هي وأشجارها ، وإنما ذكرت الثمرات وحدها ، لأنها هي موضع المنة والعبرة .

والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى ، وقيل المراد بهما الصنفان في اللون أو في الطعم أو في القدر وما أشبه ذلك .

والمعنى : وهو - سبحانه - الذى بسط الأرض طولاً وعرضاً إلى المدى الذى لا يدركه البصر ، ليتيسر الاستقرار عليها .

ولا تتأني بين مدها وبسطها . وبين كونها كروية ، لأن مدها وبسطها على حسب رؤية العين ، وكرويتها حسب الحقيقة .

وجعل في هذه الأرض جبلاً ثوابت راسخات ، لتمسكها من الاضطراب ، وجعل فيها - أيضاً - أنهاراً ، لينتفع الناس والحيوان وغيرها بمياه هذه الأنهار . وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكراً وأنثى .

قال صاحب الكشاف : « أى خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت .

وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة »^(١) .

وقال صاحب الظلال : « وهذه الجملة تتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثنهم إلا قريباً ، وهى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظهرها أنه ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود ... »^(٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٤٩ . طبعة دار المعرفة - بيروت .

(٢) تفسير في ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٠٤٦ . طبعة دار الشروق .

وقوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

ولفظ ﴿ يغشى ﴾ من التغطية بمعنى التغطية والستر .

والمعنى : أن من مظاهر قدرته - سبحانه - أنه يجعل الليل غاشياً للنهار مغطياً له فيذهب بنوره وضيائه . فيصير الكون مظلماً بعد أن كان مضيئاً . ويجعل النهار غاشياً لليل ، فيصير الكون مضيئاً بعد أن كان مظلماً ، وفي ذلك من منافع الناس ما فيه ، إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، وبين السعي والسكون .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .
 أى : إن في ذلك الذى فعله الله - تعالى - من بسط الأرض طولاً وعرضاً ومن تشبيتها بالرواسى ، ومن شقها بالأنهار ... لآيات باهرة ، ودلائل ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، لقوم يحسنون التفكير ، ويظلمون التأمل في ملكوت السموات والأرض .
 ثم ساق - سبحانه - مظاهر أخرى لقدرته فقال - تعالى - : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ .

والقطع : جمع قطعة - بكسر القاف - وهى الجزء من الشيء ، تشبيهاً لها ، بما يقطع من الشيء .

ومتجاورات . أى : متلاقيات ومتقاربات .

وليس هذا الوصف مقصوداً لذاته ، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة في أوصافها مما يشهد بقدرة الله - تعالى - العظيمة .

ولذا قال ابن كثير ما ملخصه : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ أى : أراض يجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سيخة مالحة لا تنبت شيئاً ، وهذه تربتها حمراء ، وتلك تربتها سوداء ... وهذه محجرة وتلك سهلة ... والكل متجاورات ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ولا رب سواه^(١) .

وقال - سبحانه - ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ بإعادة اسم الأرض الظاهر ، ولم يقل وفيها قطع متجاورات كما قال : ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ في الآية السابقة ، وذلك ليكون كلاماً مستقلاً ، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة . وقوله ﴿ وجنات من أعناب

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٣ طبعة دار الشعب .

وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ... ﴿ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .
والجنات : جمع جنة ، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف ، الملتف الأغصان الذى يظل ما تحته ويستره .

والأعناب : جمع عنب وهو شجر الكرم .

والمراد بالزرع : أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها وقوله ﴿ صنوان ﴾ صفة لنخيل ، وهو جمع صنو .

والصنو : الفرع الذى يجمعه مع غيره أصل واحد ، فإذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن يطلق عليها اسم صنو .

ويطلق على الاثنتين صنوان - بكسر النون - ويطلق على الجمع صنوان - بضم النون - .

والصنو : بمعنى المثل ومنه قيل لعم الرجل : صنو أبيه ، أى : مثله ، فأطلق على كل غصن صنو لمثله للآخر فى التفرع من أصل واحد « والأكل » اسم لما يؤكل من الثمار والحب .
والمعنى : أن من مظاهر قدرة الله - أيضا - ومن الأدلة على وحدانيته - سبحانه - أنه جعل فى الأرض بقاعا كثيرة متجاورة ومع ذلك فهى مختلفة فى أوصافها وفى طبيعتها .. وفيها أيضا بساتين كثيرة من أعناب ومن كل نوع من أنواع الحبوب .

وفىها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهى صنوان ، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد فهى غير صنوان .

والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ لا اختلاف فى ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار ومع وجود أسباب التشابه ، فإننا لعظيم قدرتنا وإحساننا ﴿ نفضل بعضها على بعض ﴾ آخر منها ﴿ فى الأكل ﴾ أى : فى اختلاف الطعوم .

قال الإمام الرازى : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ كلها بالرفع عطفا على قوله ﴿ وجنات ﴾ وقرأ الباقون بالجر عطفا على الأعناب ... »^(١) .

وخص - سبحانه - النخيل بوصفه بصنوان ، لأن العبرة به أقوى ، إذ المشاهدة له أكثر من غيره .

ووجه زيادة ﴿ غير صنوان ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال ، واقتصر - سبحانه - في التفاضل على الأكل ، لأنه أعظم المنافع .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ تذييل قصد به الحض على التعقل والتدبر .

أى : إن في ذلك الذى فصل الله - تعالى - أحواله من اختلاف أجناس الثمرات والزرور فى أشكالها وألوانها وطعومها وأوراقها ... مع أنها تسقى بماء واحد . وتنبت فى أرض متجاورة ، إن فى ذلك كله لدلائل باهرة ، على قدرة الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، لقوم يستعملون عقولهم فى التفكير السليم ، والتأمل النافع .

أما الذين يستعملون عقولهم فيما لا ينفع ، فإنهم يرون بالعبر والعظات وهم عنها معرضون .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ساق فى هذه الآيات أدلة متعددة ومتنوعة من العالم العلوى والسفلى ، وكلها تدل على عظيم قدرته ، وجليل حكمته .

وهذه الأدلة منها :

- ١ - خلقه السموات مرتفعة بغير عمد .
 - ٢ - تسخيره الشمس والقمر لمنافع الناس .
 - ٣ - خلقه الأرض بتلك الصورة الصالحة للاستقرار عليها .
 - ٤ - خلقه الجبال فيها لتثبيتها .
 - ٥ - خلقه الأنهار فيها لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .
 - ٦ - خلقه زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الثمار .
 - ٧ - معاقبته بين الليل والنهار .
 - ٨ - خلقه بقاعا فى الأرض متجاورة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص .
 - ٩ - خلقه أنواعا من الزروع المختلفة فى ثمارها وأشكالها .
 - ١٠ - خلقه النخيل صنواناً وغير صنوان ، وجميعها تسقى بماء واحد .
- ومع كل ذلك فضل - سبحانه - بعضها على بعض فى الأكل .

وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ، وبحسونها بحواسهم ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله في خلقه ، ساق - سبحانه - بعض أقوال المشركين الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها فقال - تعالى - :

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ
جَدِيدًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ
فِي آعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أي : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين . فأعجب منه تكذيبهم بالبعث - لأن من شاهد ما عدد - سبحانه - من الآيات الدالة على قدرته . أيقن بأن من قدر على إنشائها ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، والله - تعالى - لا يتعجب ، ولا يجوز عليه التعجب ، لأنه - أي التعجب - تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وذلك في حقه - تعالى - محال ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون «^(١) .

وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أي : وإن تعجب أيها العاقل لشيء بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله في هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجباً ممن ينكر بعد كل هذا قدرته - سبحانه - على إحياء الموتى .

قال الجمل : وقوله ﴿ فعجب قولهم ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر ، ولا بد من حذف صفة لتتم الفائدة ، أى : فعجب أى عجب قولهم . أو فعجب غريب قولهم . والثانى أنه مبتدأ ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر ، ولا يضر حينئذ كون خبره معرفة^(١) .

والتنكير فى قوله ﴿ فعجب ﴾ للتهويل والتعظيم .

وجملة ﴿ أنذا كنا تراباً أنذا لفى خلق جديد ﴾ فى محل نصب مقول القول .

أى : وإن تعجب من شىء - أيها الرسول الكريم - فاعجب من قول أولئك المشركين : أنذا صرنا تراباً وعظاماً نخرة بعد موتنا أننا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد . والاستفهام للإنكار ، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم ، كما حكى القرآن عنهم قولهم فى آية أخرى : ﴿ أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾^(٢) .

وكرر همزة الاستفهام فى ﴿ أنذا ، وأننا .. ﴾ لتأكيد هذا الإنكار .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل فقال - تعالى - ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ... ﴾ .

أى : أولئك المنكرون لقدرة الله - تعالى - على البعث ، هم الذين كفروا بربهم ﴿ وأولئك الأغلال فى أعناقهم ﴾ والأغلال : جمع غل . وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق ، وهو أشد أنواع القيود .

أى : وأولئك هم الذين توضع الأغلال والقيود فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة ، عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إعادتهم إلى الحياة ، وبسبب جحودهم لنعم خالقهم ورازقهم .

قال - تعالى - : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾^(٣) .

وقيل إن الجملة الكريمة تمثل لخالهم فى الدنيا ، حيث شبه - سبحانه - امتناعهم عن

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٤٩١ طبعة عيسى الحلبي .

(٢) سورة ق الآية ٣ .

(٣) سورة غافر الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

الإيمان ، وعدم التفاتهم إلى الحق ، بحال قوم في أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتا أو تحركاً .

والأول أولى لأن حمل الكلام على الحقيقة واجب ، ما دام لا يوجد مانع يمنع منه ، وهنا لا مانع ، بل صريح القرآن يشهد له .

وقوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أى : وأولئك الموصوفون بما ذكر ، هم أصحاب النار التي لا ينفكون عنها . ولا يخرجون منها .

وكرر - سبحانه - اسم الإشارة ، للتنبيه على أنهم أحرىء بما سيرد بعده من عقوبات . وجاء به للبعيد ، للإشارة إلى بعد منزلتهم في الجحود والضلال .

ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من طغيانهم واستهزائهم برسولهم - ﷺ - فقال : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ، وقد خلت من قبلهم المثلاث ... ﴾ .

والمراد بالسيئة : الحالة السيئة كالعقوبات والمصائب التي تسوء من تنزل به .
والمراد بالحسنة : الحالة الحسنة كالعافية والسلامة .

والمثلاث : جمع مثلة - بفتح الميم وضم التاء كسمة ، وهي العقوبة الشديدة الفاضحة التي تنزل بالإنسان فتجعله مثالا لغيره في الزجر والردع .
والاستعجال : طلب حصول الشيء قبل حلول وقته .

أى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان ، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول - ﷺ - بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم ، سخروا منه ، وتهكموا به وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿^(١) .
وقوله - تعالى - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾^(٢) .

والجملة الكريمة تحكى لوناً عجيباً من ألوان توغلبهم في الجحود والضلال ، حيث طلبوا من الرسول - ﷺ - تعجيل العقوبة التي توعدهم بها ، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلمة والأمان والخير والعافية .

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

وجملة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلاث ﴾ في موضع الحال ، لزيادة التعجب من جهلهم وطغيانهم ، لأن آثار الأقسام المهلكين بسبب كفرهم ما زالت ماثلة أمام أبصارهم ، وهم يرون عليها في أسفارهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يعتبروا بها .
وقوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ بيان لرحمة الله - تعالى - بعباده ، ولشدة عقابه للمصرين على الكفر منهم أى :
وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم ، حيث أظاعوها في ارتكاب الذنوب والمعاصي .

ومن مظاهر هذه المغفرة أنه - سبحانه - لم يعاجلهم بالعقوبة . بل صبر عليهم ، وأملهم ، لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويقلمون عن ذنوبهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ... ﴾^(١) .

وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لشديد العقاب للمصرين على كفرهم وضلالهم ومعاصيهم .

وقدم - سبحانه - مغفرته على عقوبته ، في مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ، ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذي يريده - سبحانه - لهم ، وبين الشر الذي يريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم ...

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ .

أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف . كما قال - تعالى - ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ .
وقال - تعالى - ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ... ﴾ قال رسول الله - ﷺ - « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدًا العيش . ولولا

وعيده وعقابه لا تتكل كل أحد»^(١) .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم ، وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم ، الذى هو أعظم الآيات والمعجزات فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ... ﴾ .

و ﴿ لولا ﴾ هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .

ومرادهم بالآية : معجزة كونية كالتى جاء بها موسى من إلقائه العصى فإذا هى حية تسعى ، أو كالتى جاء بها عيسى من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ، أو كما يقترحون هم من جعل جبل الصفا ذهباً ...

لأن القرآن - فى زعمهم - ليس كافياً لكونه معجزة دالة على صدقه - ﷺ - .
أى : ويقول هؤلاء الكافرون الذين عموا وصموا عن الحق واستعجلوا العذاب . هلا أنزل على محمد - ﷺ - آية أخرى غير القرآن الكريم تدل على صدقه .

ولقد حكى القرآن مطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ... ﴾^(٢) .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بيان وظيفة النبى - ﷺ - فقال ﴿ إنما أنت منذر ... ﴾ .
أى : أن وظيفتك - أيها الرسول الكريم - هى إنذار هؤلاء الجاحدين بسوء المصير ، إذا ما لجوا فى طغيانهم ، وأصروا على كفرهم وعنادهم وليس من وظيفتك الإتيان بالحوارق التى طلبوها منك .

وإنما قصر - سبحانه - هنا وظيفة النبى - ﷺ - على الإنذار ، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة .

وقوله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : ولكل قوم نبى يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسيلة التى يراها مناسبة لأحوالهم ، وأنا - أيها الرسول الكريم - قد جئتكم بهذا القرآن الهادى للتى هى أقوم . والذى هو خير وسيلة لإرشاد الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .
قال الشيخ القاسمى : « أو المعنى : ولكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم . هو

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ وما بعدها .

الله - تعالى - فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم كما قال - تعالى - ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ... ﴾ .

أو المعنى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : قائد يهديهم إلى الرشد ، وهو الكتاب المنزل عليهم ، الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم .

يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى ، وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده ... ﴾^(١) .

ثم صور - سبحانه - سعة علمه تصويراً عميقاً ، تقشعر منه الجلود ، وترتجف له المشاعر ، وساق سنة من سنته التى لا تتغير ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مَن

وَالِ ﴿١١﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - .

﴿ وتغيض ﴾ من الغيظ بمعنى النقص . يقال : غاض الماء إذا نقص .

و ﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف . أى : الله وحده هو الذى يعلم ما تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة أو مضغة ومن ذكر أو أنثى ... وهو وحده - سبحانه - الذى يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه ...

قال ابن كثير : « قوله : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ ، قال البخارى : حدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن ، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : أن رسول الله - ﷺ - قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﴾ .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعنى السقط ﴿ وما تزداد ﴾ . يقول : ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص . فذلك الغيظ والزيادة التى ذكر الله - تعالى - وكل ذلك بعلمه - سبحانه -^(١) .

وقوله : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أى : وكل شيء عنده - سبحانه - بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كما قال - تعالى - ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾^(٢) . وكما قال - تعالى - ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾^(٣) . فهو - سبحانه - يعلم كمية كل شيء وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

وقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ تأكيد لعموم علمه - سبحانه - ودقته . والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو : مالا تدركه الحواس ولا يعلم بيداهة العقل .

والشهادة : مصدر شهد يشهد ، وهى هنا بمعنى الأشياء المشهودة .

والمتعالي : المستعلى على كل شيء فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - هو وحده الذى يعلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس كما يعلم

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٧ طبعة دار الشعب .

(٢) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣) سورة الحجر الآية ٢١ .

أحوال المشاهدة منها ، وهو العظيم الشأن ، المستعلى على كل شيء .
 وقوله - سبحانه - ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل
 وسارب بالنهار ﴾ تأكيد آخر لشمول - علمه - - سبحانه - لأحوال عبادته .
 وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به هنا اسم الفاعل . أى : مستو .
 قال الجمل : « وفيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم ، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ ، وإنما
 لم يشن الخبر لأنه في الأصل مصدر ، وهو هنا بمعنى مستو .
 والثاني أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله ﴿ منكم ﴾ ^(١) .
 ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أى : ظاهر بالنهار . يقال : سرب في الأرض يسرب سربا وسروبا .
 أى : ذهب في سربه - بسكون الراء وكسر السين وفتحها - أى طريقه .
 والمعنى : أنه - تعالى - مستو في علمه من أسر منكم القول ، ومن جهر به بأن أعلنه
 لغيره .
 ومستو في علمه - أيضا - من هو مستتر في الظلمة الكائنة في الليل ، ومن هو ذاهب في
 سربه وطريقه بالنهار بحيث يبصره غيره .
 وذكر - سبحانه - الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء ، وذكر السروب مع النهار لكونه
 أشد ظهورا .
 ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رعايته لعباده فقال - تعالى - ﴿ له معقبات من بين
 يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. ﴾ .
 والضمير في ﴿ له ﴾ يعود إلى ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أسر القول ومن جهر به ، ومن
 هو مستخف بالليل ﴾ باعتبار تأويله بالمذكور .
 و « معقبات » صفة لموصوف محذوف أى : ملائكة معقبات .
 قال الشوكاني : « والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه .
 وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتي بعضهم
 بعقب بعض ، وإنما قال « معقبات » مع كون الملائكة ذكورا ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها
 معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات .
 قال الجوهرى : والتعقب العود بعد البدء قال الله - تعالى - ﴿ ولى مدبرا ولم
 يعقب ﴾ ^(٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٩٤ . (٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٦٩ .

يقال : عقب الفرس في عدوه ، أى : جرى بعد جريه . وعقبه تعقبيا . أى : جاء عقبه .
و « من » في قوله ﴿ من أمر الله ﴾ بمعنى باء السببية .
والمعنى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ ، إنما هو بسبب أمر الله - تعالى - لهم بذلك .

قال ابن كثير : وفي الحديث الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم - سبحانه - وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ . فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .
وفي الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكروهم » . أى : فاستحيوا منهم وأكروهم بالتستر وغيره .

وقال عكرمة عن ابن عباس « يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه » ^(١) .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ .
أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية : ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد .

وإذا أراد - سبحانه - بقوم سوءا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إثارتهم الغي على الرشد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .

وما لهم من دونه - سبحانه - من وال أى من ناصر ينصرهم منه - سبحانه - ويرفع عنهم عقابه ، ويلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله في شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصى ووجود النعمة ، فإنه - سبحانه - لا يعصم الناس من عذابه عاصم . ولا يدفعه دافع .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن أبي حاتم : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل أن

قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون .

ثم قال : إن مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وعن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبي طالب على منبر الكوفة فقال : كنت إذا سكت عن رسول الله - ﷺ - ابتدأتني ، وإذا سألته عن الخبر أنبأني ، وإنه حدثني عن ربه - عز وجل - قال : « قال الرب : وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي » (١) .

ثم لفت - سبحانه - أنظار عباده إلى أنواع متعددة من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته ، وبين أن هذه الظواهر قد تكون نعمة ، وقد تكون نقما ، وأنها وغيرها تسبح بحمد الله ، وتخضع لسلطانه فقال - تعالى - :

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِجُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
كَبْسٌ بِقَتْلِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

والبرق : ما يراه الرائي من نور لامع يظهر من خلال السحاب ، وخوفا وطمعا : حالان من الكاف في يريكم ، أو هما في محل المفعول لأجله .

والمعنى : هو الله - تعالى - وحده الذى يريكم بقدرته البرق ، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق . أو سيل مدمر ، وبعضكم يطمع فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر النافع ، والغيث المدرار .

فمن مظاهر حكمة الله - تعالى - فى خلقه ، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا ، لأنه بالإذار والتبشير تعود النفوس إلى الحق ، وتنفى إلى الرشد .

وجملة « وينشئ السحاب الثقال » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - وإنشاء السحاب : تكوينه من العدم .

والسحاب : الغيم المنسحب فى الهواء ، وهو اسم جنس واحده سحابة ، فلذلك وصف بالجمع وهو « الثقال » جمع ثقيلة .

أى : وهو - سبحانه - الذى ينشئ السحاب المثقل بالماء ، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته .

قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته . والرعد : اسم للصوت الهائل الذى يسمع إثر تفجير شحنة كهربية فى طبقات الجو .

وعطف - سبحانه - الرعد على البرق والسحاب ، لأنه مقارن لهما فى كثير من الأحوال . والتسبيح : مشتق من السبح وهو المرور السريع فى الماء أو فى الهواء وسمى الذاكِر لله - تعالى - مسبحا ، لأنه مسرع فى تنزيهه سبحانه عن كل نقص .

وتسبيح الرعد - وهو هذا الصوت الهائل - بحمد الله ، يجب أن تؤمن به ، ونفوض كيفيته إلى الله - تعالى - لأنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - وقد بين لنا - سبحانه - فى كتابه أن كل شىء يسبح بحمده فقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض

ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴿١١﴾ .

وقد فصل القول في معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الآلوسی فقال - رحمه الله - ما ملخصه :

وقوله : « ويسبح الرعد » قيل هو اسم للصوت المعلوم ، والكلام على حذف مضاف أى : ويسبح سامعو الرعد بحمده - سبحانه - رجاء للمطر .

ثم قال : والذي اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقيا بناء على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وآخرون عن ابن عباس أن اليهود سألوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال : « ملك من ملائكة الله - تعالى - موكل بالسحاب ، بيديه مخرق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله - تعالى - قالوا . فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال صوته - قالوا : صدقت » .

ثم قال : واستشكل بأنه لو كان علما للملك لما ساغ تنكيهه ، وقد نكر في سورة البقرة في قوله - تعالى - ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ .

وأجيب بأن له إطلاقين : ثانيهما إطلاقه على نفس الصوت ، والتنكير على هذا الإطلاق ... » (١١) .

والذى نراه أن تسبيح الرعد بحمد الله يجب الإيمان به ، سواء أكان الرعد اسما لذلك الصوت المخصوص ؛ أم اسما للملك من الملائكة ، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى الله .

قال الإمام الشوكانى : « ويسبح الرعد بحمده » أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله . أى : متلبسا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا ما نع من أن ينطقه الله بذلك .

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الأفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له . وعناية به » (١٢) .

وقال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان .. عن سالم عن أبيه قال : كان

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٢) راجع تفسير الآلوسی ج ١٣ ص ١٠٦ - طبعة منير الدمشقى .

(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٧٢ .

رسول الله - ﷺ - إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق .. عن أبي هريرة : أن رسول الله - ﷺ - كان إذا سمع صوت الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » (١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ نوع رابع من الأدلة الدالة على وحدانية الله وقدرته . أى ويسبح الرعد بحمد الله ، ويسبح الملائكة - أيضا - بحمد الله ، خوفا منه - تعالى - وإجلالا لمقامه وذاته .

و ﴿ من ﴾ في قوله - تعالى - ﴿ من خيفته ﴾ للتعليل ، أى : يسبحون لأجل الخوف منه . وقوله ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ نوع خامس من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرته - سبحانه - .

والصواعق جمع صاعقة ، وهى - كما يقول ابن جرير - كل أمر هائل رآه الرائي أو أصابه ، حتى يصير من هولاه وعظيما شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ... » (٢) . والمراد بها هنا : النار النازلة من السماء .

أى ويرسل - سبحانه - الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء إصابته من خلقه .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى رجل من طواغيت العرب ، بعث النبى - ﷺ - نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ما هو ، أمن فضة أم من حديد ؟ .

فبينما نفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرددت وأبرقت ورمت بصاعقة فأهلكت الكافر وهم جلوس .

فرجعوا إلى النبى - ﷺ - فاستقبلهم بعض الصحابة فقالوا لهم : احترق صاحبكم ؟ فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى - ﷺ - ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ (٣) .

وضمير الجماعة فى قوله ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ يعود إلى أولئك

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٦٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٢٦ .

الكافرين الذين سبق أن ساق القرآن بعض أقوالهم الباطلة ، والتي منها قولهم : ﴿ أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد ﴾ .

والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول .

والمراد بمجادلتهم في الله : تكذيبهم للنبي - ﷺ - فيما أمرهم به من وجوب إخلاص عبادتهم لله - تعالى - وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

والمحال : الكيد والمكر ، والتدبير والقوة ، والعقاب .. يقال : محل فلان بفلان - بتثليث الحاء - محلا ومحالا ، إذا كاده وعرضه للهلاك .

قال القرطبي : قال ابن الأعرابي : المحال المكر وهو من الله - تعالى - التدبير بالحق أو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

وقال الأزهري : المحال : أى القوة والشدة .

وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه «^(١)» .

أى : أن هؤلاء الكافرين يجادلونك - أيها الرسول في ذات الله وفي صفاته ، وفي وحدانيته ، وفي شأن البعث ، وينكرون ما جئتهم به من بينات والحال أن الله - تعالى - شديد الماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه .

قال - تعالى - : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿^(٢)» .

ثم بين - سبحانه - أن دعوته هى الدعوة الحق ، وما عداها فهو باطل ضائع فقال : ﴿ له دعوة الحق ﴾ أى : له وحده - سبحانه - الدعوة الحق المطابقة للواقع ، لأنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء .

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، وفي هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق ، واختصاصها به ، وأنها بمعزل عن الباطل .

ومعنى كونها له : أنه - سبحانه - شرعها وأمر بها .

قال الشوكاني : قوله : « له دعوة الحق » إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة . أى : الدعوة الملازمة للحق ، المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٩٩ .

(٢) سورة النمل الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

وقيل : الحق هو الله - تعالى - والمعنى : أنه لله - تعالى - دعوة المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب .

وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة .

وقيل : دعوة الحق ، دعاؤه - سبحانه - عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه سواه ، كما قال - تعالى - ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ .

وقيل : الدعوة الحق ، أى العبادة الحق فإن عبادة الله هى الحق والصدق «^(١)» . ثم بين - سبحانه - حال - من يعبد غيره فقال : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ .

والمراد بالموصول « والذين » الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله . والضمير فى يدعون ، للمشركين ، ورباط الصلة ضمير نصب محذوف أى : يدعونهم . والمعنى : لله - تعالى - العبادة الحق ، والتضرع الحق النافع ، أما الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله . فإنها لا تجيبهم إلى شيء يطلبونه منها ، إلا كإجابة الماء لشخص بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا منه أن يبلغ فمه وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الأحمق ، لأن الماء لا يحس ولا يسمع نداء من يناديه .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا ، حيث شبه - سبحانه - حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم فى حاجة إليه ، بحال إنسان عطشان ولكنه غبى أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه . فلا يصل إليه شيء من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه .

ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخبية وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله - تعالى - .

وأجرى - سبحانه - على الأصنام ضمير العقلاء فى قوله ﴿ لا يستجيبون ﴾ مجازة للاستعمال الشائع عند المشركين ، لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء .

ونكر شيئا فى قوله ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ للتحقير . والمراد أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها .

والاستثناء في قوله ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ..﴾ من أعم الأحوال .

أى : لا تستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئا ، إلا استجابة كاستجابة الماء للمهوف بسط كفيه إليه يطلب منه أن يدخل فمه ، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب طلبه ولو مكث على ذلك طوال حياته .

والضمير « هو » في قوله « وما هو ببالغه » للماء ، والهاء في « ببالغه » للفم : أى : وما الماء ببالغ فم هذا الباسط لكفيه .

وقيل الضمير « هو » للباسط ، والهاء للماء ، أى : وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه .

قال القرطبي : « وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الذى يدعو إلهًا من دون الله كالظمان الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمان الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه وفساد توهمه . قاله ابن عباس .

الثالث : انه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يجد فى كفه شيئا منه ^(١) .

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء ، خاتته فروج الأصابع ^(٢)

وقوله - سبحانه - ﴿وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾ أى : وما عبادة الكافرين للأصنام ، والتجاوزهم إليها فى طلب الحاجات ، إلا فى ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكون كله خاضع له - عز وجل - فقال : ﴿والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ .

والمراد بالسجود له - سبحانه - : الاتقياد والخضوع لعظمته .

وظلالهم : جمع ظل وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

والغدو : جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٠١ .

(٢) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٧٣ .

والآصال : جمع أصيل وهو ما بين العصر وغروب الشمس .
 والمعنى : والله - تعالى - وحده يخضع وينقاد جميع من في السموات والأرض من الملائكة
 والإنس والجن وغيرهم .

وقوله « طوعا وكرها » منصوبان على الحال من « من » ، أى : أن جميعهم يسجدون لله ،
 وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد ، وحال كونهم كارهين
 وغير راضين به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا في الإيجاد ولا في الإعدام ولا في
 الصحة ولا في المرض ، ولا في الغنى ولا في الفقر .. فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا .
 ويستوى في هذا الخضوع المؤمن والكافر ، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره
 وبياطنه لله - تعالى - .

أما الكافر فهو خاضع لله - تعالى - بذاته ، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره ،
 والضمير في قوله - سبحانه - ﴿ وظلالهم ﴾ يعود على ﴿ من في السموات والأرض ﴾ .

أى : الله - تعالى - يخضع من في السموات والأرض طوعا وكرها ويخضع له - أيضا -
 بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم ، لأن هذه الظلال لا زمة لأصحابها والكل تحت قهره
 ومشيئته في الامتداد والتقلص والحركة والسكون .

قال - تعالى - ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمال
 سجدا لله وهم داخرون ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً
 وإليه يرجعون ﴾ ^(٢) .

ثم وجه - سبحانه - عن طريق نبيه - ﷺ - أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين
 المجادلين في ذات الله - تعالى - وفي صفاته ، وساق لهم أمثلة للحق وللباطل ، وبين لهم حسن
 عاقبة المستجيبين لدعوة الحق ، وسوء عاقبة المعرضين عنها فقال - تعالى - :

(١) سورة النحل الآية ٤٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
 نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا الْخَلْقَ
 عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
 وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ شَعِيرٍ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
 يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
 لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
 أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

قال الفخر الرازي : « اعلم أنه - تعالى - لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد
 له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾ .
 ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسئول ويعترف به ولا ينكره ، أمر - سبحانه -
 نبيه - ﷺ - أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه البتة .. » (١) .
 أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، من رب هذه الأجرام العظيمة
 العلوية والسفلية ؟

فإذا ما أبوا الرد عليك عنادا وصلفا ، فجابههم بالحقيقة التي لا يستطيعون إنكارها ، وهي أن الله وحده هو رب هذه الأجرام ، لأنه هو خالقها وموجدها على غير مثال سابق .
 وقوله - سبحانه - ﴿ قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ﴾ أمر ثالث منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - لإفحامهم وتبكيتهم .
 فالهمزة للاستفهام التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة .
 والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، فتركتم عبادته - سبحانه - واتخذتم من دونه « أولياء » أي نصراء عاجزين ، لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن أن يملكو لغيرهم - نفعا يجلبونه لها ، ولا ضرا يدفعون عنها .
 وجملة « لا يملكون » صفة لأولياء ، والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة ، فإنهم إن أحسنوا التفكير في هؤلاء الأولياء ، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت إليهم ، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئا .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الرابعة أن يبرهن لهم على بطلان معتقداتهم عن طريق ما هو مشاهد بالحواس فقال : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ﴾ .

أي : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم : كما أنه لا يستوى في عرف كل عاقل الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان ، فإن الكفر انطاس في البصيرة ، وظلمات في القلب ، أما الإيمان فهو نور في القلب وإشراق في النفس .
 فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، كما أن المراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان .
 وعبر القرآن الكريم في جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفي جانب النور بصيغة الأفراد ، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور . وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته .
 أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة العقول التي كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال ، كما هو الحال في شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق الحق .

ثم انتقل - سبحانه - إلى التهكم بهم عن طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، وإهمالا لشأنهم فقال - تعالى - : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم .. ﴾ .

وأم هنا بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار .

أى : إنهم ما اتخذوا لله - تعالى - شركاء يخلقون مثل خلق الله - تعالى - حتى نقول إن ما خلقوه تشابه مع خلقه - تعالى - فلتتمس لهم شيئا من العذر ، ولكنهم اتخذوا معه - سبحانه - آلهة أخرى « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ... » .

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم . حيث عبدوا من دون الله مخلوقا مثلهم ، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .
وقوله : « كخلقه » فى معنى المفعول المطلق . أى : خلقوا خلقا شبيها بما خلقه الله - تعالى - . وجملة « فتشابهه » معطوفة على جملة « خلقوا » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - للمرة الخامسة بأن يقذفهم بالحق الذى يدفع باطلهم فقال - تعالى - ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ .
أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد الفرد الصمد ، القهار لكل ما سواه ، والغالب لكل من غالبه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلين للحق هما الماء الصافى والجوهر النقى اللذان ينتفع بهما ، ومثلين للباطل هما زبد الماء وزبد الجوهر اللذان لا نفع فيها فقال - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ .

والأودية : جمع واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذى يسيل فيه الماء بكثرة .
والسيل : الماء الجارى فى تلك الأودية .

والزبد : هو الغشاء الذى يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ، ورابيا : من الربو بمعنى العلو والارتفاع .

والمعنى : أنزل الله - تعالى - من السماء ماء كثيرا ، ومطرا مدرارا ، فسالت أودية بقدرها ، أى : فسالت المياه فى الأودية بسبب هذا الإنزال ، بمقدارها الذى حدده الله - تعالى - واقتضته حكمته فى نفع الناس .

أو بمقدارها قلة وكثرة ، بحسب صغر الأودية وكبرها ، واتساعها وضيقها « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى فحمل الماء السائل فى الأودية بكثرة وقوة ، غشاء عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا

عليه ، لا نفع فيه ولا فائدة منه .

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول ، حيث شبهه - سبحانه - الحق وأهله في الثبات والنفع بالماء الصافي الذي ينزل من السماء فتمتلىء به الأودية ويبقى محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد في علم الله - تعالى - .

وشبه الباطل وشيعته في الاضمحلال وعدم النفع ، بزيد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح الماء ، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة والفائدة . ثم ابتدأ - سبحانه - في ضرب المثل الثاني فقال : ﴿ وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ .

و « من » في قوله « وما يوقدون » لا بتداء الغاية ، وما موصولة ، ويوقدون من الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه في النار ليزيد اشتعالها .

والجملة في محل رفع خبر مقدم ، وقوله « زيد » مبتدأ مؤخر .

والحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرها .

والمتاع : ما يتمتع به في حياته من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وأشباهها .

والضمير في قوله « مثله » يعود إلى الزبد في قوله - تعالى - ﴿ زبدارايبا ﴾ .

وقد قرأ حمزة والكسائي وحفص « يوقدون » وقرأ الباقر توفدون بالتاء .

والضمير للناس ، وأضر مع عدم سبق ذكره لظهوره .

والمعنى : وشبهه بالمثل السابق في خروج الزبد والخبث وطرحه بعيدا عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر ، لكي تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلى والأمتعة المتنوعة ، فإنكم في مثل هذه الحالة ، تبقون على النقى النافع منها ، وتطرحون الزبد والخبث الذي يلفظه الكبر ، والذي هو مثل زبد السيل في عدم النفع .

فقد شبهه - سبحانه - في هذا المثل الثاني الحق وأهله في البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وحزبه في الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذي يطرحه كبر الحداد ، وهمله الناس .

ثم بين - سبحانه - المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال : ﴿ كذلك يضرب الله الحق

والباطل ﴾ .

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعا بأن يبين بأنه

لا ثبات للباطل - مهما علا وانتفخ - مع وجود الحق ، كما أنه لا ثبات للزبد مع الماء الصافي ، ولا مع المعادن النقية .

والكلام على حذف مضاف والتقدير : يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل .
وسر الحذف : الإنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به ، حتى لكأن المثل المضروب هو عين الحق وعين الباطل .

ثم شرع - سبحانه - في تقسيم المثل فقال : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .

أى : فأما الزبد الذى لفظه السيل والحديد فيذهب « جفاء » مرميا به ، مطروحا بعيدا ، لأنه لا نفع فيه .

يقال : جفا الماء بالزبد ، إذا قذفه ورمى به ، وجفأت الرياح الغيم ، إذا مزقته وفرقته ، والجفاء بمعنى الغناء .

وأما ما ينفع الناس من الماء الصافي ، والمعدن النقى الخالى من الخبث « فيمكث في الأرض » أى فيبقى فيها لينتفع الناس به .

وبدأ - سبحانه - بالزبد فى البيان فقال ﴿ فأما الزبد فيذهب ﴾ مع أنه متأخر فى الكلام السابق لأن الزبد هو الظاهر المنظور أولا لأعين الناس ، أما الجوهر فهو مستتر خلفه لأنه هو الباقي النافع .

أو لأنه جرت العادة فى التقسيم أن يبدأ بالتأخر كما فى قوله - تعالى - ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ﴾^(١) .

وقوله ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ تفخيم لشأن هذا التمثيل الذى اشتملت عليه الآية الكريمة .

أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، فيحملهم هذا التفكير على الإيمان الحق ، وحسن التمييز بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، والحق والباطل .

قال الإمام الشوكانى : « هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - فى هذه الآية للحق وللباطل

يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله - تعالى - سيمحقه ويبيطله ويجعل العاقبة للحق وأهله .

كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ، فإنه وإن علا عليها فإن الكبير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث في الأرض ، وكذلك الصافي من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياسة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها . ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به ^(١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك عاقبة أهل الحق ، وعاقبة أهل الباطل فقال - تعالى - : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به .. ﴾ .

أى : للمؤمنين الصادقين ، الذين أطاعوا ربهم فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة .
فالحسنى يصح أن تكون صفة لموصوف محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ مؤخرأ ، وخبره « للذين استجابوا لربهم » .

« والذين لم يستجيبوا له » - سبحانه - ولم ينقادوا لأمره أو نهيه وهم الكفار « لو أن لهم ما فى الأرض جميعا » من أصناف الأموال ، وهم أيضا « مثله معه لافتدوا به » أى لهان عليهم - مع نفاسته وكثرته - أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة .
فالضمير فى قوله « ومثله معه » يعود إلى ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال وفى ذلك ما فيه من تهويل ما سيلقونه من عذاب أليم جزاء كفرهم وجحودهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك لهم سوء الحساب » أى : أولئك الذين لم يستجيبوا لربهم لهم الحساب السيئ الذى لا رحمة معه ، ولا تساهل فيه .

« ومأواهم جهنم » ، أى : ومرجعهم الذى يرجعون إليه جهنم . « وبئس المهاد » أى : وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .

والمخصوص بالذم محذوف أى : مهادهم أو جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأحكمها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبينت حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، ومدح أولى الألباب بما هم أهله من مدح ، وذم أضدادهم بما يستحقون من ذم ، فقال - تعالى - :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ
أُولَئِذَا الْأَلْبَابُ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عِاقِبَةُ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ الْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾

قال الإمام الرازى : « قوله - تعالى - ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ... ﴾ إشارة إلى المثل المتقدم ذكره - في قوله - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ ... وهو أن العالم بالشيء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشى من غير قائد ، فرجما يقع في المهالك .. أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك »^(١) .

والمراد بالأعمى هنا : الكافر الذى انطمست بصيرته ، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل .

والاستفهام للانكار والاستبعاد .

المعنى : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك - أيها الرسول الكريم - من وحى هو الحق الذى يهدى للتي هي أقوم ، كمن هو أعمى القلب : مطموس البصيرة ؟؟
فالأية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب ، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه ، بمن جهلوه وأعرضوا عنه ، وصموا آذانهم عن سماعه .

وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ مدح لأصحاب العقول السليمة ، الذين ذكروا بالحق فتذكروه ، وآمنوا به ، وتعليل لإعراض الكافرين عنه ، ببيان أن سبب إعراضهم ، أنهم ليسوا أهلا للتذكر ، لأن التذكر إنما هو من شأن أولى الألباب .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شيء .

أى : إنما يتذكر وينتفع بالتذكير ، أصحاب العقول السليمة وهم المؤمنون الصادقون .
ثم مدح - سبحانه - أصحاب هذه العقول السليمة ، بجملته من الخصال الكريمة فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ .

وعهد الله : فرائضه وأوامره ونواهيه . والوفاء بها : يتأق باتباع ما أمر به - سبحانه - وباجتناب ما نهى عنه .

وينقضون : من النقض ، بمعنى الفسخ والحل لما كان مركبا أو موصولا .

والميثاق : العهد الموثق باليمين ، للتقوية والتأكيد .

أى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين من صفاتهم أنهم يوفون بعهد الله - تعالى - ، بأن يؤدوا كل ما كلفهم بأدائه ، ويحجبوا كل ما أمرهم باجتنابه ولا ينقضون شيئا من العهود

والمواثيق التي التزموا بها . وصدر - سبحانه - صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم النقض للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف - سبحانه - العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .
وجملة « ولا ينقضون الميثاق » تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله - تعالى - ومع غيره من عباده .

ثم بين - سبحانه - صفات أخرى لهم فقال : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ .

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضا - أنهم يصلون كل ما أمر الله - تعالى - بوصله كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وإعانة المحتاج ، والإحسان إلى الجار .
وقوله « ويخشون ربهم » خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيهِ .

« ويخافون سوء الحساب » أى : ويخافون أهوال يوم القيامة ، وما فيه من حساب دقيق ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ، والخشية والخوف قيل : بمعنى .

وفرق الراغب بينها فقال : الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم .
وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ، لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أى : يابسة .

ثم قال الآلوسى : والحق أن مثل هذه الفروق أغلبى لا كلى .. « (١) .

ثم أضاف - سبحانه - إلى الصفات السابقة لأولى الألباب صفات أخرى حميدة فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أى : أن من صفاتهم أنهم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على المصائب وآلامها ، صبرا غايته رضا ربهم وخالقهم ، لارضا أحد سواء .

أى : أن صبرهم فى كل مجال يحمد فيه الصبر لم يكن من أجل الرياء أو المباهاة أو المجاملة أو غير ذلك ، وإنما كان صبرهم من أجل رضا الله - تعالى - وطلب ثوابه .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « والذين صبروا » فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف « ابتغاء وجه ربهم » لا ليقال ما أصبره وأحملة للنوازل ، وأوقره عند الزلازل . ولا لثلا يعاب بالجزع ، ولثلا يشمت به الأعداء ، كقوله :
وتجلى للشامتين أربهم أنى لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الملع ، ولا مرد فيه للفائت .

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسنا عند الله - تعالى - وإلا لم يستحق به ثوابا ؛ وكان فعلا كلا فعل ،^(١) .

« وأقاموا الصلاة » أى : أدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والأذكار ، بخشوع وإخلاص . « وأنفقوا » بسخاء وطيب نفس « مما رزقناهم » أى : مما أعطيناهم من عطائنا الواسع العميم . « سراً وعلانية » أى : ينفقون مما رزقناهم سرا . حيث يحسن السر ، كإعطاء من لم يتعود الأخذ من غيره ، وينفقون « علانية » حيث تحسن العلانية ، كأن ينفقوا بسخاء في مجال التنافس في الخير ، ليقتندى بهم غيرهم « ويدرون بالحسنة السيئة » ، والدرء : الدفع والطرء . يقال : درأه درءاً ، إذا دفعه .

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضاً - أنهم يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء ، كما في قوله - ﷺ - « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، أو بالعفو عنه ، متى كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدي إلى مفسدة .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : « وفي الآية إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ، فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لثلا ينتفش الشر ويتجراً ويستعلى .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملة الشخصية بين المتهاثلين فأما في دين الله فلا . إن المستعلى الغاشم لا يجدى معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدون في الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب »^(٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٥٧ - بتصرف قليل .

(٢) في ظلال القرآن ج ١٣ ص ٢٠٥٨ للأستاذ سيد قطب .

وجملة ﴿ أولئك لهم عقبي الدار ﴾ بيان الجزاء الحسن ، الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأخيار .

والعقبى : مصدر كالعاقبة ، وهى الشئ الذى يقع عقب شئ آخر .
والمراد بالدار : الدنيا . وعقباها الجنة . وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة . وعقباها الجنة للطنائين ، والنار للعاصين .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، لهم العاقبة المحسنة وهى الجنة . والجملة الكريمة خبر عن « الذين يوفون بعهد الله » وما عطف عليها .

وقوله - سبحانه - ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ تفصيل للمنزلة العالية التى أعدها - سبحانه - لهم .

أى : أولئك الذين قدموا ما قدموا فى دنياهم من العمل الصالح ، لهم جنات دائمة باقية ، يدخلونها هم ﴿ ومن صلح ﴾ أى : ومن كان صالحا لدخولها ﴿ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

أى : من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسيرتهم . وفى قوله - سبحانه - ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة ، إلا إذا كانت أفعالهم صالحة ، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾^(١) .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى : يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتنانا من الله وإحسانا ، كما قال - تعالى - ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شئ ، كل امرئ بما كسب رهين ﴾^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم .. ﴾ زيادة فى تكريمهم ، وحكاية لما تحيهم به الملائكة .

(١) سورة الشعراء آية ٨٩ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧٣ ، طبعة دار الشعب - القاهرة .

أى : والملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين .. من كل باب من أبواب منازلهم فى الجنة ، قائلين لهم : « سلام عليكم » أى : أمان دائم عليكم ﴿ بما صبرتم ﴾ أى : بسبب صبركم على كل ما يرضى الله - تعالى - .

﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ أى : فنعم العاقبة عاقبة دنياكم ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة المقام عليه ، أى : الجنة .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ يدخلون عليهم من كل باب ﴾ إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى كثرة أبواب بيوتهم ، تكرىما وتشريفا وتأنيسا لهم .
وجملة ﴿ سلام عليكم ﴾ مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة . وهى بشارة لهم بدوام السلامة .

وفى قوله ﴿ بما صبرتم ﴾ إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف ، وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر ، كان على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .

هذا ومن الاحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، ما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سائك وخيرتك من خلقك ، أقتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟

قال : إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور . وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتىهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾^(١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - صفات هؤلاء الأوفياء ، وما أعد لهم من ثواب جليل ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم ، القاطعين لما أمر الله بوصله . المفسدين فى الأرض فقال - تعالى - : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ .

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وقوله : ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ زيادة فى تشنيع النقض . أى : ينقضون عهد الله تعالى ولا يوفون به . من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم له .

وقوله : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أى : ويقطعون كل ما أوجب الله - تعالى - وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول - ﷺ - - بالاتباع والموالاتة ، ووصل المؤمنين بالمعونة ، والمحبة ، ووصل أولى الارحام بالمودة والتعاطف ، فالجملة الكريمة بيان لحال هؤلاء الأشقياء بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

وقوله : ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ بيان لصفة ثالثة من صفاتهم القبيحة .
أى : أنهم كانوا يفسدون في الأرض عن طريق حربهم لدعوة الحق ، واعتدائهم على المؤمنين ، وغير ذلك من الأمور التي كانوا يقترفونها مع أن الله - تعالى - قد حرّمها ونهى عنها .

وقوله - تعالى - : ﴿ أولئك لهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ إخبار عن العذاب الشديد الذى سيلقونه في آخرتهم . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - « اللعنة » والطرّد من رحمته .

﴿ وهم ﴾ فوق ذلك ، الدار السيئة وهى جهنم التى ليس فيها إلا ماسوء الصائر إليها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الغنى والفقر بيده ، وأن العطاء والمنع بأمره فقال - تعالى - : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. ﴾ . وبسط الرزق كناية عن سعته ووفرته وكثرته . ومعنى : « يقدر » يضيق ويقلل .

قال الإمام الشوكانى : « لما ذكر - سبحانه - عاقبة المشركين بقوله ﴿ أولئك لهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له فى الرزق وبسط له فيه . فأجاب - سبحانه - عن ذلك : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا ، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة .. »^(١) .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه ، وهو وحده - أيضا - الذى يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعلمها ، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان ، فقد يوسع على الكافر استدراجا له ، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له ، أو زيادة فى أجره .

والضمير في قوله : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ يعود إلى مشركي مكة ، وإلى كل من كان على شاكلتهم في الكفر والطغيان . والمراد بالفرح هنا : الأشر والبطر وجحود النعم .
 أى : وفرح هؤلاء الكافرون بربهم ، الناقضون لعهودهم ، بما أوتوا من بسطة في الرزق في دنياهم ، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لا فرح سرور بنعم الله ، وشكر له - سبحانه - عليها ، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ..

وقوله - سبحانه - ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة .

والمتاع : ما يتمتع به الانسان في دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضى .
 أى : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم في الدنيا ، فرح بطر وأشر وجحود ، لن يتمتعوا بها طويلا ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئا قليلا بالنسبة لنعيم الآخرة .
 وتتكبر « متاع » للتقليل ، كقوله - تعالى - في آية أخرى : ﴿ لا يفرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾^(١) .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة ﴾ أى : كائنة في جنب نعيم الآخرة ، فالجار والمجرور في موضع الحال ، و « في » هذه معناها المقايسة وهى كثيرة في الكلام ، كما يقال : ذنوب العبد في رحمة الله - تعالى - كقطرة في بحر ، وهى الداخلة بين مفضول سابق ، وفاضل لاحق ..

والمراد بقوله : ﴿ إلا متاع ﴾ أى : إلا شيئا يسيرا يتمتع به كزاد الراعى .
 والمعنى : أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة ، والحال أن ما فرحوا به في جنب ما عرضوا عنه قليل النفع ، سريع النفاد .

أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله - ﷺ - على حصير ، فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك ؟ فقال - ﷺ - : « ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها ... »^(٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم ، وصفات الكافرين وسوء مصيرهم كما وضحت أن الأرزاق بيد الله - تعالى - يعطيها بسعة لمن يشاء من عباده ، ويعطيها بقلّة لغيرهم ..

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٧ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٣ ص ١٣١ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المطالب المتعنتة التي طلبها الكافرون من النبي ﷺ - ، ورد عليها بما يبطلها ، ومدح المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص ، وأياسهم من إيمان أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم ، فقال - تعالى - :

وَيَقُولُ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّا نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَنْ يُشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَدَأَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهٖ الْمَوْتِ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئْسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا نَزَّلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَدِّقُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعَدُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٣١﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله ﷺ - على سبيل التعنت والظغيان . ومرادهم بالآية : آية كونية كإحياء الموتى ، وإزاحة الجبال من أماكنها ، و « لولا » هنا : حرف تضييض بمعنى هلا .

أى : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود ، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه ، كأن يحى لنا موتانا ، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهباً ..
وكانهم يرون أن القرآن الذى نزل عليه - ﷺ - لا يكفى - فى زعمهم - أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بقوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التعجيب من أحوالهم ومن شدة ضلالهم : إن الله - تعالى - يضل عن طريق الحق من يريد إضلاله ، لاستحباب هذا الضال العمى على الهدى ، ويهدى إلى صراطه المستقيم ، من أناب إليه - سبحانه - ورجع إلى الحق الذى جاء به رسوله - ﷺ - بقلب سليم . وعقل متفتح لمعرفة الصواب والرشاد .

فالجملة الكريمة تعجيب من أقوالهم الباطلة ، ومن غفلتهم عن الآيات الباهرة التى أعطاهها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وعلى رأسها القرآن الكريم الذى هو آية الآيات ، وحض لهم على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد .

والإنابة : الرجوع إلى الشيء بعد تردد ، فقد جرت عادة كثير من النفوس البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد فى قبوله فى أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ قوله ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ... ﴾ ؟

قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة والمتكاثرة التى أوتيتها رسول الله - ﷺ - لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية . فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة فى الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ ويهدى إليه من ﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿ أناب ﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير^(١) .

ثم رسم القرآن صورة مشرقة للقلوب المؤمنة ، وللجزاء الحسن الذى أعده الله لها فقال - تعالى - ﴿ الذين آمنوا ﴾ حق الإيمان ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أى : تستقر قلوبهم وتسكن ، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات . وإطلاق الذكر على القرآن الكريم ورد فى آيات منها قوله - تعالى - ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾^(١) وقوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أى : ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنسا به ، ومحبة له .

ويصح أن يراد بذكر الله هنا ما يشمل القرآن الكريم ، ويشمل ذكر الخالق - عز وجل - باللسان ، فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته - سبحانه - كما يصح أن يراد به خشيته - سبحانه - ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه .

إلا أن الأظهر هنا أن يراد به القرآن الكريم ، لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه - ﷺ - وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه .

واختير الفعل المضارع فى قوله - سبحانه - ﴿ تطمئن ﴾ مرتين فى آية واحدة ، للإشارة إلى تجدد الاطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتحت جملة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ بأداة الاستفتاح المفيدة للتنبية ، للاهتمام بمضمونها ، وللإغراء بالإكثار من ذكره - عز وجل - ، ولإثارة الكافرين إلى الانسام بسمه المؤمنين لتطمئن قلوبهم .

ولا تنافى بين قوله - تعالى - هنا ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبين قوله فى سورة الأنفال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... ﴾ أى : خافت .

لأن وجلهم إنما هو عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب . أو وجلت من هيئته وخشيته - سبحانه - وهو لا ينافى اطمئنان الاعتقاد والرجاء .

وقوله - تعالى - ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ بيان للثواب الجزيل الذى أعده - سبحانه - للمؤمنين الصادقين .

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

وطوبى : مصدر كبشرى وزلقى من الطيب ، وأصله طُيبى ، فقلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت في موقن وموسر وهو من اليقين واليسر .

وقيل : طوبى ، اسم شجرة في الجنة .

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال ابن عباس : أى فرح وقررة عين لهم .

وقال الضحاك : أى غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعى : أى خير لهم .

وقال قتادة : طوبى : كلمة عربية . يقول الرجل لغيره : طوبى لك أى : أصبت خيراً .

وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس « طوبى لهم » قال : هى أرض الجنة بالحبيشية .

وقال سعيد بن مشجوج « طوبى » اسم الجنة بالهندية .

وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : « طوبى » : شجرة في الجنة، كل شجر الجنة

منها ...

وهكذا روى عن ابن عباس وأبى هريرة وغير واحد من السلف ، أن طوبى شجرة في

الجنة ، في كل دار في الجنة غصن منها^(١) .

والمآب : المرجع والمنقلب من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب يثوب أوباً وإباباً ومآباً

إذا رجع .

والمعنى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم في آخرتهم ، عيش طيب . وخير

كامل ، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم .

ثم بين - سبحانه - أن إرسال محمد - ﷺ - إلى الناس ليس بدعا ، فقد سبقه رسل

كثيرون إلى أقوامهم فقال - تعالى - : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ .

فالكاف في قوله ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه حيث شبه - سبحانه - إرساله - ﷺ - إلى

الناس ، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .

واسم الإشارة يعود إلى الإرسال المأخوذ من فعل « أرسلناك » .

والمراد بالأمة هنا : أمة الدعوة التى أرسل إليها الرسول - ﷺ - فآمن من آمن من

أفرادها ، وكفر من كفر .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧٦ طبعة دار الشعب .

أى : كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكي تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذى أوحيناه إليك من لدنا ، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله - تعالى - ببيانه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قد خلت من قبلها أمم ﴾ تعريض بمشركى مكة ، وأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، فسيصيبيهم ما أصاب الأمم الخالية .

وقوله ﴿ لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم ، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول - ﷺ - وأن وظيفة الرسول - ﷺ - - قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه .

وأن قول المشركين ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ إنما هو قول يدل على عنادهم وغبانهم وجحودهم للحق بعد أن تبين .

وجملة ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ حالية .

أى : أرسلناك أيها الرسول الكريم إلى هؤلاء الضالين ، لتتلو عليهم ما ينقذهم من الضلال ، ولكنهم عموا وطمعوا عن ساعه ، والحال أنهم يكفرون بالرحمن أى العظيم الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شىء .

وأوثر اختيار اسم الرحمن من بين أسماؤه - تعالى - للإشارة إلى أن إرساله - ﷺ - مبعثه الرحمة كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾^(١) .

- وللدرد عليهم فى إنكارهم أن يكون الله - تعالى - رحمانا ، فقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾^(٢) .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنهم لم يرضوا بكتابة هذا الاسم الكريم فى صلح الحديبية ، فعندما قال - ﷺ - لعلى : اكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قال أحد زعمائهم . ما ندرى ما الرحمن الرحيم ..

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما يبطل كفرهم فقال : ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الرحمن الذى تتجافون النطق باسمه الكريم هو وحده

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

ربى وخالقى ، لا إله مستحق للعبادة سواه ، عليه لا على أحد سواه توكلت فى جميع أمورى ، وإليه لا إلى غيره مرجعى وتوبى وإنايتى .

فهذه الجملة الكريمة اشتملت على أبلغ رد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون الإله - جل وعلا - رحمانا ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .

ثم أشار - سبحانه - إلى عظمة هذا القرآن الذى أوحاه إلى نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولو أن قرآناً سیرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى ... ﴾ .

والمراد بالقرآن هنا : معناه اللغوى ، أى الكلام المقروء .

وجواب لو محذوف لدلالة المقام عليه .

والمعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السبوية ، ﴿ سیرت به الجبال ﴾ أى : تحركت من أماكنها ، ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أى شقت وصارت قطعاً ، ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ بأن يعودوا إلى الحياة بعد قراءته عليهم .

ولو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك لكان هذا القرآن ، لكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والنهية العظمى فى الترغيب والترهيب .

وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم ، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول - ﷺ - آية كونية سواه .

ويصح أن يكون المعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السبوية نزل عليك يا محمد فسیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، لما آمن هؤلاء المعاندون .

قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ... ﴾^(١) .

وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان غلوهم فى العناد والطغيان ، وتماذيرهم فى الكفر والضلال ، وأن سبب عدم إيمانهم ليس مرده إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه - ﷺ - وإنما سببه الحسد والعناد والمكابرة .

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التى طلبوها منه - ﷺ - ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبي - ﷺ - : يا محمد ، لو سیرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرت فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت

لنا الموقى كما كان عيسى يحيى الموقى لقومه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية^(١) .
 وقوله - سبحانه - ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن
 الأمور كلها بيد الله ، وأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شيء .

أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه أن يأتي بالمقترحات التى اقترحوها ، ولكن إرادته -
 سبحانه - لم تتعلق بما اقترحوه ، لعلمه - سبحانه - بعقوبتهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا
 من آيات .

وقوله - سبحانه : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ تئيس
 للمؤمنين من استجابة أولئك الجاحدين للحق ، إلا أن يشاء الله لهم الهداية ، والاستفهام
 للإنكار . وأصل اليأس : قطع الطمع فى الشيء والقنوط من حصوله .
 وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أحدهما يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقى وهو قطع الطمع فى الشيء ، وعليه
 يكون المعنى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله - تعالى - لو
 يشاء هداية الناس جميعا لاهدتوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ، لىتميز الخبيث من الطيب .

وعلى هذا الاتجاه سار الإمام ابن كثير فقد قال - رحمه الله - : وقوله - تعالى - ﴿ أفلم
 ييأس الذين آمنوا ﴾ أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى
 الناس جميعا ﴾ فإنه ليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا
 القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيتة خاشعا متصدعا من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على
 مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم
 القيامة^(٢) .

ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره السيوطى فى تفسيره من أن بعض الصحابة قالوا للرسول
 - ﷺ - يارسول الله ، اطلب لهم - أى للمشركين - ما اقترحوه عسى أن يؤمنوا .
 أما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه أن الفعل ييأس بمعنى يعلم ، وعليه يكون المعنى : أفلم يعلم
 المؤمنون أنه - سبحانه - لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا .

وهذا الاتجاه صدر به الآلوسى فى تفسيره فقال ما ملخصه :

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٥ .

ومعنى قوله - سبحانه - : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أفلم يعلموا . وهى كما قال القاسم بن معن لغة هوازن . وقال الكلبي هى لغة حى من النخع ، وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونى ألم تياسوا أنى ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدى :

ألم ييأس الأقسام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

والظاهر أن استعمال اليأس فى ذلك حقيقة .

وقيل مجاز لأنه متضمن للعلم فان الآيس عن الشئء عالم بأنه لا يكون ..
والفاء للعطف على مقدر . أى : أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله - تعالى - فلم يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ...^(١) .

ثم حذر - سبحانه - الكافرين من التهادى فى كفرهم ، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

والقارعة : من القرع ، وهو ضرب الشئء بشئء آخر بقوة وجمعها قوارع .
والمراد بها : الرزية والمصيبة والكارثة .

أى : ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر والضلال «قارعة» أى مصيبة تفجؤهم وتزعجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم ، فيتطير شرها إليهم ، حتى يأتي وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ، إن الله - تعالى - لا يخلف الميعاد ، أى : موعوده لرسله ولعباده المؤمنين .

وأبهم - سبحانه - ما يصيب الكافرين من قوارع ، لتهويله وبيان شدته .

والتعبير بقوله ﴿ ولا يزال ﴾ ويشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجودا قبل نزول هذه الآية ، واستمرت إصابته لهم بعد نزولها ، لأن الفعل ﴿ لا يزال ﴾ يدل على الإخبار باستمرار شئء واقع .

ولعل هذه الآية الكريمة كان نزولها فى خلال سنى الجذب التى حلت بقريش والتى أشار

إليها القرآن بقوله : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم ... ﴾^(١) .

وعبر - سبحانه - عما أصابهم من بلاء بالقارعة ، للمبالغة في شدته وقوته . حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيبتهتهم ويزعجهم ، ولذلك سميت القيامة بالقارعة ، لأنها تفرع القلوب بأهوالها .

وقال - سبحانه - : ﴿ أو تحل قريبا من دارهم ﴾ لبيان أنهم بين أمرين أحلاهما مر لأن القارعة إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له ، وإما أن تنزل قريبا منهم فتفرعهم ، وتقلق أمنهم ، وهم مستمررون على ذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .
ولقد قضى الله - تعالى - أمره ، بهزيمتهم في بدر وفي غيرها . وأتم نصره على المؤمنين بفتح مكة . وبدخول الناس في دين الله أفواجا .

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك في تسلية الرسول - ﷺ - وفي إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى بطلان الشرك ، وفي بيان ما أعدّه للكافرين من عقاب ، وما أعدّه للمتقين من ثواب فقال تعالى :

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
بِظَهْرِ مَنَ الْأَعْيُنِ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ هَلْ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (٣٥)

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد استهزىء برسلى من قبلك ... ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبتهم له بالمطالب السخيفة التي لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى . والاستهزاء : المبالغة في السخرية والتهكم من المستهزأ به . والإملاء : الإهمال والترك لمدة من الزمان .

والتكثير في قوله ﴿ برسلى ﴾ للتكثير ، فقد استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه .

واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (١) .

واستهزأ قوم هود به وقالوا له : ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾ (٢) واستهزأ فرعون بموسى فقال : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ (٣) .

والمعنى : ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسلى كثيرين من قبلك - أيها الرسول الكريم - ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أى : فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة . ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ فانظر كيف كان عقابى إياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا .

فالاستهزاء للتعجب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وقطاعته وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ (٤) . قال ابن كثير : وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « وإن الله ليملى للظالم حتى

(١) سورة الشعراء الآية ١٨٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٥٢ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٨ .

إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ - ﴿ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾^(١) .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة الساطعة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له - تعالى - فقال : ﴿ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ... ﴾ .

والمراد بالقيام هنا : الحفظ والهيمنة على جميع شئون الخلق والاستفهام للإنكار ، والخبر محذوف والتقدير : ﴿ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ ﴾ أى : رقيب ومهيمن ﴿ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾ كائنة ما كانت ، عالم بما عمله من خير أو شر فمجازها به كمن ليس كذلك ؟

وحذف الخبر هنا وهو قولنا - كمن ليس كذلك - لدلالة السياق عليه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أى : كمن قسا قلبه .

وحسن حذف الخبر هنا لأنه مقابل للمبتدأ الذى هو ﴿ مَن ﴾ ولأن قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يدل عليه .

والمقصود من الآية الكريمة إنكار المماثلة بين الخالق العظيم ، العليم بأحوال النفوس ... وبين تلك الأصنام التى أشركوها مع الله - تعالى - فى العبادة التى هى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لنفسها - فضلا عن غيرها - نفعا ولا ضرا .

وجملة ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ حالية ، والتقدير :

أفمن هذه صفاته ، وهو الله - تعالى - كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء فى العبادة وغيرها .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، زيادة توبيخهم ، وتسفيه أفكارهم وعقولهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ قُلْ سَمَوْهُمْ ﴾ تبيكيت لهم إثر تبيكيت .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، لأن الله - تعالى - واحد لا شريك له .

وهذه التسمية إنما هى من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٣ .

فالأمر في قوله ﴿ سموهم ﴾ مستعمل في الإباحة المصحوبة بالتهديد ، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبأهنتهم التي سموها شركاء . وهذا كما يقول العاقل للأحمق الذي لا يحسن الكلام : قل ما شئت فإن كلامك لا وزن له ، ولا خير فيه .

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية : « واعلم أنه - تعالى - لما قرر هذه الحجة - وهي أن القائم على كل نفس ليس كمن لا يملك شيئاً - زاد في الحجاج فقال : ﴿ قل سموهم ﴾ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال : سمه إن شئت .

يعنى : إنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه - تعالى - قال : سموهم بالآلهة ، والمعنى : سواء أسميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به ، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها»^(١) ..

والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ، أم يظاهر من القول ﴾ للإنكار والتوبيخ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم : قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم في الأرض ، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

أم أنكم سميتموهم شركاء بظاهر من القول أى : بظن من القول لا حقيقة له في الواقع ونفس الأمر .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ﴿ أم تنبئونه ﴾ أى : بل أتخبرون الله - تعالى - بما لا يعلم في الأرض ﴿ أى شركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم - سبحانه - والمراد : نفيها بنفى لازمها على طريق الكناية ، لأنه - سبحانه - إذا كان لا يعلمها - وهو الذى لا يعزب عن علمه شيء - فهى لا حقيقة لها أصلاً .

وتخصيص الأرض بالذكر ، لأن المشركين زعموا أنه - سبحانه - له شركاء فيها . وقوله ﴿ أم يظاهر من القول ﴾ أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق في نفس الأمر ، كتسمية الزنجى كافوراً .

وروى عن الضحاك وقتادة ، أن الظاهر من القول : الباطل منه ، كما في قول القائل :
أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يابن ربطة ظاهر
أى : باطل زائد^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضل
الله فما له من هاد ﴾ إضراب عن حجاجهم ، وإهمال لشأنهم ، و« زين » من التزين وهو
تصيير الشيء زينا أى : حسنا .

والمكر : صرف الغير عما يريد به حيلة . والمراد به هنا : كفرهم ومسالكتهم الخبيثة ضد
الإسلام والمسلمين .

والمعنى : دع عنك أيها الرسول الكريم - مجادلتهم ، لأنه لا فائدة من ورائها ، فإن هؤلاء
الكافرين قد زين لهم الشيطان ورؤساؤهم في الفكر مكرهم وكيدهم للإسلام وأتباعه ، وصدومهم
عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم ، ومن يضلله الله - تعالى - بأن يخلق فيه الضلال
لسوء استعداده ، فما له من هاد يهديه ويرشده إلى ما فيه نجاته .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التي تثبت وجوب إخلاص
العبادة لله ، وتبطل الشركة والشركاء أشار إليها بعض المفسرين فقال :

قال الطيبي : في هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبنى على فنون من علم البيان :

أولها : ﴿ أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ كمن ليس كذلك ، احتجاج عليهم
وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لها .

ثانيها : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ من وضع المظهر موضع المضمّر ، للتنبيه على أنهم جعلوا
شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في أسائه .

ثالثها : ﴿ قل سموهم ﴾ أى عينوا أسماؤهم فقولوا فلان وفلان ، فهو إنكار لوجودها
على وجه برهاني ..

رابعها : ﴿ أم تبينونه بما لا يعلم ﴾ احتجاج من باب نفى الشيء أعنى العلم بنفى لازمه
وهو المعلوم وهو كناية .

خامسها : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ احتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على التفكير .

أى : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

(١) تفسير الألوسى ج ١٣ ص ١٠٤ .

سادسها : التدرج في كل من الإضرابات على ألطف وجه ، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها ، كان الاحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس كلام البشر^(١) .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أى : لهم عذاب شديد في الحياة الدنيا ، ينزله الله - تعالى - بهم تارة عن طريق القوارع والمصائب التي يرسلها عليهم ، وتارة عن طريق الهزائم التي يوقعها بهم المؤمنون ، هذا في الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿ وما لهم من الله ﴾ - تعالى - ومن عذاب الآخرة ﴿ من واق ﴾ أى : من حائل يحول بينهم وبين عذابه - سبحانه - .

ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الصفة العجيبة . أى : صفة الجنة التي وعد الله إياها من اتقاه وسان نفسه عن كل مالا يرضيه ، أنها تجري من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ، وأنها أكلها دائم ، أى : ما يؤكل فيها لا انقطاع لأنواعه « وظلها » كذلك دائم .

قال بعضهم : وجملة ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ خبر عن « مثل » باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه ، فهي من أحوال المضاف لشدة الملاسة بين المتضايين ، كما يقال : صفة زيد أسمر . وجملة « أكلها دائم » خبر ثان^(٢) .

واسم الإشارة في قوله : « تلك عقبي الذين اتقوا » يعود على الجنة التي أعدها الله - تعالى - للمتقين .

أى : تلك الجنة المنعوتة بما ذكره مآل المتقين الذين استقاموا على الطريق الحق ، وهى منتهى أمرهم .

أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم فهى النار ، وبئس القرار .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث في صفة الجنة فقال : وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكت - أى توقفت وأحجمت ؟ فقال :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٥٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

« إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

وروى الطبراني عن ثوبان قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » .^(١)

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت من التوجيهات ما فيه التسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وما فيه أوضح الدلائل والبراهين وأبلغها عن وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعبادة ، وما فيه البشارة للمؤمنين ، والتهديد للكافرين .
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم ، وبأمر الرسول - ﷺ - أن يعلن منهجه بصراحة وثبات ، دون التفات إلى أهواء معارضيه ، وبالرد على الشبهات التي أثارها أعداؤه حول دعوته ، وبتهديد هؤلاء الأعداء وبسوء العاقبة إذا ما استمروا في طغيانهم فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِيُنَبِّئَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾
وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
 مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَلَّهٌ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
 يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ ثناء منه
 - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه .
 والمراد بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل .

والمعنى : والذين أعطيناهم التوراة والانجيل ، فآمنوا بما فيها من بشارات تتعلق بك
 - أيها الرسول الكريم - ، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين .
 هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن ، لأن ما فيه من هدايات
 وبراهين على صدقك ، يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن الكريم ، وبالموصول أتباع النبي - ﷺ - من المسلمين .
 فيكون المعنى : والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فآمنوا بك وصدقوك يفرحون
 بكل ما ينزل عليك منه ، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة سبقت بعد الحديث عن عاقبة الذين
 اتقوا وهم المؤمنون الصادقون ، وعاقبة الكافرين . ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم
 به فلا يحتاج إلى الحديث عنه .

ومن المفسرين الذين اقتصروا في تفسيرهم للآية على الرأي الأول الإمام ابن كثير فقد
 قال : يقول الله - تعالى - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿ يفرحون
 بما أنزل إليك ﴾ أي : من القرآن ، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه - ﷺ - والبشارة

به ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(١) .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ ﴾ بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم . والأحزاب : جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطباعهم وشهواتهم .. ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى ينكروه ، إهمالا لشأنهم ، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ ﴾ أمر منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل .
أى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من خالفك فيما تدعو إليه « إنما أمرت أن أعبد الله » وحده « ولا أشرك به » بوجه من الوجوه إليه وحده « أَدْعُو » الناس لكى يخلصوا له العبادة والطاعة « وإليه مآب » أى وإليه وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحد غيره .
فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده . والذم لمن أنكره جحوداً وعناداً ، والأمر للنبي - ﷺ - بالسير فى طريقه بدون خشية من أحد .
ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الفضائل التى امتاز بها القرآن الكريم فقال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكَمًا عَرَبِيًّا ... ﴾ .

والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ وضمير الغائب فى أَنْزَلْنَاهُ يعود الى ﴿ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ فى قوله فى الآية السابقة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ... ﴾ وقوله ﴿ حَكَمًا عَرَبِيًّا ﴾ حالان من ضمير الغائب .
والمعنى : ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز ، أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ حَكَمًا ﴾ أى : حاكماً بين الناس ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى : بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك .

ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة ، فيكون المعنى : وكما أَنْزَلْنَا الْكُتُبَ السَّمَاوِيَةَ عَلَى بَعْضِ رُسُلِنَا بِلُغَاتِهِمْ وَبِلُغَاتِ أَقْوَامِهِمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ حَاكِمًا بَيْنَ النَّاسِ بِلُغَتِكَ وَقَوْمِكَ ، وهى اللغة العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه .
وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن

الكريم : فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته ، وهو المعبر عنها بكونه « حكما » .

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، وهى المعبر عنها بكونه « عربيا » .
أى : نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها .

ثم فى كونه « عربيا » امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء ، حيث إنه نزل بلغتهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيته ، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم ، قال - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليك كتابا فيه ذكركم ﴾ أى : فيه بقاء شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ^(١) .

وقال - تعالى - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ ^(٢) .

وفى ذلك تعريض بغياء مشركى العرب ، حيث لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان .

ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمة كلها فى شخص نبيها - ﷺ - من اتباع أهواء كل كافر أو فاسق : فقال - تعالى - : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولى ولا واق ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولئن ﴾ موطئة للقسم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين .

والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق ، ومطالبهم المتعنتة ، والمراد بما جاءه من العلم : ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحي الصادق .

والولى : الناصر والمعين والقريب والحليف . والواقى : المدافع عن غيره .

والمعنى : « ولئن اتبعت » - يا محمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك ، « من بعد ما جاءك من العلم » اليقيني بأن الإسلام هو الدين الحق ، « مالك من الله » أى من عقابه « من ولى » يلى أمرك وينصرك « ولا واق » يقيك من حسابه . وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول - ﷺ - للتأكيد من مضمونه .

فكأنه - سبحانه - يقول : لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله

- تعالى - : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول - ﷺ - ليس إلا من قبيل التعنت والجحود ، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية... ﴾ .

أى : « ولقد أرسلنا رسلا » كثيرين « من قبلك » يا محمد « وجعلنا لهم » أى هؤلاء الرسل « أزواجا » يسكنون إليهن « وذرية » أى : وأولادا تقرُّ بهم أعينهم .
قال الشوكاني : « وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله - ﷺ - تزوجه بالنساء .

أى : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه^(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله ... ﴾ رد على ما طلبوه منه - ﷺ - من معجزات .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات .

وقوله - سبحانه - ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه - ﷺ - .

أى : لكل وقت من الأوقات « كتاب » أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته ، وسعة علمه ، وعظيم حكمته فقال : ﴿ يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

وقوله : ﴿ يحو ﴾ من المحو وهو إذهاب أثر الشيء بعد وجوده .

وقوله : ﴿ ويثبت ﴾ من الإثبات وهو جعل الشيء ثابتا قارا فى مكان ما .

وأصل الكتاب : أصل الكتاب والمراد بأمر الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - سبحانه - المحيط بكل شيء .

قال الفخر الرازى : « والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أمّا له ومنه أمّ

الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب»^(١) .

والمعنى : يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه ، ويثبت ما يريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة ، ومن الصحة أو المرض ، ومن الغنى أو الفقر ، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه .

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون .

قال - تعالى - : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ... ﴾^(٢) .
وقال - تعالى - : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾^(٣) .

وللمفسرين في معنى هذه الآية كلام طويل ، لخصه الإمام الشوكاني تلخيصاً حسناً فقال :

قوله - سبحانه - : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر .. ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .

وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظ ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل « يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ، ويثبت ما لا يشاء فلا ينسخه .. والأول أولى كما تفيده « ما » في قوله « ما يشاء » من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله « لكل أجل كتاب » ومع قوله « وعنده أم الكتاب » أى أصله وهو اللوح المحفوظ .

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته .

وهذا لا ينافي ما ثبت عنه - ﷺ - من قوله « جفَّ القلم » ، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه - سبحانه - .

وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى - : بما خلق وبما هو خالق^(٤) .

(٣) سورة الحج الآية ٧٠ .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٦٦ .

(٤) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٨٨ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٢ .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ حض له - ﷺ - على المضى فى دعوته بدون تسويق أو تأجيل .
 و« ما » فى قوله « وإما نرينك » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، والأصل : وإن نرك ، والإراءة هنا بصرية ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذى نعدهم : مفعول ثان ، وجواب الشرط ، محذوف .

والمعنى : وإما نرينك - يا محمد - بعض الذى توعدنا به أعداءك من العذاب الدنيوى ، فذاك شفاء لصدرك وصدور أتباعك .

وقوله « أوتوفينك » شرط آخر لعطفه على الشرط السابق ، وجوابه - أيضا - محذوف والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم ، واترك الأمر لنا .

وقوله : ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أى : سواء رأيت عذابهم أم لم تره ، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس .

﴿ وعلينا ﴾ وحدنا ﴿ الحساب ﴾ أى : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما يصيبهم من عذاب دنيوى هو بعض العذاب المعد لهم ، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا ، جانبا من العذاب الذى أنزله بأعدائه ، فسلط على مشركى مكة الجذب والقحط الذى جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود .

كما سلط عليهم المؤمنين فهزمهم فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرها . ثم وبخ - سبحانه - المشركين لعدم تفكرهم وتدبرهم وتمعنهم بآثار من قبلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ... ﴾ .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والخطاب لمشركى مكة ومن كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال .

والمراد بالأرض هنا : أرض الكفرة والظالمين .

والأطراف جمع طرف وهو جانب الشيء .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار ، ولم يروا كيف ان قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية الغنية - حين كفرت بنعمه - سبحانه - ، فصيرت قوتها ضعفا وغناها فقرا ، وعزها ذلا ، وأمنها خوفا .. وحصرتها فى رقعة ضيقة من الأرض ، بعد أن

كانت تملك الأراضى الفسيحة ، والأماكن المترامية الأطراف .

فالأية الكريمة بشارة للمؤمنين ، وإنذار للكافرين .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبيون ﴾^(١) .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وروى عن ابن عباس أن المراد بانتقاص الأرض : موت أشرفها وكبرائها وذهاب العلماء منها . وعليه يكون المراد بالأرض جنسها وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :

وأسأل بنا وبكم ، إذا وردت منى أطراف كل قبيلة ، من يتبع ؟
يريد أشراف كل قبيلة .

وتقرير الآية عليه : أو لم يروا أنا نحدث فى الدنيا من الاختلافات خرابا بعد عبارة ، وموتا بعد حياة ، ودلا بعد عز .. فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله - تعالى - الأمر عليهم فيجعلهم أدلة بعد أن كانوا أعزة ...

ثم قال : وهو كما ترى :

والأول - وهو أن يكون المراد بالارض : أرض الكفر ، وبالأطراف الجوانب - أوفق بالمقام ، ولا يخفى ما فى التعبير باللاتيان المؤذن بعظيم الاستيلاء من الفخامة ، وجملته « ننقصها » فى موضع الحال من فاعل نأتى .. »^(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ بيان لعلو شأن حكمه - تعالى - ونفاذ أمره .

والمعقب : هو الذى يتعقب فعل غيره أو قوله فيبطله أو يصححه .

أى : والله - تعالى - يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه ، لاراد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم - سبحانه - بعزة الإسلام ، وعلو شأنه وشأن اتباعه على سائر الأمم والأديان ...

وقوله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ أى : وهو - سبحانه - سريع المحاسبة والمجازاة ، لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من الإحصاء والعد ، إذ هو - سبحانه - محيط بكل شىء ، فلا تستبطئ . عقابهم - أيها الرسول الكريم - فإن ما وعدناك به واقع لا محالة .

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٥٥ .

ثم زاد - سبحانه - في تسلية رسوله - ﷺ - وفي تثبيت فؤاده فقال : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا .. ﴾ .

والمكر : صرف الغير عما يريد به حيلة ، أو إيصال المكروه للممكور به خفية ، والمراد بمكر الذين من قبلهم : إضارهم السوء لرسولهم .

والمراد بمكر الله - تعالى - هنا : علمه - سبحانه - بما يتتوه ، وإحباطه لمكرهم ، وإنجاؤه لرسوله - عليهم الصلاة والسلام - .

أى : وقد مكر الكفار الذين سبقوا قومك - يا محمد - برسولهم وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن ربك - سبحانه - نصر رسوله لأنه - عز وجل - له المكر جميعا ، ولا اعتداد بمكر غيره لأنه معلوم له .

وقال الجمل ما ملخصه : « وقوله ﴿ فله المكر جميعا ﴾ تعليل لمحذوف تقديره فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، فمحذوف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله ﴿ فله المكر جميعا ﴾ أى : لا تأثير لمكرهم أصلا لأنه معلوم لله - تعالى - وتحت قدرته ..

وأثبت لهم المكر باعتبار الكسب ، ونفاه عنهم باعتبار الخلق ^(١) .

وجملة « يعلم ما تكسب كل نفس » بمنزلة التعليل لجملة « فله المكر جميعا » .

أى : هو - سبحانه - له المكر جميعا ، لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .

وقوله : ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ تهديد للكافرين بالحق الذى جاءهم به رسول الله - ﷺ - .

أى : وسيعلم الكافرون عندما ينزل بهم العذاب ، لمن تكون العاقبة الحميدة أهى لهم - كما يزعمون - أم للمؤمنين ؟ لاشك أنها للمؤمنين .

فالجملة الكريمة تحذير للكافرين من التهادى في كفرهم ، وتبشير للمؤمنين بأن العاقبة لهم .

وفي قراءة سبعية « وسيعلم الكافر » . فيكون المراد به جنس الكافر .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالشهادة للرسول - ﷺ - بأنه صادق في رسالته فقال : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾ .

أى : لست مرسلا من عند الله - تعالى - ، وقد حكى - سبحانه - قولهم الباطل هذا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥١٢ .

بصيغة الفعل المضارع ، للإشارة إلى تكرار هذا القول منهم ، ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد والجحود .

وقوله ﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذي هو فاعل ﴿ كفى ﴾ في المعنى ، مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ معطوف على اسم الجلالة ، والمراد بالموصول وبالكتاب الجنس .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - تكفى شهادة الله بيني وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتي ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك - أيضا - كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أوصافى فيها ...

ومن شهد لى بالنبوة ورقة بن نوفل ، فأنتم تعلمون أنه قال لى عندما أخبرته بما حدث لى فى غار حراء : « هذا هو الناموس - أى الوحى - الذى أنزله الله على موسى » ..

وقيل المراد بمن عنده علم الكتاب : المسلمون . وبالكتاب : القرآن ، والأول أرجح لشموله لكل من كان عنده علم بالكتب السماوية السابقة ، إذ هذا الشمول أكثر دلالة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وبعد : فهذه هى سورة الرعد . وهذا تفسير وسيط لآياتها ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

الموافق ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

تفسیر
سُورَةُ اِبْرٰهِيْمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة إبراهيم - عليه السلام - ، توخيت فيه أن يكون
تفسيرا تحليليا ، خاليا من الآراء السقيمة ، والأقوال الضعيفة . والله أسأل أن يجعله خالصا
لوجهه ، نافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٨ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

تعريف بسورة إبراهيم - عليه السلام -

- ١ - سورة إبراهيم - عليه السلام - هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول ، فقد كان بعد سورة نوح - عليه السلام - .
وقد ذكر السيوطي قبلها سبعين سورة من السور المكية^(١) .
- ٢ - وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية في المصحف الكوفي ، وإحدى وخمسون في البصري ، وأربع وخمسون في المدني ، وخمس وخمسون في الشامي .
- ٣ - وسميت بهذا الاسم ، لاشتغالها على الدعوات الطيبات التي تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ولا يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم .
- ٤ - وجمهور العلماء على أنها مكية ، وليس فيها آية أو آيات غير مكية .
وقال الآلوسي : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . والظاهر أنها أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذي عليه الجمهور .
وأخرج النحاس في ناسخه عن الخبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنها نزلتا بالمدينة وهما قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبنس القرار ﴾ فإنها نزلتا في قتل بدر من المشركين ..^(٢) .
وسنرى عند تفسيرنا لهاتين الآيتين ، أنه لم يقد دليل يعتمد عليه على أنها مدنيتان . وأن السورة كلها مكية كما قال جمهور العلماء .
- ٥ - هذا ، وبطلاعتنا لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل نراها في مطلعها تحدثنا عن وظيفة القرآن الكريم ، وعن جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن سوء عاقبة الكافرين ، وعن الحكمة في إرسال كل رسول بلسان قومه قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ ..

(١) راجع الانتان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٣ ص ١٦١ طبعة منير الدمشقي .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم نراها بعد ذلك تحدثنا عن طرف من رسالة موسى - عليه السلام - مع قومه ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن نماذج من المحاورات التي دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور .. ﴾ .

ثم تضرب السورة الكريمة بعد ذلك مثلاً لأعمال الكافرين ، وتصور أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وتحكى ما يقوله الشيطان لهم في ذلك اليوم .. فتقول :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ ..

﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ﴾ ..

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ .

ثم تسوق السورة مثلاً آخر لكلمتي الإيمان والكفر فتقول : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ ..

ثم يحكى ألواناً متعددة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ونعمه على عباده فتقول : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار... ﴾ .

ثم تسوق بعد ذلك تلك الدعوات الصالحات الجامعات لأنواع الخير ، التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه فتقول :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام... ﴾ .

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

ثم يحتم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بآيات فيها ما فيها من أنواع العذاب الذى أعدّه للظالمين ، وفيها ما فيها من ألوان التحذير من السير فى طريق الكافرين والجاحدين فيقول :

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء... ﴿ .
 ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .
 ٦ - ومن هذا العرض الإجمالي للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بأمر من أبرزها ما يلي :
 (أ) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم ، وتحريضهم على شكر هذه النعم وتحذيرهم من جحودها وكفرها ..

ومن الآيات التي وردت في هذه السورة في هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .
 وقوله - تعالى - : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلم كفار ﴾ .

(ب) تسلية الرسول ﷺ - عما لقيه من مشركي قريش ، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم ، وتارة عن طريق بيان أن العقاب للمتقين .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ... ﴾ .
 وقوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ... ﴾ .

(ج) اشتغال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب في الإيمان ، وللتحذير من الكفر ، تارة عن طريق ضرب الأمثال ، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وتارة عن طريق حكاية ما سيقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، وما سيقوله الضعفاء للذين استكبروا وما سيقوله الظالمون يوم يرون العذاب ..

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .
 وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ... ﴾ .

هذه بعض الموضوعات التي اهتمت السورة بإبرازها وبتركيز الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى عنت السورة بتفصيل الحديث عنها ، ويراها المتدبر لآياتها ..
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

سورة إبراهيم - عليه السلام - من السور القرآنية التي افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ﴿ الر ﴾ .

وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء في هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله . هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تولفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تتضمنونها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاتوا سورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾^(١) .

وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض السامى الذى أنزله الله - تعالى - من أجله .

والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية . والباء في ﴿ بإذن ربهم ﴾ للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله ﴿ لتخرج ﴾ . والصراف : المجادة والطريق ، من شرط الشيء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك ، لأنه يبتلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صادًا على لغة قريش .

والمعنى : هذا كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكي تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية ، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيتته وإرادته وأمره .

وقوله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ يدل من قوله ﴿ إلى النور ﴾ . أى لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى طريق الله ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى يغلب ولا يغلب ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود بكل لسان .

وأسند - سبحانه - الإخراج إلى النبى - ﷺ - باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر بالظلمات - كما يقول الإمام الرازى - ، لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه نهاية ما ينجلى به طريق هدايته^(٢) .

وفى جمع « الظلمات » وإفراد « النور » إشارة إلى أن للكفر طرقا كثيرة ، وأما الإيمان

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٧٢ .

فطريق واحد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا ذنر ربهم ﴾ احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله - تعالى - . ومشيئته ، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط ، أما الهداية فمن الله وحده .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ... ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وملكاً وخلقا لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع .

ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو عطف بيان من العزيز الحميد . وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

وجملة « وويل للكافرين من عذاب شديد » تهديد ووعيد لمن كفر بالحق وأعرض عنه . ولفظ « ويل » مصدر لا يعرف له فعل من لفظه مثل « ويح » وجاء مرفوعاً للدلالة على الثبات والدوام ، ومعناه الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ، أى : الله - تعالى - هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين بما أنزلناه إليك - أيها الرسول الكريم - من عذاب شديد سينزل بهم ، فيجعلهم يستغيثون دون أن يجدوا من يغيثهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات الذميمة ، التى أردتهم وأهلكتهم فقال - تعالى - : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، ويغفونها عوجاً ... ﴾ .

ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسین والتاء للتأكيد ، أى : يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلی . أى : يختارون شهوات الحياة الدنيا . ويؤثرون لذاتها ومتعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات ..

﴿ ويصدون ﴾ من الصد ، وهو صرف الغير عن الشيء ومنعه منه يقال : صد فلان فلاناً عن فعل الشيء ، إذا منعه من فعله .

وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهو ملة الإسلام .

ويغفون من البغاء - بضم الباء - بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشيء أبغيه بغاء وبغى وبغية إذا طلبته .

والعوج - بكسر العين وفتحها - مصدر عوج - كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن مكسور العين يكون فيما ليس بمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها يكون في المرئيات كالأجساد والمحسوسات .

أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل في طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعاً لزيغ نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق ، وأعدل سبيل . والضمير المنصوب في قوله « ييغونها » يعود إلى سبيل الله . أى ييغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، كما في قوله ﴿ وإذا كالوهم ... ﴾ أى : كالوا لهم .
وقوله ﴿ عوجا ﴾ مفعول به لييغون .

وبعضهم جعل الضمير المنصوب في « ييغونها » ، وهو الهاء هو المفعول ، وجعل « عوجا » حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون في حال اعوجاج واضطراب . وقوله : ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ بيان الحكم العادل الذى أصدره - سبحانه - عليهم .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر في ضلال بعيد عن الحق .
والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرىاء بما وصفوا به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .

وعبر بفى الظرفية للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه يحيط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف .

قال الألوسى : وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفى ، حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازاً كجد جده ...

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب اتصافه بما وصف به ، بناء على أن البعد في الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب بعده ضلاله ، لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلانا عصيانه ، والإسناد مجازى وفيه المبالغة المذكورة أيضاً .^(١)

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من منته على عباده فقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم... ﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في أول السورة ﴿ كتاب

أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.... ﴿ كان هذا إنعاما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر ...

ثم ذكر في هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين :
أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة ..

وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه - سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم...^(١)
والباء في قوله « بلسان » للملاسة ، والمراد باللسان : اللغة التي يتخاطب بها الرسول مع قومه ..

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسولا من الرسل إلى قوم من الأقسام ، إلا وكانت لغته كلغتهم ، لكي يتيسر لهم أن يفهموا عندما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهي ..

قال ابن كثير : « هذا من لطفه - تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم كما قال الإمام أحمد .
حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبي ذر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا بلغه قومه »^(٢) .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم يبعث رسول الله - ﷺ - إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعا ، وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلفغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة - أيضا - قلت : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ، فيبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أول الألسنة لسان قوم الرسول - ﷺ - لأنهم أقرب إليه .

فإذا فهموا عنه وتبينوه وتتوكل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٩٧ .

التنازع والاختلاف ...»^(١) وقال الشوكاني : ما ملخصه : « وقد قيل في هذه الآية إشكال ، لأن النبي - ﷺ - أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ... وأجيب : بأنه - ﷺ - وإن كان مرسلا إلى الثقيلين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها .

وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا إلى التحريف والتصحيح ، بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون »^(٢) .

وجملة « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » مستأنفة .

أى : فيضل الله من يشاء إضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه . ويهدي من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه . « وهو » سبحانه « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : وتفريع قوله « فيضل الله من يشاء ... الخ » على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضل » مرفوعا غير منصوب ، إذ ليس عطفًا على فعل « ليبين » لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبين ولكنه مفرع على الإرسال المعلن بالتبيين .

والمعنى : أن الإرسال بلسان قومه لعله التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعرفة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبين لهم »^(٣) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ، ووظيفة الرسول - ﷺ - كما توعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله - تعالى - ولطفه بعباده ، وفضله عليهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن رسالة موسى - عليه السلام - كانت أيضا لإخراج

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور .

قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغناه عنهم ، فقال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
 قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا
 اللَّهُ إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 وَيَدْبِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
 ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
 رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
 عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا فَإِنَّا لِلَّهِ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه - تعالى - لما بين أنه أرسل محمدا - ﷺ - إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملتهم معهم . تصيرا له - ﷺ - على أذى قومه ، وبدأ - سبحانه - بقصة موسى فقال : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ... ﴾^(١) .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، ابن يصر ، ابن ماهيث ... وينتهي نسبه إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .

وكانت ولادة موسى - عليه السلام - في حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .
والمراد بالآيات في قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التى أيدى الله تعالى بها قال تعالى :
﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾^(١) .

وهى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجذب -
أى فى بواديهى ، والنقص من الثمرات - أى فى مزارعهى .

قال - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء
للناظرين ﴾^(٢) .

وقال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾^(٣) .

وقال - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾^(٤) .

ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد بالآيات هنا آيات التوراة التى أعطاها الله - تعالى -
لموسى - عليه السلام - .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أى : ملتبسا بها .
وهى كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التى
أجراها الله على يده - عليه السلام - وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة »^(٥) .

ويبدو لنا أنه لا مانع من حمل الآيات هنا على ما يشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة ،
فالكل كان لتأييد موسى - عليه السلام - فى دعوته .

« أن » فى قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ تفسيرية بمعنى أى : لأن فى الإرسال معنى القول
دون حروفه .

والمراد بقومه : من أرسل لهديتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وهم : بنو
إسرائيل وفرعون وأتباعه .

وقيل : المراد بقومه : بنو إسرائيل خاصة ، ولا نرى وجها لهذا التخصيص ، لأن رسالة

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .

(٥) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٦٨ .

موسى - عليه السلام - كانت لهم وفرعون وقومه .

والمعنى : وكما أرسلناك يا محمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكي يخرجهم - أيضا - من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . فالغاية التي من أجلها أرسلت - أيها الرسول الكريم - هي الغاية التي من أجلها أرسل كل نبي قبلك ، وهي دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وخص - سبحانه - موسى بالذكر من بين سائر الرسل . لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة الإسلامية .

وأكد - سبحانه - الاخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبي - ﷺ - منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ معطوف على قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ .

والتذكير : إزالة نسيان الشيء ، وعدى بالباء لتضمينه معنى الإنذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلؤه .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائهم إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغيام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى^(١) .

ومنهم من يرى أن المراد بها ، نقمه وبأساؤه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « وذكرهم بأيام الله » أى : وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر^(٢) .

ومنهم من يرى أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النعمة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أما قوله « وذكرهم بأيام الله » فاعلم أنه - تعالى - أمر موسى فى هذا المقام بشيئين ، أحدهما : أن يخرجهم من الظلمات إلى النور . والثانى : أن يذكرهم بأيام الله .

ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التي وقعت فيها .. ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٧ .

فالمعنى : عظمهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ، أن يذكرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسول .. والترهيب والوعيد . أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ، ممن كذب الرسل من الأمم السالفة ...

ثم قال : واعلم أن أيام الله في حق موسى - عليه السلام - منها ما كان أيام المحنة والبلاء ، وهى الأيام التى كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ، ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم ..^(١) .

وقال الآلوسى : « قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بنعمائه وبلائه ، كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنها - واختاره الطبرى ، لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتى من الكلام »^(٢) .

وما ذهب إليه الإمامان الرازى والآلوسى ، هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهى التى برزت فيها السراء أو الضراء بروزا ظاهرا ، كانت له آثاره على الناس الذين عاشوا فى تلك الأيام .

وبنو إسرائيل - على سبيل المثال - مرت عليهم فى تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم .

فالمعنى : ذكر ياموسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من جحد وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم إليه .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ يعود على التذكير بأيام الله .

والصبار : الكثير الصبر على البلاء ، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلا أو تركا . يقال : صبره عن كذا يصبره إذا حبسه .

والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ، والشكر : عرفان الإحسان ونشره والتحدث به ، وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ، لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٨٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٦٨ .

الله - تعالى - وقدرته وعلمه ، وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، وكثير الشكر على النعماء .

وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأنها هما المنتفعان بها وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .

وجمع - سبحانه - بينها ، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففي الحديث الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له »^(١) .

وقدم - سبحانه - صفة الصبر على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من قبيل الترك ، والتخلية مقدمة على التحلية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - قد امتثل أمر ربه فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم... ﴾

و«إذ» ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

والمراد بقوله : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ : تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنن التي امتن الله بها عليكم ، وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث عنها بالسننكم. فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .

« آل فرعون » حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب لملك مصر في ذلك الوقت ، كما يقال لملك الروم قيصر ..

ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهب أو الذهب في ابتغاء الشيء ، يقال : سامت الإبل فهي سائمة . أى : ذهبت في المرعى ، وسام السلعة : إذا طلبها وابتغها . وسامه خسفا ، إذا أذله واحتقره وكلفه فوق طاقته .

﴿ سوء العذاب ﴾ أشده . والسوء - بالضم - كل ما يدخل الحزن والغم على نفس الإنسان . وهو في الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوأى .

وقوله ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ من الاستحياء بمعنى الاستبقاء ، يقال : استحيا فلان فلانا
أى : استبقاه وأصله طلب له الحياة والبقاء .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - أو أيها المخاطب وقت أن قال موسى - عليه
السلام - لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : يا قوم ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾
أى : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ عليكم نعمة كثيرة من أبرزها أنه - سبحانه - أنجاكم
من آل فرعون الذين كانوا يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبحون أبناءكم
الصغار ، ويستبقون نساءكم ..

وجعل - سبحانه - النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه الأمر بتعذيب بنى
إسرائيل للتنبية على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً في إذقتهم سوء العذاب .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبني إسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهن كان
المقصود منه الاعتداء عليهن ، واستعمالهن في الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور
بقاء ذليل ، وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أى : ويبقونهن في الحياة مع الذل . ولذلك
عد من جملة البلاء ، أو لأن إبقاءهن دون البنين رزية في ذاته كما قيل :
ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنين^(١)

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث
وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم
في الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه
في البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾ لأن المقصود هنا
تعداد المحن التي حلت ببني إسرائيل ، فكان المراد بجملة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ نوعاً
منه ، وكان المراد بجملة ﴿ ويذبحون أبناءكم ﴾ نوعاً آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن
الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هي تمثل نوعاً آخر من العذاب الذي حل ببني
إسرائيل .

بخلاف قوله - تعالى - في سورة البقرة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾

بدون واو العطف . لأن الجملة الثانية بيان وتفسير للجملة الأولى . فيكون المراد من سوء العذاب في سورة البقرة تذيبح الأبناء واستحياء النساء .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ يعود إلى المذكور من النعم والنقم ، والبلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون في الخير والشر . قال - تعالى - ﴿ ونبلوكم بالخير والشر فتنة ﴾ .

أى : وفي ذلكم العذاب وفي النجاة منه امتحان عظيم لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدى بكم إلى الشقاء والهوان .

ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتخلف فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ..

وقوله : « تأذن » بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه ، إلا أن صيغة التفعّل تفيد المبالغة في الإعلام ، فيكون معنى «تأذن» : أعلم إعلاما واضحا بليغا لا التباس معه ولا شبهة .

واللام في قوله : ﴿ لئن شكرتم ﴾ موطنه للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعم الله - تعالى - واستعمالها في مواضعها التي أرشدت الشريعة إليها .

وقوله : « لأزيدنكم » ساد مسد جوابي القسم والشرط .

والمراد بالكفر في قوله : « ولئن كفرتم » كفر النعمة وجودها ، وعدم نسبتها إلى واهبها الحقيقي وهو الله - تعالى - كما قال قارون ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وعدم استعمالها فيما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق .

وجملة : ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ دليل على الجواب المحذوف لقوله ﴿ ولئن كفرتم ﴾ إذ التقدير : ولئن كفرتم لأعذبنكم ، إن عذابي لشديد .

قال الجمل : « وإنما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد ، لأن عادة الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد »^(١) .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه : يا قوم إن ربكم قد أعلمكم إعلاما واضحا بليغا مؤكداً بأنكم إن شكرتموه على نعمه ، زادكم من عطائه وخيره ومنته ، وإن

جحدتم نعمه وغمظتموها واستعملتموها في غير ما يرضيه ، محققها من بين أيديكم ، فإنه - سبحانه - عذابه شديد ، وعقابه أليم .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجبة للشكر ، والمحذرة من الجحود فقال :

وقد جاء في الحديث الشريف : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» .
وروى الإمام أحمد عن أنس قال : أتى النبي - ﷺ - سائل فأمر له بتمره فلم يأخذها - أو وحش بها أي : رماها - قال : وأتاه آخر فأمر له بتمره فقال السائل : سبحان الله !! ثمرة من رسول الله - ﷺ - فقال للجارية : إذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم إنما يعود عليهم ، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى - : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا ، فإن الله لغنى حميد ﴾ .

أي : وقال موسى - عليه السلام - لقومه : إن تجحدوا نعم الله أنتم ومن في الأرض جميعا من الخلائق ، فلن تضروا الله شيئا ، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه ، والمنحرف عن طريقه ، فإن الله - تعالى - لغنى عن شكركم وشكرهم ، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها .

ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك ، بعد أن شاهد منهم علامات الإصرار على الكفر والفساد ، وترجح لديه أنهم قوم لا ينفعمهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب ، ولمس منهم أنهم يبنون عليه أو على الله - تعالى - بطاعتهم فأراد بهذا القول أن يزرهم عن الإدلال بإيمانهم ، والمن بطاعتهم .

فالغرض الذي سبقت له الآية إنما هو بيان أن منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين ، وأن مضره الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين . أما الله - تعالى - فلن تنفعه طاعة المطيع ، ولن تضره معصية العاصي .

ففي الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري ، عن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : « يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر .^(١)

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد زحرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة ، التى ساقها الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه ، ويذكرهم بأيام الله ، وبسننه فى خلقه ، وبغناه عنهم ..

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم ، ومن المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال - تعالى - :

الرَّيَاتِكُمْ نَبُوءَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِءَ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ * قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
 لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤَنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

وَلَنَصْبِرْتَ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ ... ﴾ .
يرى بعض المفسرين أنه من تنمة كلام موسى - عليه السلام - فيكون المعنى :
أن موسى - عليه السلام - بعد أن ذكر قومه بأيام الله - تعالى - ، وبنعمه عليهم ،
وبسننه - سبحانه - في خلقه ..

بعد كل ذلك شرع في تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالكاذبين من قبلهم ، فقال لهم
- كما حكى القرآن عنه - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ .. ﴾ .

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة الرسول - ﷺ -
فيكون المعنى : أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله - ﷺ -
لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وبين - سبحانه - أن له ما في السموات وما في الأرض ،
وهدد الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله موسى لقومه ..

بعد كل ذلك وجه - سبحانه - الخطاب إلى مشركي مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم
فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾ .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : « يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، والمقصود
منه أنه - عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله - تعالى - على لسان موسى لقومه ، يذكرهم أمر القرون
الأولى . والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على

التقديرين ، إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول - ﷺ -^(١) .
 ومع أننا نؤيد الإمام الرازي في أن المقصود إنما حصول العبرة بأحوال المتقدمين إلا أننا نميل
 مع الأكثرين إلى الرأي الثاني ، لأن قوم الرسول - ﷺ - هم المقصودون قصداً أولاً
 بالخطاب القرآني ، ولأن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يرى أنه لم يرد ذكر في التوراة لقوم
 عاد وثمود ، فقد قال :

قال ابن جرير : « هذا من تمام قول موسى لقومه ... وفيها قال ابن جرير نظر والظاهر أنه
 خبر مستأنف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد قيل إن قصة عاد وثمود ليست في
 التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ، فلاشك حينئذ أن تكون هاتان
 القستان في التوراة^(٢) .

والاستفهام في قوله ﴿ ألم يأتكم ... ﴾ للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فقوم نوح بلغتهم
 أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذي كان مشهوراً بينهم ، وقوم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم
 من العرب ، ومسكنهم في بلادهم ، وهم يرون على ديار قوم صالح في أسفارهم إلى بلاد الشام
 للتجارة . والمراد بالذين من بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد
 وثمود ، كقوم إبراهيم وقم لوط وغيرهم .

وقوله : ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ أى : لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد
 وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى .

وقوله ﴿ والذين من بعدهم ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ خبره ، والجملة
 اعتراض بين المفسر - بفتح السين - وهو ﴿ نبا الذين من قبلهم ﴾ وتفسيره وهو ﴿ جاءتهم
 رسلهم بالبينات ﴾ .

والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين
 من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب ، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله - تعالى -
 وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذى جاء لسعادتكم ، لكى
 تنجوا من العذاب الأليم الذى حل بالظالمين من قبلكم .

وجملة ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ مستأنفة في جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما قصة
 هؤلاء الأقوام وما خبرهم ؟

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٨٨ طبعة دار الكتب العلمية - طهران .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٠ .

فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات الظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ... ﴾ .

بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم .

والضائر في «ردوا» و«أيديهم» و«أفواههم» تعود على الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات . وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون في معناها وجوها متعددة أوصلها بعضهم إلى عشرة أقوال :

منها : أن الكفار وضعوا أناملهم في أفواههم فعضوا غيظا وبغضا مما جاء به الرسل ، وقالوا لهم بغضب وضجر : إنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا به من معجزات ، فأغربوا عن وجوهنا ، واتركونا وشأننا .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام ابن جرير ، فقد قال : « وقوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ... ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ، فعضوا على أصابعهم تغيظا عليهم في دعائهم إياهم إلى مادعوههم إليه .. روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى : وأشبه هذه الأقوال عندى بالصواب في تأويل هذه الآية ، القول الذى ذكرناه عن عبدالله بن مسعود أنهم ردوا أيديهم في أفواههم ، فعضوا عليها غيظا على الرسل ، كما وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ فهذا هو الكلام المعروف ، والمعنى المفهوم من رد الأيدي إلى الأفواه^(١) .

ومنها : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم إشارة منهم إلى أنفسهم وإلى ما يصدر عنها ، وقالوا للرسل على سبيل التحدى والتكذيب . « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى : لا جواب لكم عندنا سوى ما قلناه لكم بألسنتنا هذه .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا القول الإمام الآلوسى ، فقد صدر الأقوال التى ذكرها به ، فقال ما ملخصه : قوله ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ أى : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به ، وقالوا لهم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى : على زعمكم ، وهى البينات التى

أظهرها حجة على صحة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلائها على صحة رسالتهم ..

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال : والذي يطابق المقام ، وتشهد له البلاغة : هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوي ، لأنهم حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، حيث جمعوا في الإنكارين : الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقدوا دعوتهم بالتكذيب...»^(١) .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا .

وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال : « وهذا التركيب لا أعهد مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ . يحتمل عدة وجوه أنهاها في الكشف إلى سبعة ، وفي بعضها بعد ، وأولها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل^(٢) .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم إهمالا لشأنهم .

وقد رجح الشوكاني هذا الاتجاه فقال ما ملخصه : « وقال أبو عبيدة - ونعم ما قال - هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول الرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رديده في فيه . وهكذا قال الأخفش ، واعترض على ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رديده في فيه ، إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقا وغيظا .. فإن صح ما ذكره أبو عبيدة والأخفش ف تفسير الآية به أقرب...»^(٣) .

وهذه الأقوال جميعها وإن كانت تتفق في أن الآية الكريمة ، قد أخبرت بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبون رسلهم من سوء أدب ..

إلا أننا نميل إلى ما ذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال في معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب ، ومنها قول الشاعر :

(١) تفسير الآلوسی ج ١٣ ص ١٧٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٩٦ .

(٣) راجع تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٩٧ ففيه ما يقرب من عشرة أقوال في معنى الآية .

ترون في فيه غش الحسو د حتى يعض على الأكفا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه^(١).

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ معطوف على قوله ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، فمعنى مريب : موقع في الريبة أى : في القلق والاضطراب .

أى : قال المكذبون لرسلم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبيئات . وإنا لفي شك كبير موقع في الريبة مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحداية الله ، وبإخلاص العبادة له ..

قال الجمل ما ملخصه : «فإن قيل : إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل .

ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون في صحة قولهم فكيف ذلك ؟

فالجواب : كأنهم قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل فإن لم نكن كذلك ، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم .

أو يقال : المراد بقولهم « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى بالمعجزات والبيئات ، وبقولهم :

﴿ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ وهو الإيمان والتوحيد .

أو يقال : إنهم كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكنت ...^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : ﴿ قالت رسلم أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. ﴾ .

والاستفهام في قوله ﴿ أفى الله شك ﴾ للتوبيخ والإنكار ، ومحل الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله - تعالى - وفي وحدانيته .

وقوله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شىء عن شىء ، ومنه فطر ناب البعير أى : طلع وظهر ، واستعمل في

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٤٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥١٦ .

الإيجاد والإبداع والخلق لاقتضائه التركيب الذى سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود .

والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله - تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة له شك ، مع أنه - سبحانه - هو ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعها ومبدع ما فيها على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق .. وهو - سبحانه - فضلا منه وكرما « يدعوكم » إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه « ليغفر لكم » بسبب هذا الإيمان « من ذنوبكم ويؤخركم » فى هذه الدنيا « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معلوم عنده تنتهى بانتهائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال « رحمة بكم » وأملا فى هدايتكم .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن يصل بهم انطاس البصيرة إلى الدرجة التى تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن الفطر شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شىء ، ويشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآلهة لاتنضج ولاتنفع .

وجملة ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ جىء بها كدليل على نفى الشك فى وجوده - سبحانه - وفى وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيميا ، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار .
وجملة « يدعوكم ... » حال من اسم الجلالة ، واللام فى قوله « ليغفر لكم من ذنوبكم » متعلقة بالدعاء .

أى : يدعوكم إلى الإيمان بنا لكى يغفر لكم .

قال الشوكانى ما ملخصه : « ومن » فى قوله « من ذنوبكم » قال أبو عبيدة : إنها زائدة ، ووجه ذلك قوله - تعالى - فى موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وقال سيبويه : هى للتبويض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ، وقيل التبويض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد - ﷺ - غفران جميعها لغيرهم ..
وقيل هى للبدل ، أى : لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ...^(١)
وقال الجمل : « ويحتمل أن يضمن « ويغفر » معنى يخلص أى : يخلصكم من ذنوبكم ،

ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها^(١) .
 وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا
 فأتونا بسلطان مبين ﴾ حكاية لرد آخر من الردود السيئة التي قابل بها المكذبون رسلهم .
 أى : قال الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة
 والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التي ورثنا
 عبادتها عن آباؤنا .. فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى بحجة
 ظاهرة تدل على صدقكم وتتسلط هذه الحججة بقوتها على نفوسنا وتجذبها إلى اليقين ، من
 السلاطة وهي التمكن من القهر .
 وكان هؤلاء الظالمين بقولهم هذا ، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما
 يكونون من الملائكة .

وكان ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا في زعم هؤلاء
 المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج محسوسة أخرى ، وهكذا المحجود العقلي ،
 والانطماس النفسى يحمل أصحابه على قلب الحقائق ، وإيثار طريق الضلالة على طريق
 الهداية .

وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا هذا السفه من أقوالهم بالمنطق
 الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله
 مين على من يشاء من عباده .. ﴾ .

أى : قال الرسل لمكذبيهم على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على
 أننا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن هذه المائلة بيننا وبينكم في البشرية ، لا تمنع من أن يتفضل
 الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعمه التي لا تحصى .
 فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلموا للمكذبين دعوهم المائلة في البشرية ،
 في أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهموهم بطريق
 الاستدراك ، أن المشاركة في الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، ولكنه
 - سبحانه - مين على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم ..

فالمقصود بالاستدراك دفع ما توهمه المكذبون ، من كون المائلة في البشرية تمنع اختصاص
 بعض البشر بالنبوة .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ مجازاة لأول مقاتلهم ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب ، لأن فيه إطماعا في الموافقة ، ثم كروا على قوهم بالإبطال فقالوا : ﴿ ولكن الله يمين على من يشاء من عباده ﴾ .

أى : إنما اختصنا الله - تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشرية غير ما نعمة لمشيئته - جل وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائية ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول عن « ولكن الله من علينا » ، إلى ما فى النظم الجليل منهم - عليهم السلام -^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ حكاية لرد الرسل على قول المكذبين لهم ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ .

أى : وقال الرسل للمكذبين من أقوامهم - أيضا - : وما صح وما استقام لنا نحن الرسل أن نأتيكم - أيها الضالون - بحجة من الحجج ، أو بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره لنا بالإتيان بما اقترحتم ، فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .

ثم أكد الرسل تمسكهم بالمضى فى دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه ، وتفويض الأمور إليه ، مع مباشرة الأسباب التى أمر - سبحانه - بمباشرتها .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليتوكل المؤمنون ، الصادقون ، دون أن يعأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين الصادقين .

فالجملته الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ، وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أوليا ، بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ .

أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله - تعالى - والحال أنه - عز وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، وهى طريق إخلاص العبادة له والاعتماد عليه وحده فى كل شئوتنا .

فالجملة الكريمة تدل على اطمئنانهم إلى سلامة مواقفهم في تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .

ثم أضافوا إلى ذلك تبييس أعدائهم من التأثير بأذاهم ، فقالوا ﴿ ولنصبرن على ما آذيتونا ﴾ .

أى : والله لنصبرن صبرا جميلا في حاضرننا ومستقبلنا - كما صبرنا في ماضينا - على إيذائكم لنا . والذي من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا ، ونفوركم من نصحننا ، واستهزاؤكم بنا ، ومحاربتكم لنا ..

ثم ختموا أقوالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات في وجه الباطل فقالوا ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم . وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى لا يعجزه شىء .

وتقديم الجار والمجرور في الجملة الكريمة وفيها يشبهها مؤذن بالحصر ، وأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصرا من غير الله - تعالى - .

وهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكمت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا في قوة وعزم وإصرار ثباتهم في وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء في طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات ..

ثم حكمت السورة بعد ذلك جانبا آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم ، وجانبا مما وعد الله به رسله - عليهم السلام - وجانبا من العذاب الذى أعده للظالمين فقال - تعالى - :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا

وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
 مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ
 وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن
 وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجكم من أرضنا ، أو لتعودن في ملتنا ... ﴾ حكاية لما هدد به رؤوس الكفر رسلمهم ، بعد أن أفحمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم ..

واللام في « لنخرجكم » هي الموطئة للقسم . و«أو» للتخيير بين الأمرين .
 أى : وقال الذين عتوا في الكفر - على سبيل التهديد - لرسلمهم ، الذين جاءوا هدايتهم ، والله لنخرجكم - أيها الرسل - من أرضنا ، أو لتعودن في ديننا وملتنا .
 قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الأنبياء - عليهم السلام - أنهم قد اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتقاد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا للأنبياء ولنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا » .
 والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة^(١) .
 والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ يفيد بظاهرة أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى الشيء بعد مفارقتة . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر ، فضلاً عن الشرك .
 وقد أجب عن ذلك بإجابات منها :

أن الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون ، الذين

كانوا قبل الإيمان بالرسول على دين أقوامهم ، فكأنهم يقولون لهؤلاء الأتباع : لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فيما أن تعودوا إليها وإما أن تخرجوا من ديارنا ، إلا أن رعوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسول من باب التغليب .

ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيراً ما يرد « عاد » بمعنى صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل يستدعى الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفة ، فيكون المعنى : لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا .

ومنها : أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسول كانت قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لسكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم ، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما قالوه .

وشبيه بهذه الآية قول قوم شعيب - عليه السلام - له ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ... ﴾^(١) .

وقول قوم لوط له ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾^(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم .. ﴾ بشارة عظيمة من الله - تعالى - لرسله ، ووعدهم بالنصر على أعدائهم ..
أى : فأوحى الله - تعالى - إلى الرسول - بعد أن قال لهم الكافرون - ما قالوا - :
أبشروا أيها الرسول ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ الذين هددوكم بالإخراج من الديار ، أو بالعودة إلى ملتهم ، ﴿ ولنسكننكم ﴾ - أيها الرسول - ﴿ الأرض ﴾ أى أرضهم ﴿ من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له .. » .

وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ على إضمار القول ، أى : قائلاً لنهلكن ، ويحتمل أن يكون جارياً مجرى القول لكونه ضرباً منه ، وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ مفعوله ..

وخص - سبحانه - الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من خلص للظلم^(٣) .

(١) سورة الأعراف الآية ٨٨ .

(٢) سورة النمل الآية ٥٦ .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٧٩ .

وأكد - سبحانه - إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلام القسم ونون التوكيد ..
زيادة في إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفي تثبيت قلوبهم على الحق ، وردًا على أولئك
الظالمين الذين أقسموا بأن يخرجوا الرسل من ديارهم ، أو يعودوا إلى ملتهم .

قال صاحب الكشاف : « والمراد بالأرض في قوله ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾
أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض
ومغارها ﴾ ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ ..

وعن النبي - ﷺ - : « من آذى جاره ورثه الله داره » .

ثم قال : ولقد عاينت هذا في مدة قريبة ، كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها
ويؤذيني فيه ، فبات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته ، فنظرت يومًا إلى أبناء خالي يترددون
فيها ، ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله - ﷺ -
وحدثتهم به ، وسجدنا شكرًا لله «^(١) .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ يعود إلى
ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم .
أى : ذلك الذى قضيت به كائن لمن خاف قيامى عليه ، ومراقبتى له ، ومكان وقوفه بين
يدى للحساب ، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصانى .

قال الجمل : « ومقامى فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقحم - وهو بعيد إذ الأسماء
لا تقحم ، أى ذلك لمن خافنى - الثانى : أنه مصدر مضاف للفاعل .

قال الفراء : مقامى مصدر مضاف لفاعله : أى قيامى عليه بالحفظ . الثالث : أنه اسم
مكان ، قال الزجاج : مكان وقوفه بين يدي للحساب «^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ واستفتحوا ﴾ من الاستفتاح بمعنى الاستنصار ، أى : طلب النصر
من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء للطلب .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. ﴾ وقوله - تعالى -
﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا .. ﴾ .

أو يكون ﴿ واستفتحوا ﴾ من الفتاحة بمعنى الحكم والقضاء ، أى : واستحكموا الله

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥١٨ .

- تعالى - وطلبوا منه القضاء والحكم ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على ﴿ فأوحى إليهم ربه ﴾ ، والضمير يعود إلى الرسل . والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم - عز وجل - أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قالوا : ومما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن محيصن ﴿ واستفتحوا ﴾ - بكسر التاء - أمراً للرسل .

ومنهم من يرى أن الضمير يعود للفريقين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن كل فريق دعا الله أن ينصره على الفريق الآخر .

وقوله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ بيان لنتيجة الاستفتاح . والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره ، المدعى لمنزلة أو لشئ ليس من حقه .

والعنيد : مأخوذ من العند - بفتح النون - بمعنى الميل . يقال : عند فلان عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا مال عنها . وعند فلان عن الحق ، إذا خالفه . والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : واستفتحوا فنصر الله - تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أى : متجبر في نفسه معاند للحق ، كما قال - تعالى - ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقيه في العذاب الشديد ﴿^(١)﴾ .

وفي الحديث : « يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد .. »^(٢) .

وقال - سبحانه - ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من السياق ، للتبنيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلا بد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

وقوله ﴿ من ورائه جهنم ﴾ صفة لجبار عنيد .

(١) سورة ق الآيات من ٢٤ - ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٣ .

والمراد بقوله : ﴿ من ورائه ﴾ أى : من أمامه ، أو من بعد هلاكه .
 أى : من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفره وظلمه .
 قال صاحب أضواء البيان : قوله ﴿ من ورائه جهنم ... ﴾ الورا هنا بمعنى الأمام كما هو
 ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ أى : وكان
 أمامهم ملك .. ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعى وقومى تميم والفلاة ورائيا
 أى : والفلاة أماميا .

وقال بعضهم : قوله ﴿ من ورائه ﴾ أى من بعد هلاكه ، ومنه قول النابغة :
 حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
 أى : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر وهو الحق^(١) .
 وعلى أية حال فإن الجملة الكريمة تدل على أن جهنم تنتظر هذا الجبار العنيد ، وترصد له ،
 وتتبعه حيث كان ، بحيث لا يستطيع الفرار منها ، أو الهرب عنها .

وجملة « ويسقى من ماء صديد » معطوفة على مقدر ، أى : من ورائه جهنم يلقي فيها
 مذوءاً مدحوراً ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ، هو الصديد ، أى ما يسيل
 من أجساد أهل النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن
 رؤيته . وهو يدل أو عطف بيان من ماء .

وقوله ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. ﴾ بيان لحالة هذا الجبار العنيد عند تعاطيه الصديد .
 والتجرع : تكلف الجرغ وهو بلع الماء ، وفعله - كسمع ومنع - .
 ويسيفه : من السوغ وهو انحذار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول . يقال : ساغ الشراب
 سوغاً وسواغاً ، إذا كان سهل المدخل .

أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمرارته وقبحه ، ولا يقارب أن يسيغه فضلاً
 عن الإساءة . بل يغص به فيشره بعد عناء ومشقة جرعة عقب جرعة « .
 وقوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ معطوف على
 قوله ﴿ يتجرعه ﴾ لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٣ ص ١٠٦ للشيخ محمد أمين الشنتيطى .

أى : وتأتيه الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ، ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو بيت فيستريح من هذا الشقاء والعذاب ، ومن وراء كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما هو فيه من نكال .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ (٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق تصويراً مؤثراً ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لأعمال الكافرين فى حبوطها وذهابها يوم القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله الشيطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعدّه الله للمؤمنين الصادقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا دَأَسَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
 مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضُّلُّلُ البَعِيدُ ﴿١٨﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ
 يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
 ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

(١) سورة فاطر الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأعلى الآيات ١١ - ١٣ .

مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا
 أَجْرِنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ
 لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ
 فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
 بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
 أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّةٌ
 فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه - تعالى - لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة ، بين في هذه الآية وهي قوله - تعالى - ﴿ مثل الذين كفروا برههم .. ﴾ . أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشيء منها . وعند هذا يظهر كمال خسرانهم ، لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً »^(١) .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمثاله مضر به بمرده ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

والمراد بأعمال الذين كفروا في الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به في الدنيا من أعمال حسنة

كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .
والرماد : ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقى من الخشب أو الحطب بعد احتراقها .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : « وقوله : ﴿ مثل الذين كفروا ... ﴾ فيه أوجه للإعراب : أحدها وهو مذهب سيويه : أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيها يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله ﴿ أعماهم كرماد .. ﴾ مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم ..؟ فقيل : كيت وكيت .

والثاني : أن يكون « مثل » مبتدأ و « أعماهم » مبتدأ ثان ، و « كرماد » خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول^(١) .

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا في حيوطها وذهاياها وعدم انتفاعهم بشيء منها في الآخرة ، كحال الرماد المكسد الذى أتت عليه الرياح العاصفة ، فمحقته وبددته ، ومزقته تمزيقاً لا يرجى معه اجتماع .

فالأية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع في كل ، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تصير هباء منثوراً ، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله - تعالى - .

ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف - مع أن العصف شدة الريح - للمبالغة في وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك ، كما يقال : يوم حار ويوم بارد ، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منها .

وقوله - سبحانه - ﴿ لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ﴾ بيان للمقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرُونَ يوم القيامة ، على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثواباً ، أو تخفف عنهم عذاباً .

قال الألوسى : « وفي الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يا رسول

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٠ .

الله . إن ابن جدعان في الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »^(١) .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « هذا مثل ضربه الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعموها وهم أحوج ما كانوا إليها ...

كما قال - تعالى - ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾^(٢) .
وكما قال - تعالى - ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾^(٣) .
واسم الإشارة في قوله ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أي : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشيء منها ، هو الضلال البعيد .
أي : البالغ أقصى نهايته ، والذي ينتهي بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .
ووصف - سبحانه - الضلال بالبعد ، لأنه يؤدي إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(٤) .

والخطاب في قوله ﴿ ألم تر .. ﴾ لكل من يصلح له بدون تعيين . والاستفهام للتقرير . والرؤية مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتفكير والتأمل في ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسی ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ألم تر ... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن لا يكون كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر في ذلك حتى أجرى مجرى المثل في هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه

(١) تفسير الآلوسی ج ١٣ ص ١٨٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١١٦ .

لا ينبغي أن يخفى عليه ، وأنه ينبغي أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب ...»^(١) .

والمعنى ؛ ألم تعلم - أيها العاقل - أن الله - تعالى - ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ . أى : خلقها بالحكمة البالغة المنزهة عن العيب ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ، وهو - سبحانه - ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أى - يهلككم أيها الناس ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيها من أجرام عظيمة ، يكون على خلق غيرها أقدر ، كما قال - تعالى - ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .. ﴾^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(٣) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن تولوا يبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾^(٤) .
وقوله - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾^(٥) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الأتباع والمتبوعين ... فقال - تعالى - : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ... ﴾ .

وقوله ﴿ وبرزوا ﴾ من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء الواسع ، الذى يظهر فيه الناس بدون استتار . أى : وخرج الكافرون جميعاً من قبورهم يوم القيامة ،

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٦٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٥٧ .

(٣) سورة فاطر الآيات من ١٥ - ١٧ .

(٤) سورة محمد الآية ٣٨ .

(٥) سورة النساء الآية ١٣٣ .

وظهروا ظهوراً لا خفاء معه ، لكي يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم في الدنيا .
وقال - سبحانه - ﴿ ويرزوا ﴾ بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة ،
للتنبية على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .

وعبر - سبحانه - بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم
كانوا في الدنيا يستترون عن العيون عند اجتراحهم السيئات ويظنون أن ذلك يخفى على
الله - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين في هذا الموقف العصيب فقال :
﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية
الإرادة ، فهانوا وذلوا ..

قال هؤلاء الضعفاء ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون
أتباعهم إلى طريق الغي والضلال .

﴿ إنا كنا لكم ﴾ - أيها السادة - ﴿ تبعاً ﴾ جمع تابع كخادم وخدم .
أى : إنا كنا في الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، في تكذيب الرسل ، وفي كل
ما تريدونه منا .

والاستفهام في قوله - سبحانه - ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾
للتفريع والتفجع .

ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

قال الشوكاني : « يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع »^(١) .
أى : فهل أنتم - أيها المستكبرون - دافعون عنا شيئاً من عذاب الله النازل بنا ، حتى
ولو كان هذا الشيء المدفوع قليلاً ؟ إن كان في إمكانكم ذلك فاظهروه لنا ، فقد كنتم في الدنيا
سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين « من » في « من عذاب الله » وبينه في
« من شيء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء

الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكون للتبويض معا بمعنى : هل انتم مغنون عنا بعض شيء ، هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله «^(١)» .

ثم حكى - سبحانه - رد المستكبرين على المستضعفين فقال : ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم .. ﴾ .

أى : قال المستكبرون - بضيق وتحسر - فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله - تعالى - إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم » إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعا أنفسنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ . والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله .

يقال : جزع فلان يجزع جزعا وجزوعا ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا . والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشيء يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أى : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لا يحيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : « قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله - تعالى - ، تعالوا نيك وتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبورا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾^(٢) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٨ .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم .. ﴾ والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .

قال الفخر الرازى : « وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى . ولاسيا وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول .. »^(١) .

والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ لما قضى الأمر ﴾ أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، كل فريق فى المكان الذى أعده الله تعالى له . والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم . تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجوا من العذاب الذى سيحل بأتباعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ : الصدق والوفاء بما وعدكم به على ألسنة رسله .

والمراد بالإخلاف فى قوله ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال - تعالى - : ﴿ يعدهم ويعنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾^(٢) . وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى إن الله - تعالى - وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق ، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعدا باطلا بأنه لا بعث ولا حساب .. فأخلفتكم ما وعدتكم به ، وظهر كذبي فيما قلته لكم . ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ ..

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار . فالاستثناء فى قوله « إلا أن دعوتكم » استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٠ .

قال الجمل : « وفي هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ، لأن دعاءه ليس من جنس السلطان وهو الحجة البينة، والثاني : أنه متصل لأن القدرة على حمل الانسان على الشيء تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوسوس إليه . فهو نوع من التسلط »^(١) .

وقوله ﴿ فلا تلموني ولوموا أنفسكم ﴾ زيادة في تأنيبهم وفي حسراتهم على انقيادهم له .
أي : فلا تلموني بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذي جاءكم من عند ربكم ، وما لك أمركم .

ثم ينفذ يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السيء فيقول : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ﴾ . أي : ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه من عذاب - أيضا - فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ..

قال القرطبي ما ملخصه : « والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره .. قال أمية بن أبي الصلت :

ولا تجزعا إني لكم غير مصرخ وليس لكم عندي غناء ولا نصر

ويقال : صرخ فلان أي استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة ..

ومنه : استصرخني فلان فأصرخته ، أي استغاث بي فأغثته ..^(٢) .

وجملة « إني كفرت بما أشركتمون من قبل .. » مستأنفة ، لإظهار المزيد من التنصل والتبري من كل علاقة بينه وبينهم .

و « ما » في قوله « بما أشركتمون » الظاهر أنها مصدرية ..

قال الآلوسی ما ملخصه : « وأراد بقوله ﴿ إني كفرت ﴾ أي : إني كفرت اليوم » بما أشركتمون من قبل » .

أي : من قبل هذا اليوم ، يعنى في الدنيا و « ما » مصدرية و « من قبل » متعلق بأشركتمون .

والمعنى : إني كفرت بإشراككم إياي الله - تعالى - في الطاعة ، لأنهم كانوا يطيعون

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص ٥٢٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج٩ ص ٣٥٧ .

الشیطان فیما یزینہ لهم من عبادة غیر الله - تعالیٰ - ، ومن أفعال الشر ..
ومراد اللعین : أنه إن كان إشراککم لی مع الله - تعالیٰ - ، هو الذی أطمعکم فی نصرتی
لکم .. فإنی متبرئ من هذا الشرک ، فلم یبق بینی وبينکم علاقة .. فالکلام محمول علی إنشاء
التبری منهم یوم القيامة ..

ثم قال : وجوز غیر واحد أن تكون « ما » موصولة بمعنى من ، والعائد محذوف ، و« من
قبل » متعلق بکفرت . أی : إنی کفرت من قبل - حین أبيت السجود لآدم - بالذی
أشركتمونیہ . أی : جعلتمونی شریکا له فی الطاعة وهو الله - عز وجل - ..
والکلام علی هذا إقرار من اللعین بقدم کفره ، وبسبب خطیئته فلا یمکنه أن یقدم لهم عوناً أو
نصراً ...^(١) .

وجملة « إن الظالمین لهم عذاب أليم » فی موقع التعلیل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء کلام
من جهته - تعالیٰ - : لیبیان سوء عاقبة الظالمین .

ویجوز أن تكون من تنمة کلام إبلیس - الذی حکاه القرآن عنه - ، ویكون الغرض منها
قطع أطماعهم فی الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنین فی کل زمان ومکان إلى عداوة الشیطان لهم
وتحذیرهم من اتباع خطواته .

قال الشیخ الشوکانی - رحمه الله - ما ملخصه : « لقد قام الشیطان للکافرین فی هذا
الیوم مقاما یقصر ظهورهم ، ویقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعیده التي کان یعدهم
بها فی الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله - تعالیٰ - وأنه أخلفهم ما وعدهم به ..
ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا یتفق مع العقل ، لعدم الحجة التي لا ید للعاقل
منها فی قبول قول غیره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم یکن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن
أیسر شیء مما یتمسک به العقلاء .

ثم نعی علیهم رابعا : ما وقعوا فیہ ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن یلوموا أنفسهم ، لأنهم
هم الذین قبلوا الباطل البحت الذی لا یلتبس بطلانه علی من له أدنی عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة .. بل هو مثلهم فی الوقوع فی البلیة ..

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، وهو إشراكه مع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .
 وإذا كانت جملة « إن الظالمين لهم عذاب أليم » من تنمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه «^(١)» .

وبعد هذا الحديث عن سوء عاقبة الكافرين .. بين - سبحانه - ما أعدده للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :
 ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها يباذن ربهم ﴾ .

أى : وأدخل الله - تعالى - فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجري من تحت ثنارها وأشجارها الأنهار ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا لاموت معه ولا تعب .

وجاء التعبير بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وتعجيل البشارة ، وقوله ، ﴿ يباذن ربهم ﴾ أى : بإرادته - سبحانه - وتوفيقه وهدايته لهم .

وقوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ أى : تحيتهم فى الجنة سلام لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .

كما قال - تعالى - : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾^(٢) .

وكما قال - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم .. ﴾^(٣) .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاما ﴾^(٤) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين كفروا ، وسوء أحوالهم يوم القيامة ، كما بينت حسن عاقبة المؤمنين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

(١) تفسير الشوكانى ج ٣ ص ١٠٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .

(٣) سورة الرعد الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٥ .

ويعد أن بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لها زيادة في التوضيح والتقرير فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
 كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾
 تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
 كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
 ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
 اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

والخطاب في قوله ﴿ ألم تر ... ﴾ للرسول - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة في العلم الناشئ عن التأمل والتفكر في ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسی ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر ... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر في ذلك حتى أجرى مجرى المثل في ذلك ، بأن شبه من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب ^(١) .

والمثل : يطلق على القول السائر المعروف لماتلة مضربه لمورده .

وقوله ﴿ مثلا ﴾ انتصب على أنه مفعول به لضرب ، وقوله ﴿ كلمة ﴾ بدل منه أو عطف بيان .

والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإسلام ، وما يترتب عليها من عمل صالح ، وقول طيب . قال الآلوسى ما ملخصه : « والمراد بالشجرة الطيبة - المشبه بها - النخلة عند الأكثرين وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد ..

وأخرج عبدالرزاق والترمذى وغيرهما عن شعيب بن الحجاب قال : كنا عند أنس ، فأتينا بطبق عليه رطب ، فقال أنس لأبي العالية : كل يا أبا العالية ، فإن هذا من الشجرة التى ذكرها الله - تعالى - فى كتابه ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ﴾ .

وأخرج الترمذى - أيضا - والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال : أتى رسول الله - ﷺ - - بقناع من بسر - أى بطبق من تمر لم ينضج بعد فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة .. قال : هى النخلة » .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .

وأخرج ابن جرير وابن ابى حاتم أنها شجرة فى الجنة ، وقيل كل شجرة مثمرة كالنخلة ، وكشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك ثم قال :

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغى العدول عنه «^(١) .

وكان الإمام الآلوسى بهذا القول يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .

وقد رجح ابن جرير - أيضا - أن المراد بها النخلة فقال ما ملخصه : « واختلفوا فى المراد بالشجرة الطيبة ، فقال بعضهم : هى النخلة .. وقال آخرون : هى شجرة فى الجنة ..

وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال هى النخلة ، لصحة الخبر عن رسول الله - ﷺ - فى ذلك ..^(٢) .

والمعنى : ألم تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله - تعالى - مثلا ، ووضعه فى موضعه اللائق به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر ، حيث شبه - سبحانه -

(١) تفسر الآلوسى ج ١٣ ص ١٩١ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٣ ص ١٣٧ .

الكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام ، بالشجرة الطيبة ، أى النافعة فى جميع أحوالها ، وهى النخلة .

ثم وصف - سبحانه - هذه الشجرة بصفات حسنة فقال : ﴿ أصلها ثابت ﴾ .
 أى : ضارب بعروقه فى باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان .
 ﴿ وفرعها ﴾ أى : أعلاها وما امتد منها من أغصان ، مشتق من الافتراع بمعنى الاعتلاء
 ﴿ فى السماء ﴾ أى : فى جهة السماء من حيث العلو والارتفاع ، وهذا مما يزيد الشجرة جمالا
 وحسن منظر .

والمراد بالأكل فى قوله - تعالى - ﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. ﴾ المأكول ، وهو
 الثمر الناتج عنها .

والمراد بالحين : الوقت الذى حدده الله - تعالى - للانتفاع بثمارها من غير تعيين بزمان
 معين من صباح أو مساء ..

قال الشوكافى ما ملخصه : « قوله ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ كل وقت ﴿ بإذن ربها ﴾
 بإرادته ومشيبته » .

وقيل : المراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى
 جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين .
 وقيل : كل غدوة وعشية ، وقيل : كل شهر ..

وهذه الأقوال متقاربة . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان
 وكثيره^(١) .

وهذا نرى أن الله - تعالى - قد وصف هذه الشجرة بأربع صفات ، أولها : أنها طيبة ،
 وثانيها : أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعها فى السماء ، ورابعها : أنها تؤتى ثمارها كل حين
 بإذن ربها .

وهذه الأوصاف تدل على فخامة شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوام نفعها كما
 تدل على أن المشبه وهو الكلمة الطيبة ، مطابق فى هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة
 الطيبة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ بيان للحكمة التى

(١) تفسير فتح القدير للشوكافى ج ٣ ، ص ١٠٦ .

من أجلها سيقى الأمثال ، وهى التذكر والتفكير والاعتبار . أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم - سبحانه - بتذكره إذ ضرب الأمثال تقرب للبعيد ، وتقريب للقريب ، وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة . وبعد أن بين - سبحانه - مثال كلمة الإيمان ، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهى كلمة الكفر .

﴿ كشجرة خبيثة ﴾ أى قبيحة لا نفع فيها ، ولا خير يرجى منها .
 ﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ أى : اقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها وجذورها من سطحها .
 يقال : اجتثت الشيء اجتثانا ، إذا اقتلعته واستأصلته ، وهو افتعال من لفظ الجثة وهى ذات الشيء .

وقوله : ﴿ ما لها من قرار ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشيء بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .
 أى : ليس لها استقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .
 والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبى - ﷺ - قال : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى الحنظلة...»^(١) .

وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ... وقيل كل شجر لا يطيب له ثمر ، وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة لم تخلق على الأرض ..
 وقال : ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

وقوله سبحانه - : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ بيان لفضل الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين ، ولحسن عاقبتهم ..
 والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .
 والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤلهم فى القبر وسؤلهم فى مواقف القيامة .
 والمعنى : يثبت الله - تعالى - الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لا شك فيه ،

في الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .

ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم في القبر وعند سؤالهم في مواقف يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أى : الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة .. « فى الحياة الدنيا » أى يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم ، فلا يزالون عند الفتنة .. « وفى الآخرة » أى بعد الموت وذلك فى القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفى مواقف القيامة ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ، ولا تدهشهم الأهوال .. » (١) .

هذا ، وقد ساقه الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث التى وردت فى سؤال القبر ، منها قوله : قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرنى علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله - ﷺ - قال : « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (٢) .

وقوله : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثانى وهم الكافرون .
أى : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان .
﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فعله ، عن تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكنود والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات ، وساق لهم ألواناً من الآلاء التى تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٩٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ من ص ٤١٣ إلى ص ٤٢٦ طبعة دار الشعب .

﴿۲۸﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
 وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿۲۸﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ
 الْقَرَارُ ﴿۲۹﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿۳۰﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿۳۱﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿۳۲﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿۳۳﴾
 وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
 لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿۳۴﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا .. ﴾ الخطاب فيه
 للنبي - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب .
 والاستفهام للتعجب من أحوالهم الذميمة .
 وبدلوا من التبديل بمعنى التغيير والتحويل ، والمراد به : وضع الشيء في غير وضعه ومقابلة
 نعم الله بالجحود وعدم الشكر .

ونعمة الله التي بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - ﷺ - الذي أرسله الله - تعالى -
 لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما تشمل إكرام الله لهم - أي أهل مكة - بأن جعلهم في

حرم آمن ، وجعلهم سدنة بيته .. ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « قوله : ﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا .

وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمة ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد - ﷺ - فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقي الكفر طوقا في أعناقهم .. » (١) .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « قال البخارى قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .. ﴾ حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس قال : هم كفار أهل مكة .

ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح . وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله - تعالى - بعث محمدا - ﷺ - رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ؛ فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار .. » (٢) .

وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير - رحمهما الله - هو الذى تظمنن إليه النفس ، لأن مشركى مكة ومن سار على شاكلتهم تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة .

وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات في أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، بنو أمية وبنو مخزوم .. ولكن هذه الروايات بعيدة عن الصواب ، ولاسند لها من النقل الصحيح » (٣) .

وقوله ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ معطوف على « بدلوا » لبيان رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم في الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك . والبوار : الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع بوارا ، إذا كسد ، إذ الكاسد في حكم الهالك .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦ .

(٣) راجع تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٤٦ .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين ، الذين قابلوا نعم الله عليهم بالكفر والجحود ، وكانوا سببا في إنزال قومهم دار المهلاك والحسran .

وقوله - سبحانه - ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ بيان لدار بوارهم وهلاكهم أى : جهنم يصلون حرها وسعيرها ، وبئس القرار قرارهم فيها .

فقوله « جهنم » عطف بيان لدار البوار ، وقوله « يصلونها » في محل نصب حال من « جهنم » يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها ، وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته .

والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس القرار هى أى : جهنم .

وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة فقال ﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله .. ﴾ .

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشيء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه .

وأصله من ند البعير يند - بكسر النون - ندا - بالفتح - إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

وقوله « ليضلوا » قرأ الجمهور - بضم الياء - من أضل غيره إذا جعله ضالا .

أى : أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابلة نعمة الله بالجحود ، وإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا لله - تعالى - أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ليضلوا » - بفتح الياء - أى : ليستمروا في ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله - تعالى - كانوا ضالين ، وجعلوا ذلك فاستمروا في ضلالهم توها منهم أنهم على صواب .

قال صاحب الكشاف : قرئ « ليضلوا » بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن

غرضهم في اتخاذ الأنداد فما معنى اللام ؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام في قولك ، جنتك لتكرمنى نتيجة المجيء ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب « (١) » .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أمر منه - عز وجل - لنبيه - ﷺ - بأن يهددهم بهذا المصير الأليم .

والتمتع بالشيء : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع به من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله « قل تمتعوا » بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران للنعم « فإن مصيركم إلى النار » أى : مرجعكم إليها ليس إلا . ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لا يقلعون عنه . جعل - سبحانه - الأمر بمباشرة مكان النهى عن قربانه ، إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار .

فجعله « فإن مصيركم إلى النار » تعليل للأمر بالتمتع ، وفيه من التهديد مالا يقادر قدره . ويحوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه السياق كأنه قيل : قل تمتعوا فإن دمت على ذلك فإن مصيركم إلى النار .

والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان : اصنع ماشئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف ^(١) .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ ^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ تمتعهم قليلا ثم نظطهم إلى عذاب غليظ ﴾ ^(٣) .

وقوله - تعالى - ﴿ لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ ^(٤) .

وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بتهديد الكافرين ، وجه - سبحانه - أمرا آخر له - ﷺ - طلب منه فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار في التزود من العمل الصالح فقال - تعالى - : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق ﴾ .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٨ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .

قال الجمل : « قوله « قل لعبادى ... إلخ » مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أى : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا - وقوله: يقيموا وينفقوا مجزومان فى جواب الأمر ، أى : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا .. يقيموا وينفقوا .

ويجوز أن يكون قوله « يقيموا وينفقوا » مجزومين بلام الأمر المقدره .
أى : ليقموا الصلاة ولينفقوا ... »^(١) .

والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها فى أوقاتها المحددة لها ، مع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص النية عند أدائها لله - تعالى - .

والمراد بالإِنفاق : ما يشمل جميع وجوه الإِنفاق الواجبة والمستحبة .

والمراد بقوله « سرا وعلائية » ما يتناول عموم الأحوال فى الحرص على بذل المال فى وجوهه المشروعة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المخلصين ، الذين آمنوا إيماننا حقا ، قل لهم : ليستزيدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإِنفاق مما رزقناهم فى جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم فى السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه تقتضى ذلك ، وأن يجعلوها فى العلن إذا كانت المنفعة فى ذلك .

والإضافة فى قوله « لعبادى » للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين .

ولم تعطف هذه الآية الكريمة على ما قبلها وهو قوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ للإيدان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنها .

ومفعول « ينفقوا » محذوف والتقدير ينفقوا شيئا مما رزقناهم .

وعبر - سبحانه - بمن المفيدة للتبعيض فى قوله ﴿ مما رزقناهم ﴾ للاشعار بأنهم قوم عقاء يبتعدون فى إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملا بقوله - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾^(٢) .

وهذا التعبير - أيضا - يشعر بأن هذا المال الذى بين أيدي عباده - سبحانه - ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن ينفقوا جزءا منها فى وجوه الخير .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧ .

وقوله ﴿ سرا وعلانية ﴾ منصوبان على الحال أى : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر أى : إنفاق سر وإنفاق علانية .

وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين فى معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه أستر للمتصدق عليه .

وقوله - سبحانه - ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ مؤكداً لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإِنفاق فى وجوه الخير بدون تردد أو إبطاء .

ولفظ « خلال » مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت ، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقلة وقلال .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثرُوا ويدأبُوا على إقامة الصلاة وعلى الإِنفاق بما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه ، وإنما الذى يقبل وينفع فى هذا اليوم هو العمل الصالح الذى قدمه المسلم فى دنياه .

فالجملة الكريمة تفيد حضاً آخر على إقام الصلاة وعلى الإِنفاق عن طريق التذكير للناس بهذا اليوم الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات .

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التى يتقرب بها المسلم إلى خالقه - سبحانه - ، والتى تكون سبباً فى رفع الدرجات يوم القيامة .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - ﴿ يأيا الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ ^(١) .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألواناً من نعمه التى تستوجب شكره وطاعته وإخلاص العبادة له والتى تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته فقال - تعالى - ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض .. ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى أوجد السموات والأرض وما فيها من أجرام علوية وسفلية بدون مثال سابق .

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ، لما فى ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أنظار

المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه .

وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له - سبحانه - والمشركون لا يمتازون في ذلك ، كما قال - تعالى - ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . ﴾ .

وقوله ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .. ﴾ بيان للون آخر من ألوان نعمه على خلقه .

والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أو جهة العلو .

أى : وأنزل - سبحانه - من المزن أو السحاب « ماء » كثيرا هو المطر ، « فأخرج به » أى بذلك الماء « من الثمرات » المتعددة الأنواع والأصناف « رزقا لكم » تنتفعون به ، وتتمتعون بجبال منظره وطيب مطعمه .

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف فى الشىء والانتفاع به .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل لفظه فى الواحد والجمع ، والظاهر أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - « لتجرى » بناء التأنيث .

أى : « وسخر لكم » - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن ألهمكم صنعها ، وأقدركم على استعمالها « لتجرى فى البحر » إلى حيث تريدون « بأمره » وإذنه ومشيتته ، لا بإذنكم ومشيتكم ، إذ لو شاء - سبحانه - لقلبها بكم .

« وسخر لكم الأنهار » بأن جعلها معدة لا تتفاعدكم ، إذ منها تشربون ، ومنها تسقون دوابكم وزروعكم ، وعليها تسيرون بسفنكم إلى حيث تريدون .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أى : دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرها أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا .

وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأبا ، إذا دام عليه وجد فيه .

و « وسخر لكم الليل والنهار » بأن جعلها متعاقبين ، يأتي أحدهما في أعقاب الآخر ،
فتنتفون بكل منها بما يصلح أحوالكم .

فالليل تنتفون به في راحتكم ومناكم .. والنهار تنتفون به في معاشكم وطلب رزقكم
قال - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ﴾ .

تم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه .. ﴾ .
أى : وأعطاكم - فضلا عما تقدم من النعم - بعضا من جميع ما سألتموه إياه من نعم ،
على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته التي لا تعلمونها كما قال - تعالى - ﴿ ولو بسط الله
الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خير بصير ﴾ ^(١) .

قال الجمل ما ملخصه « قوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى : كل نوع أو كل
صنف سألتموه أى : شأنكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه بالفعل .
وفي « من » قولان : أحدهما أنها زائدة في المفعول الثاني ، أى : آتاكم كل ما سألتموه .
والثاني أن تكون تبعية أى : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه وعلى هذا فالمفعول محذوف
تقديره : وآتاكم شيئا من كل ما سألتموه ، وهو رأى سيوييه .. » ^(٢) .

وجملة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مؤكدة لمضمون ما قبلها .
أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد ، لن تستطيعوا ذلك لكثرة
هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .
والإحصاء : ضبط العدد وتحديد ، مأخوذ من الحصى وهو صغار الحجارة لأن العرب كانوا
يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للخطأ .

قال ابن كثير : « يخبر - سبحانه - عن عجز العباد من تعداد نعمه فضلا عن القيام
بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب - رحمه الله - : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ،
وإن نعم الله أكثر من يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين .

وفي صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « لك الحمد غير مكفى - أى
لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفى غيره - ولا مودع - أى متروك حمده - ،

(١) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٦ .

ولا مستغنى عنه ربنا - أى هو الذى يحتاج إليه الخلق .. «^(١) .

والمراد بالإنسان فى قوله ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ نوع معين منه وهو الكافر كما فى قوله - تعالى - ﴿ ويقول الإنسان أئذا ماتت لسوف أخرج حيا ﴾ .

أى : إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله - تعالى - ، ولشديد الجحود والكفران لنعمة - عز وجل .

ويرى بعضهم أن المراد بالإنسان هنا الجنس .

قال الشوكانى : قوله - سبحانه - : ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان . وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ « كفار » أى : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها ، غير شاكر لله عليها كما ينبغى ويجب عليه «^(٢) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثنت بأمر النبى - ﷺ - بأن يحض المؤمنين الصادقين على الاستزادة من إقامة الصلاة ومن الانفاق فى سبيل الله .

ثم ساقَت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، وهذه النعم هى خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك فى البحار ، وتسخير الأنهار ، وتسخير الشمس والقمر دائبين ، وتسخير الليل والنهار . ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس - فضلا عن كل ذلك - جميع ما يحتاجون إليه فى مصالحهم على حسب حكمته ومشيتته ولكن الناس - إلا من عصم الله - لا يقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم . ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهى دعوات تدل على شكره لخالفه ، وحسن صلته به ، ورجائه فى فضله .. فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١١٠ .

وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
 أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
 فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
 رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ
 الْمُحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ
 تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ شَاكِرُونَ ﴿٣٧﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نَخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا نَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
 عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾
 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
 دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

هذه بعض الدعوات التي ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه قبولاً حسناً .

وفي هذه الدعوات تنبيه لمشركي مكة الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا للدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - في إيمانه وشكره لخالقه - سبحانه - .

و « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .
و « رب » منادى بحرف نداء محذوف أى : يارب .
والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم مناديا ربه : يارب اجعل هذا البلد
ذا أمن وسلام واستقرار .

وقدم إبراهيم - عليه السلام - في دعائه نعمة الأمن على غيرها - لأنها أعظم أنواع
النعم ، ولأنها إذا فقدتها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمر الدين أو
الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنغصات والمزعجات .

قال الإمام الرازى : « سئل بعض العلماء : الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال الأمن أفضل ،
والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يمنعها هذا الكسر من
الإقبال على الرعى والأكل والشرب .

ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربط بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن
الأكل والشرب ، وقد تستمر على ذلك إلى أن تموت .
وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم
الجسد ، ^(١) .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « يذكر الله - تعالى - فى هذا المقام - محتجا على
مشركى مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - بأن مكة إنما وضعت أول ما وضعت
على عبادة الله - تعالى - وحده ، وأن إبراهيم قد تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة
بالأمن وقد استجاب الله له فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف
الناس من حولهم .. ﴾ وقال - تعالى - ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى
للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .. ﴾ ^(٢) .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة
﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ... ﴾ ^(٣) .
وبين قوله هنا ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا .. ﴾ ؟ .

(١) تفسر الفخر الرازى ج ١١ ص ١٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٦ .

(٣) الآية ١٢٦ .

قلت : قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وسأل في الثاني أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمان ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا .. » (١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ واجنبي وبني أن نعبد الأصنام ﴾ حكاية لدعوة أخرى من الدعوات التي تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه - سبحانه - .

وقوله « واجنبي » بمعنى وأبعدني مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا ، إذا أبعدته عنه ، وجعلته في جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .

والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم من تناسل معهم .

والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذي كان مشركو العرب يصنعونه من الحجر ونحوه لكي يعبدوه من دون الله .

والمعنى : أسألك ياربي أن تجعل مكة بلدا آمنا ، كما أسألك أن تعصمني وتعصم ذريتي من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك الكريم .

وقد بين - سبحانه - في آيات أخرى ، أنه قد أجابه في بعض ذريته دون بعض .

ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتها محسن وظالم لنفسه مبين ﴿ (٢) .

وقوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس .. ﴾ تعليل لسؤال إبراهيم ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .

أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمني وبني عن عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا في إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم .

وأسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا في إضلال كثير من الناس ، فكانها أضلتهم ، فنسبة الإضلال إليها مجازية من باب نسبة الشيء إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها .

وقوله - سبحانه - ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ بيان لموقفه - عليه السلام - من المهتدين والضالين .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٩ - ١١٣ .

أى : فمن تبعنى من الناس فى دينى وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ، فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت - سبحانه - لاتسأل عما تفعل وغيرك يسأل .

فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيها برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .

وشبيه هذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾^(١) .

هذا ، ولا نرى وجهها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه السلام - « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » كان قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر الشرك ، أو أن المراد بالمعصية هنا مادون الشرك ، أو أن المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .. »^(٢) .

نقول : لا نرى وجهها لكل ذلك ، لأن الجملة الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم ، وإن شاء عذبهم .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها إبراهيم إليه - تعالى - فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذرىتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة .. ﴾ .

و « من » فى قوله « من ذرىتى » للتبويض .

والوادى : هو المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .

والمعنى : ياربنا إنى أسكنت بعض ذرىتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ، بواد غير ذى زرع قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له بسوء توقيرا وتعظيما ، والذى جعلته مثابة للناس وأمنا ، وفضلته على غيره من الأماكن .

وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ بيان للباحث الذى دفعه لإسكان بعض ذريته فى هذا المكان الطيب .

(١) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٣ ص ٢١١ .

أى : يا ربنا إني أسكنتهم ، هذا المكان ليتفرغوا لإقامة الصلاة في جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك .

فالإلام في قوله « ليقيموا » للتعليل وهي متعلقة بأسكنت .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، ولكمال العناية بشأنها . قال القرطبي : « تضمنت هذه الآية ان الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى : أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه .

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي - ﷺ - ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول - ﷺ - بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة » .

وقد روى عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - حديث ابن الزبير «^(١) .

وقوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا ﴾ دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور .

والأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب والنفوس .

والمراد بالناس في قوله « من الناس » المؤمنون منهم ، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته .

وتهوى إليهم : أى تسرع إليهم ، يقال : هوى - يهوى - يهوى - بكسرها - إذا أسرع في السير ، ومنه قولهم : هوت الناقة تهوى هويًا ، إذا عدت عدوا شديداً . والأصل فيه أن يتعدى بالإلام ، وعدى هنا بإلى لتضمنه معنى تميل وتسرع .

أى : ياربنا إني تركت بعض ذريتي في جوار بيتك ، فأسألك يا إلهي أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم وديعة في جوار بيتك من

الثمرات المختلفة ما يغنيهم لعلهم بهذا العطاء الجزيل يزدادون شكرا لك ، ومسارة في طاعتك وعبادتك .

وقال - سبحانه - ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ولم يقل فاجعل الناس تهوى إليهم ، للإشارة إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكأن المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام - فجعل البيت الحرام حرما آمنا تحبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثارا ، وفي أى بلد من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذى زرع - وهى اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته عجيب ، متعنا الله بسكنى حرمة ، ووفقنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم ، وزرقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم » (١) .

هذا ، وقد ساق الإمام الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته في هذا المكان فقال ما ملخصه : « وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ما حدث بين إبراهيم وبين زوجته سارة ، وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها - لإبراهيم عليه السلام - فتزوجها فولدت له إسماعيل . فهدت الغيرة في قلب سارة ولم تصبر على بقائها معها فأخرج إبراهيم - عليه السلام - هاجر وابنها إلى أرض مكة ، فوضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتركننا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس .

قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثانية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت - وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية - ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع .. ﴾ الآية .

ثم إنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما فى السقاء حتى إذا نفذ ما فى السقاء ، عطشت

وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط - أى يتلوى ويتمرغ - من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا . فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ولذلك سعى الناس بينها سبعا .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا صوتا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتغرف منه فى سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله .

ثم إنه مرت بهما رقيقة من جرهم ، فرأوا طائراً عائفا - أى يتردد على الماء ولا يمضى - فقالوا : لا طير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصده وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركينا فى ماتك نشرك فى ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل - عليه السلام - زوجته امرأة منهم «^(١)» .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

أى : ياربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار ؛ وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شىء من الأشياء ، سواء أكان هذا الشىء فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرها .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، والإفعلمه - سبحانه - محيط بكل ما فى هذا الكون .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - فى مقام شكره لله على نعمه فقال - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربه لسميع الدعاء ﴾ .

(١) تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٢١٢ وراجع صحيح البخارى تجد فيه حديثا طويلا فى هذا الموضوع .

والحمد هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة ، وأل فيه للاستغراق أى : جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه - سبحانه - إذ هو الخالق لكل شيء .

وعلى في قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازى وهى بمعنى مع . أى : وهب لى مع الكبر الذى لا تحصل معه فى الغالب ولادة .

وإساعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم ، وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا - ، أما إسحاق فكان أصغر من إساعيل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره . قال الفخر الرازى : « اعلم أن القرآن يدل على أنه - تعالى - إنما أعطى إبراهيم - عليه السلام - هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن . وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إساعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنى عشرة سنة .

وإنما ذكر قوله « على الكبر لأن المنته بهبة الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة فى هذه السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم » (١) .

وجملة « إن ربي لسميع الدعاء » تعليل لجملة « وهب لى على الكبر » أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائى وتقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى . فالسميع هنا مستعمل على سبيل المجاز فى إجابة المطلوب ، ومنه قول القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه . وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أى : إن ربي يسمع دعائى ويحبيبه .

ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه ، بما حكاه الله عنه فى قوله : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿ .

أى : يارب اجعلنى من عبادك الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، واجعل من ذريتى من يقتدى بى فى ذلك ، كما أسألك يارب أن تتقبل دعائى ولا تخيبنى فى مطلوب أسألك إياه .

كما أسألك - يا إلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى وللمؤمنين ، يوم يقوم الناس

للحساب ، فتجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .
 وإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن والده عدو لله . فلما تبين له ذلك
 تبرأ منه . قال - تعالى - ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما
 تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ (١) .

أما أمه فقال بعضهم : إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون : لعلها توفيت قبل نبوته .
 وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه ،
 والتي تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ، ورقة العاطفة ، وحسن
 المراقبة ، وحب الخير لغيره .

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - أحوال الظالمين يوم القيامة ، وأقوالهم في ذلك اليوم
 الشديد ، وردة - تعالى - عليهم ، والأسباب التي أدت إلى خسرتهم .. فقال - تعالى - :

وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ

الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءٌ ﴿٤٥﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِجْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ

الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم

مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا

لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ

مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾
 فَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ مَخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
 وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغَشَّى
 وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
 بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

قال الإمام القرطبي: « قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ... ﴾ هذا تسلية للنبي - ﷺ - بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى : اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم . وتعزية للمظلوم » (١) .

والخطاب في « ولا تحسبن » ، يجوز أن يكون للنبي - ﷺ - لقصد زيادة تبيينه على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح للخطاب .

والغفلة : سهو يعترى الإنسان بسبب قلة تيقظه وانتباهه ، ولاشك أن ذلك محال في حق الله - تعالى - ، لذا وجب حمل المعنى على أن المراد بالغفلة هنا : ترك عقاب المجرمين .

والمراد بالظالمين : كل من انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أوليا مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول في الإسلام الذى جاءهم به النبي - ﷺ - .

وقوله ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ استئناف وقع تعليلا للنهي السابق .
 وقوله « تشخص » من الشخصوص بمعنى رفع البصر يدون تحرك يقال شخص شخص بصر فلان -
 من باب خضع - فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف من شدة الخوف والفرع .
 والمعنى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن الله تعالى - تارك عقاب هؤلاء
 الظالمين ، الذين كذبوك في دعوتك ، كلا لن يترك الله - تعالى - عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم
 هائل شديد ، هو يوم القيامة الذي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من هول
 ما يرونه .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوال هؤلاء الظالمين في هذا اليوم العظيم فقال - تعالى - :
 ﴿ مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأقنعتهم هواء ﴾ .
 والإهطاع السير السريع . يقال : أهطع فلان في مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع في سيره
 بذلة واضطراب .

و « مقنعي رؤوسهم » أي رافعيها ، يقال : أهطع فلان رأسه ، إذا نصبه ورفعته دون أن
 يلتفت يمينا أو شمالا . وقيل ، إقناع الرؤوس طأطأتها وانكاسها .
 الأفتنة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم في هذا اليوم مسرعين إلى الداعي بذلة
 واستكانة ، كإسراع الأسير الخائف ، رافعي رؤوسهم إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى
 ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء .

« لا يرتد إليهم طرفهم » أي : لا تتحرك أجفان عيونهم ، بل تبقى مفتوحة بدون حراك
 لهول ما يشاهدونه في هذا اليوم العصيب .

« وأقنعتهم هواء » أي : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، بحيث لا تعي شيئا من شدة
 الفرع والذهشة ، ومنه قولهم في شأن الأحمق والجبان قلبها هواء ، أي لا رأى فيه ولا قوه .
 وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه في معنى فارغة أو خالية .

قال - تعالى - ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا .. ﴾ أي خاليا من كل شيء إلا من
 التفكير في شأن مصير ابنتها موسى - عليه السلام - .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين في هاتين الآيتين بجملة من الصفات
 الدالة على فزعهم وحيرتهم .

وصفهم أولا بشخص الأَبْصَارِ ، ووصفهم ثانيا بالإسراع إلى الداعي في ذلة وانكسار ،

ووصفهم ثالثا برفع رموسهم في حيرة واضطراب ، ووصفهم رابعا : بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجل ، ووصفهم خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أى شىء بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴾ من باب التشبيه البليغ الذى حذف فيه الأداة ، والتقدير : وقلوبهم كالهواء فى الخلو من الإدراك من شدة الهول .

ثم أمر الله تعالى - رسوله - ﷺ - أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم ، وأن يقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم فقال - تعالى - ﴿ وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ .. ﴾ .
والإنذار : التخويف من ارتكاب شىء تسوء عاقبته .

والمراد بالناس : جميعهم ، وقيل المراد بهم الكفار . ويبدو أن الأول أرجح لأن الإنذار يكون للمؤمن كما يكون للكافر ، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح فينجو من العقاب ، والكافر لا يستجيب فيحل عليه العذاب .

والمعنى : وخوف - أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة ، ومرهم بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم فيقولون : ياربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى ، وآخر أعمالنا وحسابنا إلى وقت قريب ، حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التى تأمرنا بإخلاص العبادة لك ، وأن نتبع رسلك فى كل ما أمرنا به وتندارك ما فرطنا فيه من أعمال الدنيا .

قال الجمل : « وقوله : « يوم يأتِيهِمُ الْعَذَابُ ... » مفعول ثان لأنذر على حذف المضاف ، أى : أنذرهم أهواله وعظائمه ، فهو مفعول به لا مفعول فيه ، إذ لا إنذار فى ذلك اليوم ، وإنما الإنذار يقع فى الدنيا .. »^(١) .

وإنما اقتصر - سبحانه - على ذكر إتيان العذاب فى هذا اليوم . مع كون الثواب يحصل فيه - أيضا - لأن المقام مقام تهديد وزجر ، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائمه .
وجمع لفظ الرسل فقال : « نجب دعوتك وتتبع الرسل » للإشارة إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٣٢ .

وفي معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ومنها قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴾ لعل أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾^(٢) .

وجملة « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » مقول لقول محذوف .
والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون ياربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتنبع الرسل .

يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيث : أو لم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالأيمان المغلظة في الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقون في قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .
قال - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾^(٣) .
فالجملة الكريمة تحكى رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب ، حتى يزدادوا حزنا على حزنهم ، وحسرة على حسرتهم .

وجملة « مالكم من زوال » جواب القسم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ... ﴾ معطوف على « أقسمتم .. » .

والمراد بالسكنى : الحلول في أماكن الظالمين لوقت يكفى للاتعاض والاعتبار وكفار قريش كانوا يرون بديار قوم ثمود في رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحيطون رحالهم هناك ، كما كانوا يرون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن .

والمعنى : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنكم مالكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وحللتهم في مساكن القوم الظالمين .

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة السجدة آية ١٢ .

(٣) سورة النحل آية ٣٨ .

« وتبين لكم » عن طريق المشاهدة وتواتر الأخبار .

« كيف فعلنا بهم » من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وفسوقهم .

« وضربنا لكم الأمثال » بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طريق كتابنا ، وعلى لسان رسولنا محمد - ﷺ - .

وكان من الواجب عليكم بعد كل ذلك أن تعتبروا وتتعظوا وتتوبوا إلى رشدكم ، وتدخلوا في الإسلام ، ولكنكم كنتم قوما فاسقين ، سائرين على نهج هؤلاء المهلكين في الكفر والفجور ، فالיום ذوقوا العذاب بسبب جحودكم للحق في الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فينا أوقعنا بهم مزدجر لكم . قال - تعالى - ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾^(١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من ألوان عراقتهم في الكفر والجحود فقال : ﴿ وقد مكروا مكروا وعند الله مكروهم ﴾ .

والمكر : تبينت فعل السوء بالغير وإضاره ، مع إظهار ما يخالف ذلك . وانتصب « مكروهم » الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .

أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العبر فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول - ﷺ - مكروهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول - ﷺ - .

وقوله ﴿ وعند الله مكروهم ﴾ أى : وفى علم الله - تعالى - الذى لا يغيب عنه شيء مكروهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - ﴿ وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال ﴾ قرأ الجمهور « لتزول » - بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها . بأن مضرة وجوبا ، و « إن » فى قوله ﴿ وإن كان مكروهم ﴾ نافية بمعنى ما .

والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكروهم الشديد الذى اشتروا به ، وفى علم الله - تعالى - مكروهم ، وما كان مكروهم - مها عظم واشتد - لتنتقل منه الجبال من أماكنها ، لأنه

لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم تدميراً .
وعلى هذه القراءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم وبمكرهم ، وبيان أن ما يضررونه من سوء ليس خافياً على الله - تعالى - ولن يزلزل المؤمنين في عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الرواسي في ثباته ورسوخه .
وقرأ « الكسائي » « لتزول » - بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها - و « إن » مخففة من الثقيلة .

فيكون المعنى : وقد مكروا مكروهم ، وعند الله مكروهم ، وإن مكروهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها ، لو كان لها أن تزول أو تنقلع .

وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة الكريمة التعظيم والتهويل من شأن مكروهم ، وأنه أمر شنيع أو شديد في بابه ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه ، وتتشق الأرض . وتخر الجبال هداً .. ﴾^(١) .
وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله .. ﴾ تفریع على ما تقدم من قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .. ﴾ وتأکید لتسلیة الرسول - ﷺ - ولتثبيت يقينه .

وقوله « مخلف » اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثانٍ لتحسب والمراد بالوعد هنا : ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .

قال - تعالى - ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد ﴾^(٢) .

وقال - تعالى - ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز ﴾^(٣) .
والمعنى : لقد وعدناك - أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذي سيحل بهم يوم القيامة ، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثاني

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة الآية ٢١ .

لمخلف - وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله - ؟
قلت : قدم الوعد ليعلم أنه - سبحانه - لا يخلف الوعد أصلاً ، كقوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

ثم قال « رسله » ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه .. ^(١) .

ويرى صاحب الانتصاف أن تقدم المفعول الثاني هنا ، إنما هو للإيذان بالعناية به ، لأن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله - تعالى - به على ألسنة رسله ، فكان المهم في هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره ^(٢) .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ تعليل للنهي عن الحساب المذكور .
والعزيز : الغالب على كل شيء .

أى : إن الله - تعالى - غالب على كل شيء ، وذو انتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، ومادام الأمر كذلك فأخلاف الوعد منتف في حقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العلامات التي تدل على قرب قيام الساعة فقال - تعالى - : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ .
والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره أذكر .

وقوله « تبدل » من التبديل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبديل لها قد يكون في ذواتها كما في قوله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا بأياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .. ﴾ ^(٣) .

وقد يكون في صفاتها كقولك « بدلت الحلقة خاتما » وقد يكون فيها معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال : « وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدى ، عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله - ﷺ - عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض .. ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط .

وفي رواية أنه - ﷺ - قال لها : « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي ،

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٢) حاشية الانتصاف على الكشاف ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٦ .

ذاك أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم ^(١) .

والمعنى : اذكر - أيها العاقل - لتتعتظ وتعتبر يوم يتغير هذا العالم المهود بعالم آخر جديد ، يأتي به الله - تعالى - على حسب إرادته ومشيئته ويوم يخرج الخلائق جميعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على أعمالهم . من الله - تعالى - الواحد الأحد ، الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

وختمت الآية الكريمة بهذين الوصفين لله - تعالى - للرد على المشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه في العبادة ، ويتوهمون أن هذه الآلهة سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ .

وقوله « مقرنين » جمع مقرن ، وهو من جمع مع غيره في قرن ووثاق واحد يربطان به . والأصفاد : جمع صفة - بفتح الفاء - وهو القيد الذي يوضع في الرجل ، أو الغل - بضم الغين - الذي تضم به اليد والرجل إلى العنق .

والسرايل : جمع سرايل وهو القميص .

والقطران : مادة حارة تنته شديدة الاشتعال تصلى بها جلود الإبل الجربي ، ليزول الجرب منها . أى : وترى - أيها العاقل - المجرمين في هذا اليوم العسير عليهم « مقرنين في الأصفاد » أى : قد قرن بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه في الكفر وفي الفسوق وفي العصيان ، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد والقيود والأغلال .

قال - تعالى - ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم .. ﴾ ^(٢) .

أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم ، وشارب الخمر مع شارب الخمر . ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - ﴿ فوريك لنحشرتهم والشياطين ثم لنحشرتهم حول جهنم جثيا ﴾ ^(٣) .

هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون في الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا

(٢) سورة مريم الآية ٦٨ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٧ .

(٢) سورة الصافات الآية ٢٢ .

في عقابهم ، بل يضاف إليه أن ملابسهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعته ، وقبح لونه ، وتن ربحه ، وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تملوها وتحيط بها النار التي تستعر بأجسادهم المسريلة بالقطران .

وخص - سبحانه الوجوه بغشيان النار لها ، لكونها أعز موضع في البدن وأشرفه .
وقوله - سبحانه - ﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت .. ﴾ متعلق بحذوف ، والتقدير :
فعل ما فعل - سبحانه - من إثابة المؤمنين ، ومعاقبة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه
من خير أو شر ، دون أن يظلم ربك أحدا .

وقوله ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أى : إنه - سبحانه - سريع المحاسبة لعباده ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كالنفس الواحدة .

قال - تعالى - ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .. ﴾^(١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿ هذا بلاغ للناس لينذروا به
وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما أنزله الله - تعالى - من قرآن في هذه السورة وفي غيرها . و « بلاغ » مصدر بمعنى التبليغ .

والإنذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور والآثام .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شيء ، والمراد بها العقول .

أى : هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه عليك يا محمد ، فيه التبليغ الكافي لهداية الناس ،
وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان ، وفيه ما يجعلهم يعلمون عن طريق
توجيهاته وهداياته ودلائله ، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، وفيه ما يجعل أصحاب
العقول السليمة يتعظون ويعتبرون ، فيترتب على ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة .
وخص - سبحانه - بالتذكر أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن
الكريم ، أما غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل .

وقد رتب - سبحانه - في هذه الآية الكريمة ، وسائل الدعوة إلى الحق ترتيباً عقلياً
حكيماً ، فبدأ بالصفة العامة وهى التبليغ ، ثم تثنى بما يعقب ذلك من إنذار وتخويف ، ثم تلت بما
ينشأ عنها من العلم بوحدانىة الله - تعالى - ، ثم ختم الثناء على أصحاب العقول السليمة

الذين ينتفعون بما يسمعون وبما يبصرون .

قال الإمام الرازي : « هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ، ولا منقبة له ، إلا بسبب عقله ، لأنه - تعالى - بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب ... »^(١) .

وبعد : فهذه سورة إبراهيم - عليه السلام - وهذا تفسير لها .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعا لنا يوم نلقاه - تعالى - .

كما أسأله - عز وجل - أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، وناقعة لعباده والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،
د . محمد سيد طنطاوي

المدينة المنورة مساء الجمعة ٤ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٢ هـ ٢٩ من يناير سنة ١٩٨٢ م .

فهرس إجمالى لتفسير سورة يونس - عليه السلام -

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	٥ - ٧
١	الر تلك آيات الكتاب الحكيم	١٢
٢	أكان للناس عجبا	١٥
٣	إن ربكم الله الذى خلق	٢٠
٤	إليه مرجعكم جميعا	٢٣
٥	هو الذى جعل الشمس ضياء	٢٥
٦	إن فى اختلاف الليل والنهار	٢٧
٧	إن الذين لا يرجون لقاءنا	٢٨
٨	أولئك مأواهم النار	٢٩
٩	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٢٩
١٠	دعواهم فيها سبحانك	٣٠
١١	ولو يعجل الله للناس الشر	٣٢
١٢	وإذا مس الإنسان	٣٥
١٣	ولقد أهلكتنا القرون	٣٧
١٤	ثم جعلناكم فئات	٣٨
١٥	وإذا تتلى عليهم	٣٩
١٦	قل لو شاء الله	٤٠
١٧	فمن أظلم ممن افترى	٤٢
١٨	ويعبدون من دون الله	٤٢
١٩	وما كان الناس إلا أمة	٤٤
٢٠	ويقولون لولا أنزل	٤٦
٢١	وإذا أذقنا الناس	٤٧
٢٢	هو الذى يسيركم فى البر والبحر	٤٩

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحات
٢٣	فلما أنجاهم إذا هم يبيغون	٥١
٢٤	إنما مثل الحياة الدنيا كماء	٥٤
٢٥	والله يدعو إلى دار السلام	٥٧
٢٦	للذين أحسنوا الحسنى	٥٧
٢٧	والذين كسبوا السيئات	٥٩
٢٨	ويوم نحشرهم جميعا	٦٠
٢٩	فكفى بالله شهيدا	٦٢
٣٠	هنالك تبلو كل نفس	٦٢
٣١	قل من يرزقكم من السماء	٦٢
٣٢	فذلكم الله ربكم الحق	٦٤
٣٣	كذلك حققت كلمة ربك	٦٥
٣٤	قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق	٦٥
٣٥	قل هل من شركائكم من يهدي	٦٧
٣٦	وما يتبع أكثرهم إلا ظنا	٦٨
٣٧	وما كان هذا القرآن	٧٠
٣٨	أم يقولون افتراه	٧٢
٣٩	بل كذبوا بما لم يحيطوا	٧٣
٤٠	ومنهم من يؤمن به	٧٤
٤١	وإن كذبوك فقل لي	٧٥
٤٢	ومنهم من يستمعون إليك	٧٥
٤٣	ومنهم من ينظر إليك	٧٥
٤٤	إن الله لا يظلم الناس	٧٦
٤٥	ويوم يحشرهم	٧٦
٤٦	وإما نرينك بعض	٧٩
٤٧	ولكل أمة رسول	٨٠
٤٨	ويقولون متى هذا الوعد	٨٠
٤٩	قل لا أملك لنفسي	٨١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٥٠	قل رأيتم إن أتاكم	٨١
٥١	أنتم إذا ما وقع آمنتم به	٨٣
٥٢	ثم قيل للذين ظلموا	٨٣
٥٣	ويستنبئونك أحق هو	٨٤
٥٤	ولو أن لكل نفس ظلمت	٨٥
٥٥	ألا إن لله ما في السموات والأرض	٨٦
٥٦	هو يحيى ويميت	٨٧
٥٧	يأبها الناس قد جاءكم	٨٨
٥٨	قل بفضل الله وبرحمته	٨٩
٥٩	قل رأيتم ما أنزل الله	٩٠
٦٠	وما ظن الذين يفترون	٩١
٦١	وما تكون في شأن وما تتلو	٩٢
٦٢	ألا إن أولياء الله	٩٤
٦٣	الذين آمنوا وكانوا	٩٥
٦٤	لهم البشرى في الحياة	٩٦
٦٥	ولا يحزنك قولهم	٩٧
٦٦	ألا إن لله من في السموات	٩٨
٦٧	هو الذى جعل لكم	١٠٠
٦٨	قالوا اتخذ الله ولدا	١٠٠
٦٩	قل إن الذين يفترون	١٠١
٧٠	متاع في الدنيا ثم إلينا	١٠١
٧١	واتل عليهم نبأ نوح	١٠٢
٧٢	فإن توليتم فما سألتكم	١٠٦
٧٣	فكذبوه فنجيناها ومن معه	١٠٧
٧٤	ثم بعثنا من بعده رسلا	١٠٨
٧٥	ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون	١١٠
٧٦	فلما جاءهم الحق من عندنا	١١١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٧٧	قال موسى أتقولون	١١٢
٧٨	قالوا أجتئنا لتلفتنا	١١٣
٧٩	وقال فرعون انتوني	١١٥
٨٠	فلما جاء السحرة	١١٥
٨١	فلما ألقوا قال موسى	١١٥
٨٢	ويحق الله الحق بكلماته	١١٦
٨٣	فما آمن لموسى إلا ذرية	١١٦
٨٤	وقال موسى يا قوم	١١٩
٨٥	فقالوا على الله توكلنا	١٢٠
٨٦	ونجنا برحمتك من القوم	١٢٠
٨٧	وأوحينا إلى موسى وأخيه	١٢٠
٨٨	وقال موسى ربنا	١٢٢
٨٩	قال قد أجيبت دعوتكما	١٢٥
٩٠	وجاوزنا ببني إسرائيل	١٢٦
٩١	الآن وقد عصيت قبل	١٢٧
٩٢	فاليوم نتجيك بيدك	١٢٨
٩٣	ولقد بوأنا بني إسرائيل	١٢٩
٩٤	فإن كنت في شك	١٣٠
٩٥	ولا تكونن من الذين كذبوا	١٣٢
٩٦	إن الذين حقت عليهم	١٣٢
٩٧	ولو جاءتهم كل آية	١٣٢
٩٨	فلولا كانت قرية آمنت	١٣٣
٩٩	ولو شاء ربك لآمن	١٣٦
١٠٠	وما كان لنفس أن تؤمن	١٣٦
١٠١	قل انظروا ماذا في السموات	١٣٧
١٠٢	فهل ينتظرون إلا مثل	١٣٧
١٠٣	ثم نتجى رسلنا والذين آمنوا	١٣٨

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٤	قل يأيها الناس إن كنتم	١٣٩
١٠٥	وأن أقم وجهك للدين	١٤٠
١٠٦	ولا تدع من دون الله	١٤١
١٠٧	وإن يمسك الله بضر	١٤١
١٠٨	قل يأيها الناس قد جاءكم	١٤٢
١٠٩	واتبع ما يوحى إليك واصبر	١٤٢

فهرس إجمالى لتفسير سورة هود - عليه السلام -

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
	تعريف بسورة هود	١٤٧
١	الر . كتاب أحكمت آياته	١٥٦
٢	ألا تعبدوا إلا الله	١٥٨
٣	وأن استغفروا ربكم	١٥٨
٤	إلى الله مرجعكم	١٦٠
٥	ألا إنهم يثنون صدورهم	١٦٠
٦	وما من دابة فى الأرض	١٦٢
٧	وهو الذى خلق السموات والأرض	١٦٤
٨	ولئن أخرنا عنهم العذاب	١٦٧
٩	ولئن أذقنا الانسان	١٦٩
١٠	ولئن أذقناه نعماء	١٧٠
١١	إلا الذين صبروا	١٧١
١٢	فلعلك تارك بعض	١٧١
١٣	أم يقولون افتراه	١٧٣
١٤	فإن لم يستجيبوا لكم	١٧٤
١٥	من كان يريد الحياة الدنيا	١٧٦
١٦	أولئك الذين ليس لهم	١٧٦
١٧	أفمن كان على بينة من ربه	١٧٨
١٨	ومن أظلم ممن افترى	١٨٢
١٩	الذين يصدون عن سبيل الله	١٨٤
٢٠	أولئك لم يكونوا معجزين	١٨٥
٢١	أولئك الذين خسروا أنفسهم	١٨٦
٢٢	لا جرم أنهم فى الآخرة	١٨٦

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٢٣	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	١٨٦
٢٤	مثل الفريسيين كالأعمى	١٨٧
٢٥	ولقد أرسلنا نوحا	١٨٩
٢٦	ألا تعبدوا إلا الله	١٩٠
٢٧	فقال الملأ الذين كفروا	١٩٠
٢٨	قال يا قوم أرأيتم	١٩٢
٢٩	ويا قوم لا أسألكم	١٩٤
٣٠	ويا قوم من ينصرفي من الله	١٩٥
٣١	ولا أقول لكم عندي خزائن الله	١٩٦
٣٢	قالوا يا نوح قد جادلتنا	١٩٧
٣٣	قال إنما يأتيكم به الله	١٩٨
٣٤	ولا ينفعكم نصحي إن أردت	١٩٨
٣٥	أم يقولون افتراه	١٩٩
٣٦	وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن	٢٠٠
٣٧	واصنع الفلك بأعيننا	٢٠١
٣٨	ويصنع الفلك	٢٠٢
٣٩	فسوف تعلمون من يأتيه	٢٠٣
٤٠	حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور	٢٠٣
٤١	وقال اركبوا فيها	٢٠٧
٤٢	وهي تجري بهم في موج كالجبال	٢٠٨
٤٣	قال سأوى إلى جبل	٢٠٨
٤٤	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	٢٠٩
٤٥	ونادى نوح ربه	٢١٢
٤٦	قال يا نوح إنه ليس	٢١٣
٤٧	قال رب إني أعوذ بك	٢١٥
٤٨	قيل يا نوح اهبط	٢١٥
٤٩	تلك من أنباء الغيب	٢١٦

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٢٢٠ وإلى عاد أخاهم هودا	٥٠
٢٢٢ ويا قوم لا أسألكم	٥١
٢٢٣ ويا قوم استغفروا ربكم	٥٢
٢٢٤ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة	٥٣
٢٢٤ إن نقول إلا اعتراك	٥٤
٢٢٥ من دونه فكيدوني جميعا	٥٥
٢٢٦ إني توكلت على الله	٥٦
٢٢٧ فإن تولوا فقد أبلغتكم	٥٧
٢٢٨ ولما جاء أمرنا نجينا هودا	٥٨
٢٢٨ وتلك عاد جحدوا	٥٩
٢٢٩ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة	٦٠
٢٣٠ وإلى ثمود أخاهم صالحا	٦١
٢٣٣ قالوا يا صالح قد كنت	٦٢
٢٣٣ قال يا قوم أرايتم إن كنت	٦٣
٢٣٤ ويا قوم هذه ناقة الله	٦٤
٢٣٥ فمقروها فقال تمتعوا	٦٥
٢٣٦ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا	٦٦
٢٣٦ وأخذ الذين ظلموا	٦٧
٢٣٦ كأن لم يغنوا فيها	٦٨
٢٣٧ ولقد جاءت رسلنا	٦٩
٢٤٠ فلما رأى أيديهم	٧٠
٢٤٠ وامرأته قائمة فضحكت	٧١
٢٤١ قالت يا ويلتى أألد	٧٢
٢٤١ قالوا أتعجبين من أمر الله	٧٣
٢٤٢ فلما ذهب عن إبراهيم	٧٤
٢٤٣ إن إبراهيم لحليم	٧٥
٢٤٤ يا إبراهيم أعرض عن هذا	٧٦

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٧٧	ولما جاءت رسلنا لوطا	٢٤٥
٧٨	وجاءه قومه يهرعون إليه	٢٤٧
٧٩	قالوا لقد علمت مالنا	٢٤٩
٨٠	قال لو أن لى بكم قوة	٢٥٠
٨١	قالوا يا لوط إنا نرسل ربك	٢٥٠
٨٢	فلما جاء أمرنا	٢٥٢
٨٣	مسومة عند ربك	٢٥٢
٨٤	وإلى مدين أخاهم شعيبا	٢٥٤
٨٥	ويا قوم أوفوا المكيال	٢٥٨
٨٦	بقية الله خير لكم إن كنتم	٢٥٨
٨٧	قالوا يا شعيب أصلاتك	٢٥٩
٨٨	قال ياقوم أرايتم	٢٥٩
٨٩	ويا قوم لا يجير منكم	٢٦١
٩٠	واستغفروا ربكم	٢٦٢
٩١	قالوا يا شعيب ما نفقه	٢٦٣
٩٢	قال يا قوم أرهطى	٢٦٤
٩٣	ويا قوم اعملوا على مكانتكم	٢٦٤
٩٤	ولما جاء أمرنا نجينا	٢٦٥
٩٥	كأن لم يفتوا فيها	٢٦٥
٩٦	ولقد أرسلنا موسى	٢٦٧
٩٧	إلى فرعون وملئه	٢٦٧
٩٨	يقدم قومه يوم القيامة	٢٦٨
٩٩	وأتبعوا في هذه لعنة	٢٦٨
١٠٠	ذلك من أنباء القرى	٢٧٠
١٠١	وما ظلمناهم ولكن ظلّموا	٢٧١
١٠٢	وكذلك أخذ ربك	٢٧٢
١٠٣	إن في ذلك لآية	٢٧٣

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١٠٤	وما تؤخره إلا لأجل	٢٧٤
١٠٥	يوم يأت لاتكلم نفس	٢٧٤
١٠٦	فأما الذين شقوا	٢٧٥
١٠٧	خالدين فيها مادامت	٢٧٦
١٠٨	وأما الذين سعدوا	٢٧٩
١٠٩	فلاتك في مرية	٢٨٠
١١٠	ولقد آتينا موسى	٢٨٢
١١١	وإن كلا لما ليوفينهم	٢٨٣
١١٢	فاستقم كما أمرت	٢٨٤
١١٣	ولا تركنوا إلى الذين	٢٨٥
١١٤	وأقم الصلاة	٢٨٦
١١٥	واصبر فإن الله	٢٨٩
١١٦	فلولا كان من القرون	٢٨٩
١١٧	وما كان ربك	٢٩٢
١١٨	ولو شاء ربك	٢٩٣
١١٩	إلا من رحم ربك	٢٩٣
١٢٠	وكلا نقص عليك	٢٩٥
١٢١	وقل للذين لا يؤمنون	٢٩٥
١٢٢	وانتظروا إنا منتظرون	٢٩٥
١٢٣	والله غيب السموات والأرض	٢٩٦

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يوسف »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	تعريف بسورة يوسف	٢٩٩
١	الرتلك آيات الكتاب	٣١٣
٢	إنا أنزلناه قرآناً عربياً	٣١٥
٣	نحن نقص عليك	٣١٦
٤	إذ قال يوسف لأبيه	٣١٧
٥	قال يا بنى لا تقصص	٣١٨
٦	وكذلك يجتبيك ربك	٣١٩
٧	لقد كان فى يوسف	٣٢١
٨	إذ قالوا لىوسف وأخوه	٣٢٢
٩	اقتلوا يوسف أو اطرحوه	٣٢٣
١٠	قال قائل منهم	٣٢٥
١١	قالوا يا أبانا	٣٢٦
١٢	أرسله معنا غداً	٣٢٦
١٣	قال إنى ليحزننى	٣٢٧
١٤	قالوا لئن أكله الذئب	٣٢٧
١٥	فلما ذهبوا به	٣٢٧
١٦	وجاءوا أباهم عشاء	٣٢٩
١٧	قالوا يا أبانا إنا ذهبنا	٣٢٩
١٨	وجاءوا على قميصه	٣٣٠
١٩	وجاءت سيارة	٣٣٢
٢٠	وشروه بثمان بخص	٣٣٤
٢١	وقال الذى اشتراه	٣٣٥
٢٢	ولما بلغ أشده	٣٣٦

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٢٣	وراودته التي هو في بيتها	٣٣٧
٢٤	ولقد همت به	٣٤١
٢٥	واستيقا الباب	٣٤٤
٢٦	قال هي راودتني	٣٤٥
٢٧	وإن كان قميصه	٣٤٦
٢٨	فلما رأى قميصه	٣٤٧
٢٩	يوسف أعرض عن هذا	٣٤٧
٣٠	وقال نسوة في المدينة	٣٥٠
٣١	فلما سمعت بمكرهن	٣٥٢
٣٢	قالت فذلكن	٣٥٤
٣٣	قال رب السجن أحب إلي	٣٥٥
٣٤	فاستجاب له ربه	٣٥٦
٣٥	ثم بدا لهم	٣٥٧
٣٦	ودخل معه السجن فتيان	٣٥٩
٣٧	قال لا يأتيكما طعام	٣٦٠
٣٨	واتبعتم ملة آباي	٣٦١
٣٩	ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون	٣٦١
٤٠	ما تعبدون من دونه	٣٦٢
٤١	يا صاحبى السجن أما أحدكما	٣٦٣
٤٢	وقال للذى ظن أنه ناج	٣٦٤
٤٣	وقال الملك إني أرى	٣٦٥
٤٤	قالوا أضغاث أحلام	٣٦٨
٤٥	وقال الذى نجا	٣٦٩
٤٦	يوسف أيها الصديق	٣٧٠
٤٧	قال تزرعون سبع سنين	٣٧٠
٤٨	ثم يأتى من بعد ذلك سبع	٣٧١
٤٩	ثم يأتى من بعد ذلك عام	٣٧٢

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٥٠	وقال الملك اتتوني به	٣٧٢
٥١	قال ما خطبكن	٣٧٥
٥٢	ذلك ليعلم أنى لم أخنه	٣٧٧
٥٣	وما أبرئ نفسي	٣٧٧
٥٤	وقال الملك اتتوني به أستخلصه لنفسي	٣٧٩
٥٥	قال اجعلنى على خزائن الأرض	٣٨٠
٥٦	وكذلك مكنا ليوسف	٣٨١
٥٧	ولأجر الآخرة خير	٣٨٢
٥٨	وجاء إخوة يوسف	٣٨٢
٥٩	ولما جهزهم بجهازهم	٣٨٤
٦٠	فإن لم تأتوني به	٣٨٥
٦١	قالوا سنراود عنه أباه	٣٨٥
٦٢	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم	٣٨٦
٦٣	فلما رجعوا إلى أبيهم	٣٨٧
٦٤	قال هل آمنكم عليه	٣٨٩
٦٥	ولما فتحوا متاعهم	٣٨٩
٦٦	قال لن أرسله معكم	٣٩١
٦٧	وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد	٣٩١
٦٨	ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم	٣٩٣
٦٩	ولما دخلوا على يوسف	٣٩٤
٧٠	فلما جهزهم بجهازهم	٣٩٦
٧١	قالوا وأقبلوا عليهم	٣٩٦
٧٢	قالوا نفقد صواع الملك	٣٩٧
٧٣	قالوا تالله لقد علمتم	٣٩٧
٧٤	قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين	٣٩٧
٧٥	قالوا جزاؤه	٣٩٧
٧٦	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه	٣٩٨

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٤٠٠	قالوا إن يسرق	٧٧
٤٠١	قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا	٧٨
٤٠١	قال معاذ الله	٧٩
٤٠٢	فلما استياسوا منه	٨٠
٤٠٤	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا	٨١
٤٠٤	واسأل القرية	٨٢
٤٠٥	قال بل سولت لكم أنفسكم	٨٣
٤٠٦	وتولى عنهم وقال يا أسفى	٨٤
٤٠٧	قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف	٨٥
٤٠٨	قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله	٨٦
٤٠٩	يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف	٨٧
٤١٠	فلما دخلوا عليه	٨٨
٤١٢	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف	٨٩
٤١٢	قالوا أئنك لأنت يوسف	٩٠
٤١٣	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا	٩١
٤١٣	قال لا تثريب عليكم اليوم	٩٢
٤١٣	اذهبوا بقميصى هذا	٩٣
٤١٤	ولما فصلت العير	٩٤
٤١٤	قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم	٩٥
٤١٤	فلما أن جاء البشير	٩٦
٤١٥	قالوا يا أبانا استغفر لنا	٩٧
٤١٥	قال سوف أستغفر لكم ربي	٩٨
٤١٥	فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه	٩٩
٤١٧	ورفع أبويه على العرش	١٠٠
٤١٨	رب قد آتيتنى من الملك	١٠١
٤١٩	ذلك من أنباء الغيب	١٠٢
٤٢١	وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين	١٠٣

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٤	وما تسألهم عليه من أجر	٤٢١
١٠٥	وكأين من آية	٤٢٢
١٠٦	وما يؤمن أكثرهم	٤٢٢
١٠٧	أفأمنوا أن تأتيهم غاشية	٤٢٣
١٠٨	قل هذه سبيلي	٤٢٣
١٠٩	وما أرسلنا من قبلك	٤٢٤
١١٠	حتى إذا استتس الرسل	٤٢٥
١١١	لقد كان في قصصهم عبرة	٤٢٦

فهرس إجمالى لتفسير سورة الرعد

صفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٤٣٦	المقدمة والتمهيد	
٤٣٧	المرتلك آيات الكتاب	١
٤٣٩	الله الذى رفع السموات	٢
٤٤٠	وهو الذى مد الأرض وجعل	٣
٤٤٢	وفى الأرض قطع متجاورات	٤
٤٤٥	وإن تعجب فعجب قولهم	٥
٤٤٧	ويستعجلونك بالسيئة	٦
٤٤٩	ويقول الذين كفروا لولا	٧
٤٥٠	الله يعلم ما تحمل كل أنثى	٨
٤٥١	عالم الغيب والشهادة	٩
٤٥٢	سواء منكم من أسر القول	١٠
٤٥٢	له معقبات من بين يديه	١١
٤٥٤	هو الذى يريكم البرق	١٢
٤٥٥	ويسبح الرعد بحمده	١٣
٤٥٨	له دعوة الحق	١٤
٤٦٠	وقه يسجد من فى السموات	١٥
٤٦٢	قل من رب السموات والأرض	١٦
٤٦٤	أنزل من السماء ماء فسالت	١٧
٤٦٧	للذين استجابوا لربهم الحسنى	١٨
٤٦٨	أفمن يعلم أن ما أنزل	١٩
٤٦٩	الذين يوفون بعهده الله	٢٠
٤٧٠	والذين يصلون ما أمر الله	٢١
٤٧٠	والذين صبروا ابتغاء	٢٢

رقم الآية	الآية المفسرة	صفحة
٢٣	جنات عدن يدخلونها	٤٧٢
٢٤	سلام عليكم بما صبرتم	٤٧٣
٢٥	والذين ينقضون عهد الله	٤٧٣
٢٦	الله ييسط الرزق لمن يشاء	٤٧٤
٢٧	ويقول الذين كفروا	٤٧٦
٢٨	الذين آمنوا وتطمئن	٤٧٨
٢٩	الذين آمنوا وعملوا	٤٧٨
٣٠	كذلك أرسلناك في أمة	٤٧٩
٣١	ولو أن قرآنا سيرت	٤٨١
٣٢	ولقد استهزىء برسل	٤٨٤
٣٣	أفمن هو قائم	٤٨٤
٣٤	لهم عذاب في الحياة الدنيا	٤٨٩
٣٥	مثل الجنة التي وعد	٤٨٩
٣٦	والذين آتيناهم الكتاب	٤٩٠
٣٧	وكذلك أنزلناه حكما	٤٩٢
٣٨	ولقد أرسلنا رسلا من قبلك	٤٩٤
٣٩	يمحو الله ما يشاء ويثبت	٤٩٥
٤٠	وإما نرينك بعض الذي	٤٩٦
٤١	أولم يروا أنا نأتى الأرض	٤٩٦
٤٢	وقد مكر الذين من قبلهم	٤٩٨
٤٣	ويقول الذين كفروا لست	٤٩٨

فهرس إجمالى لتفسير سورة إبراهيم

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتعريف بالسورة	٥٠٥
١	الر . كتاب أنزلناه	٥٠٩
٢	الله الذى له مافى السموات	٥١١
٣	الذفن يستحبون الحياة الدنيا	٥١١
٤	وما أرسلنا من رسول	٥١٢
٥	ولقد أرسلنا موسى	٥١٥
٦	وإذ قال موسى لقومه	٥١٩
٧	وإذ تأذن ربكم	٥٢١
٨	وقال موسى إن تكفروا	٥٢٢
٩	ألم يأتكم نبالذفن	٥٢٣
١٠	قالت رسلهم أفى الله شك	٥٢٨
١١	قالت لهم رسلهم إن نحن	٥٣٠
١٢	ومالنا أن لا نتوكل على الله	٥٣١
١٣	وقال الذفن كفروا لرسلمهم	٥٣٢
١٤	ولنسكننكم الأرض من بعدهم	٥٣٤
١٥	واستفتحوا وخاب	٥٣٥
١٦	من ورائه جهنم ويسقى	٥٣٧
١٧	يتجرعه ولا يكاد يسيغه	٥٣٧
١٨	مثل الذفن كفروا برهم	٥٣٨
١٩	ألم تر أن الله خلق السموات	٥٤١
٢٠	وماذلك على الله بعزفز	٥٤٢
٢١	وبرزوا لله جمفعا	٥٤٢
٢٢	وقال الشفطان لما قضى الأمر	٥٤٥

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٣	وأدخل الذين آمنوا	٥٤٨
٢٤	ألم تر كيف ضرب الله	٥٤٩
٢٥	توفى أكلها كل حين	٥٥١
٢٦	ومثل كلمة خبيثة	٥٥٢
٢٧	يشيت الله الذين آمنوا	٥٥٢
٢٨	ألم تر إلى الذين بدلوا	٥٥٤
٢٩	جهنم يصلونها	٥٥٦
٣٠	وجعلوا لله أندادا	٥٥٦
٣١	قل لعبادي الذين آمنوا	٥٥٧
٣٢	الله الذي خلق السموات	٥٥٩
٣٣	وسخر لكم الشمس والقمر	٥٦٠
٣٤	وأتاكم من كل ما سألتموه	٥٦١
٣٥	وإذ قال إبراهيم رب اجعل	٥٦٣
٣٦	رب إنهن أضللن كثيرا	٥٦٥
٣٧	ربنا إني أسكنت من	٥٦٦
٣٨	ربنا إنك تعلم ما نخفي	٥٦٩
٣٩	الحمد لله الذي وهب لي	٥٦٩
٤٠	رب اجعلني مقيم الصلاة	٥٧٠
٤١	ربنا اغفر لي ولوالدي	٥٧٠
٤٢	ولا تحسبن الله غافلا	٥٧١
٤٣	مهطمين مقنعي رموسهم	٥٧٣
٤٤	وأنذر الناس يوم	٥٧٤
٤٥	وسكنتم في مساكن	٥٧٥
٤٦	وقد مكروا مكروهم	٥٧٦
٤٧	فلا تحسبن الله مخلف	٥٧٧
٤٨	يوم تبدل الأرض	٥٧٨
٤٩	وترى المجرمين يومئذ	٥٧٩

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٥٠	سراييلهم من قطران	٥٧٩
٥١	ليجزى الله كل نفس	٥٨٠
٥٢	هذا بلاغ للناس	٥٨٠